

محمد سلماوي:

حوارات

نجيب محفوظ



أعمال محمد سلماوي

الصادرة عن دار الكرامة

أوديب في الطائرة - رواية

يوماً أو بعض يوم: مذكرات (١٩٤٥-١٩٨١)

العصف والريحان: مذكرات (١٩٨١-٢٠١٥)

الأمير الصغير - رواية من تأليف أنطوان دو سانت اكزوبيري
وترجمها عن الفرنسية محمد سلماوي

مسيو إبراهيم وزهور القرآن - رواية من تأليف إريك-إيمانويل شميت وترجمها عن الفرنسية محمد سلماوي

حوارات نجيب محفوظ

محمد سلاماوي

حوارات
نجيب
محمفوظ





alkarmabooks.com
facebook.com/alkarmabooks
X.com/alkarmabooks
instagram.com/alkarmabooks

حقوق النشر © دار الكرمة ٢٠٢٥
© محمد سلماوي ٢٠١٥
الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة

تتمسك الكرمة بحقوق الملكية الفكرية، فاحترام الملكية الفكرية يدعم الإبداع ويعزز الإنتاج الثقافي. نشركم لشرائكم نسخة أصلية من هذا الكتاب، ولامتناعكم عن استخدام أو إعادة طباعة أي جزء منه بأي طريقة من دون الحصول على موافقة خطية من الناشر، لأنكم بذلك تدعون المؤلفين وتسمحون للكرمة بالاستمرار في نشر الكتب التي تعجبكم.

سلماوي، محمد.
حوارات نجيب محفوظ: محمد سلماوي - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٥.
٣٢٠ ص؛ ٢٢ سم.
تدمك: 9789779603131
مصر - ثقافة - مقالات.
أ. العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٩٣١٦ / ٢٠٢٤

تصميم الغلاف: أحمد فرج

[مقدمة: حوارات اليوم وليس](#)

[الأمس](#)

[الله والدين](#)

[العنف والإرهاب](#)

[التصدي للإرهاب](#)

[مسببات الإرهاب](#)

[السياسة والأدب](#)

[الأدب والفلسفة ١](#)

[الأدب والتعليم](#)

[سعد زغول](#)

[مصطفى كامل ومحمد فريد](#)

[النحاس ومكرم عبيد](#)

[جمال عبد الناصر](#)

[أنور السادات](#)

[أثر الحادث](#)

[المعاهدة النووية](#)

[القومية العربية](#)

[أم كلثوم](#)

[العالمية في الأدب](#)

[مواصفات العالمية](#)

[تخليد العظماء](#)

[حرية الصحافة](#)

[تجاوزات الصحافة](#)

[مصر والسودان](#)

[مدرسة العبث](#)

[أهمية الترجمة](#)

[الهوية والتحديث](#)

[الثقافة والديمقراطية](#)

[رحيل عبد الناصر](#)

[موضوعية الرواد](#)

[عباس العقاد](#)

[العقاد أنصفي](#)

[العقاد تنبأ لي بنوبل](#)

[توفيق الحكيم](#)

[المازني](#)

[الشتاء](#)

[الشتاء والصيف](#)

[الكاتب بين نارين](#)

[عيد الميلاد](#)

[دعوى الحسبة!](#)

[طفولتي وصباي](#)

[القرارات الأولى](#)

[أول الأصدقاء](#)

[أصدقاء العباسية](#)

[الحرافيش](#)

[أحمد مظهر](#)

[الدائرة المشؤومة](#)

[من بقي من الحرافيش](#)

[الصدائة](#)

[الحارة](#)

[روض الفرج](#)

[الإسكندرية](#)

[إسكندرية الامتيازات](#)

[الإسكندرية المصرية](#)

[الإسكندرية في رواياتي](#)

[النيل](#)

[القاهرة الثقافية](#)

[التراث](#)

[التزوير](#)

[ثقافة الأديب](#)

[مقالب الأديب](#)

[الأديب و الصحافة](#)

[الصحافة و اللغة العربية](#)

[أنا و الصحافة](#)

[أحمد بهاء الدين](#)

[الحالة الصحية](#)

[السد لم يكتمل](#)

[يوسف و هبي](#)

[مدينة رمسيس](#)

[تقاليد المسرح](#)

[رمضان](#)

[طقوس رمضان](#)

[الفول و الكنافة](#)

[قهوة الفيشاوي](#)

[القراءة في رمضان](#)

[فسحة العيد](#)

[ذكريات العيد](#)

[كنيسة أبو قرقاص](#)

[الوحدة الوطنية](#)

[القدس](#)

[مستوطنات القدس](#)

[الموسيقى و الفن التشكيلي](#)

[الفيديو الأمريكي](#)

[قسمتي و نصيبي](#)

[الاستنساخ](#)

[الاستنساخ و الناموس](#)

[القهوة](#)

[قهوة المثقفين](#)

[قهوة عربي](#)

[المعلم عربي](#)

[قهاوي الإسكندرية](#)

[أدب ٥ يونيو](#)

[الرواية](#)

[الجوائز](#)

[أول جائزة](#)

[الثورة والثقافة](#)

[البطجة](#)

[البطجة والقضاء](#)

[الفرعونية والعربية](#)

[الهوية المصرية](#)

[الأقباط](#)

[أكتوبر](#)

[الهند](#)

[الناقد الأدبي والفني](#)

[تبرعات رأس المال](#)

[الدور الاجتماعي لرأس المال](#)

[محاكمة جارودي](#)

[قصتي مع «الأهرام»](#)

[جماهيريتي في «الأهرام»](#)

[الأدب العربي](#)

[مئوية الحكيم](#)

[جلسات الحكيم](#)

[شخصية الحكيم](#)

[البعد الديني](#)

[نزار مع الحرافيش](#)

[الأدب الفرنسي](#)

[الأساتذة الفرنسيون](#)

[مثال الحشرات](#)

[اضطهاد الأقباط!](#)

[المولد النبوي](#)

[أدب الاعتراف](#)

[قيمة أدب الاعتراف](#)

[زكريا أحمد](#)

[حول جمال عبد الناصر](#)

[كتاب العقاد عن سعد](#)

[فاتورة الحساب](#)

[حريق المسافر خانة](#)

[طه حسين](#)

[علاقتي بطه](#)

[نحن وأفريقيا](#)

[الوحدة العربية](#)

[أولاد حارتنا](#)

[علي الراعي](#)

[علي الراعي و«الثلاثية»](#)

[الإسلام](#)

[لطفي الخولي](#)

[فتحي غانم](#)

[الصحراء](#)

[«الثلاثية» والإسلام](#)

[السياسة والمبادئ](#)

[القرن الحادي والعشرون](#)

[المدخن القديم](#)

[المرأة](#)

[المرأة في حياتي](#)

[رحيل الأم](#)
[«الخبز الحافي»](#)
[سؤال من شاب](#)
[ذكريات الكرة](#)
[المرحلة الفرعونية](#)
[الكتابة بعد الحادث](#)
[البحث العلمي](#)
[أحمد زويل](#)
[السحابة السوداء](#)
[القطاع العام](#)
[الغموض في الأدب](#)
[الجماهيرية في الأدب](#)
[مؤلف الرواية الواحدة](#)
[أهم روايات القرن!](#)
[«كفاح طيبة»](#)
[حصاد القرن العشرين](#)
[إعلان حقوق الإنسان](#)
[الأمال الوطنية](#)
[الطربوش والقبعة](#)
[البدلة وربطة العنق](#)
[الاطلاع على العصر](#)
[محمود سعيد](#)
[الأدب والفن التشكيلي](#)
[أحزان الموت](#)
[كلوب محمد علي](#)
[رحلة العائلة المقدسة](#)
[القرآن والرواية الحديثة](#)
[«ألف ليلة وليلة»](#)
[عيسى بن هشام والرواد](#)

[تنظيم الكتابة](#)

[كيف تكتب](#)

[ثورة يوليو](#)

[يوم الثورة](#)

[لست ضد العروبة!](#)

[ميراث مصر القديمة](#)

[والفنون القديمة](#)

[نصيحة الأستاذ للشباب!](#)

[يوم في حياتي](#)

[تحضر الإسرا ئيليين!](#)

[قضية القدس](#)

[مصر وفلسطين!](#)

[الإعلام الأمريكي](#)

[فؤاد سراج الدين](#)

[الوفد والثورة](#)

[مصر المتفائلة](#)

[دار الكتب](#)

[كراسة الروايات](#)

[التصوف والشعر](#)

[«أولاد حارتنا»](#)

[الفناء الثالث](#)

[رؤية الكاتب](#)

[زيارة سفير فنزويلا](#)

[مصر في مهرجان كان](#)

[سينما بيت القاضي](#)

[وسينما أولمبيا](#)

[حديث السينما](#)

[الأثار المصرية](#)

[سعاد حسني](#)

[ألماني في باب الفتوح](#)

[ضجر الصيف](#)

[الأحلام الجديدة](#)

[أحلام فترة النقاهاة](#)

[قصص الأحلام](#)

[مئوية نويل](#)

[القوة والعدل](#)

[شيخ الجبل](#)

[القاهرة في أعالي](#)

[مصدر الإلهام](#)

[العبد التسعون](#)

[محطة سيدي جابر](#)

[ما وراء العشق](#)

[«الأحلام» تقترب من الواقع](#)

[زوج الاثنتين](#)

[أوبرا «اللس والكلاب»](#)

[صديقي الخروف](#)

[النيل فسحة العيد](#)

[أهم خمسة كتب](#)

[ثروت أباطة الصديق](#)

[ثروت أباطة الأديب](#)

[ثروت أباطة الفارس](#)

[إرهاب إسرائيل](#)

[موقف أمريكا](#)

[الفاستينيون منتصرون!](#)

[الأديب والوطن](#)

[حرب العراق](#)

[من المستفيد](#)

[الكتاب كسلعة](#)

[الأثار في حياتنا](#)

[القلم](#)

[عبد الرحمن بدوي](#)

[حكائتي مع العامية](#)

[الأديب والحريّة](#)

[الأحلام تتعزز](#)

[توقف الأديب](#)

[ما أفتقده الآن](#)

[المشي](#)

[الفتوة على الساحة الدولية](#)

[الشعر](#)

[الشعر في صباي](#)

[الشعر في شبابي](#)

[الاستنساخ](#)

[تحية العيد](#)

[ثلاثة مظاهر للعيد](#)

[مع نادين جورديمر](#)

[الانتخابات](#)

[ما الذي بقي](#)

[مصر الغازية](#)

[البرلمان العربي](#)

[مع روبيير سوليه](#)

[القراءة بالفرنسية](#)

[هدايا عيد الميلاد](#)

[كم سعر النسخة](#)

[آل السحار](#)

[غاندي ووحدتنا الوطنية](#)

[كراسات الروايات](#)

[ياسر عرفات](#)

[العرب في فرانكفورت](#)

[الثقافة والسلام](#)

[لحظات الحزن](#)

[ولحظات أخرى](#)

[الغاء المعاهدة](#)

[الأديب والأحداث الكبرى](#)

[الكتاب والإنترنت](#)

[أمريكا في الماضي](#)

[بين المسرح والرواية](#)

[كتاب «الأحلام»](#)

[التصوف](#)

[«ليالي ألف ليلة»](#)

[الأدب والتراث](#)

[وضع مقلوب](#)

[الديمقراطية](#)

[مصر دولة ديمقراطية](#)

[الثورة الأخلاقية](#)

[محفوظ وجرهام جرين](#)

[مصر القبطية](#)

[العيد في فلسطين](#)

[ميلاد العمل الأدبي](#)

[مصر واليونان](#)

[٦ أكتوبر](#)

[أدباء نوبل](#)

[القيمة الإنسانية للأدب](#)

[هاري بوتر](#)

[النجاح الجماهيري](#)

[دور مصر](#)

[الجامعة العربية](#)

موقف الأديب

حرب غير أخلاقية

نحن والغرب

العولمة الثقافية

بيت الطفولة

إفطار النقاهاة

عودة الابتسامة

بين البرلمان والشارع

ثورة ١٩ وثوراة يوليو

مدرسة الوطنية

الإرهاب والدين

من المسؤول

هروب الأحلام

نوبل

حُسن الختام

في مساء يوم بارد من شتاء عام ١٩٩٤ انتظر الشاب محمد ناجي أمام منزل أديبنا الأكبر نجيب محفوظ، إلى أن خرج وركب سيارة الدكتور فتحي هاشم كي يذهب إلى لقائه الأسبوعي بالأصدقاء، ثم اتجه الشاب بسرعة إلى السيارة التي كان شباكها بجوار محفوظ مفتوحاً، وغرس سكيناً حاداً في رقبته تنفيذاً لفتوى الشيخ الضرير المقيم في الولايات المتحدة عمر عبد الرحمن. وفي غرفة العناية المركزة بمستشفى الشرطة الملاصقة لمنزل محفوظ حكى لي الأستاذ في اليوم التالي تفاصيل ما جرى، وكيف تصور في البداية أن الشاب أراد أن يسلم عليه أو يحصل على توقيع. لكنه فوجئ بما شعر بأنه مخالب نشبت في رقبته، فانفجرت منها الدماء غزيرة، لولا أن صديقه قائد السيارة كان طبيبياً فاتجه به على الفور إلى المستشفى، وخلال دقائق كان محفوظ في غرفة العمليات، حيث تم إنقاذ حياته من موت محقق.

وشعرت في صوت محفوظ بنبرة تعاطف مع ذلك المجرم الشاب الذي تجرأ على أحد رموز مصر اللامعة وعلمها الذي يرفرف في سماء الثقافة العالمية، حيث قال لي: «إنه ضحية من دفعوه إلى ذلك، وضحية المجتمع الذي أوصله، وهو شاب يافع كان يمكن أن يكون بطلاً رياضياً، إلى أن يصبح مجرماً». فسألته: «أفهم من ذلك أنك تسامحه، وتعفو عن محاولته اغتيالك؟». قال: «بالطبع أسامحه، فهو مغرر به لا يدري ماذا يفعل، أما العفو فأنا لا أملكه، لأن القانون لا بد سيأخذ مجراه».

وقد قابلت محمد ناجي بعد القبض عليه، فوجدته غير نادم على فعلته، وسألته إن كان قد قرأ رواية «أولاد حارتنا» التي بسببها أقدم على محاولة اغتيال محفوظ، فنفى ذلك، ونقلت إليه ما قاله لي محفوظ من أنه يسامحه، فلم يتأثر.

ولسماحة أديبنا الأكبر وإنسانيته، لم يترك الحادث أي ندبة نفسية على شخصيته، فقد ظل كما هو، بطيبة قلبه ودماثة خلقه وروح الدعابة التي تمتع بها طوال عمره، لكن ضربة السكين التي جاءت في الجانب الأيمن من رقبته تركت أثراً مدمراً على يده التي لم يعد يستطيع تحريكها بالقدر الذي يسمح له بالكتابة.

وكان محفوظ يكتب مقالاً أسبوعياً في باب «وجهة نظر» بجريدة «الأهرام» ظل يُنشر طوال عشرين عاماً، وبعد أن نفذ منه ما كان محفوظ قد كتبه قبل الحادث، قال لي إنه لا يقبل أن يتقاضى مرتبه من الجريدة دون أن يكتب. فقلت له إن مجرد انتمائه إلى «الأهرام» يجعل الجريدة مستعدة لدفع أضعاف ما يتقاضاه منها كل شهر، لكنه كان لديه ترتيب آخر، فأملى عليّ خطاباً إلى رئيس التحرير، قال فيه إنه يرغب في أن يتحول مقاله الأسبوعي إلى حوار يجريه معه أسبوعياً كاتب

هذه السطور. فتوقفت عن الكتابة، وقد فوجئت بذكر اسمي، وقلت له: «لقد شرفنتي من قبل يا أستاذ نجيب باختياري لأكون ممثلك الشخصي في احتفالات نوبل، وأن ألقى خطابك بهذه المناسبة في الأكاديمية السويدية، وهذا يكفيني مدى الحياة». ثم قلت: «لقد تعود القارئ أن يطالع مقالك كل يوم خميس، فلماذا لا تملية عليّ ليُنشر كَمقال، إلى أن تتمكن بالعلاج الطبيعي من العودة للكتابة بنفسك؟». فقال: «إنني أريدك أن تأتي إليّ كل أسبوع وتطرح عليّ موضوعًا نتحاور فيه، وهذا سيكون حوارًا، فلماذا نقدمه وكأنه مقال؟». قلت: «ولماذا أنا؟ ألا تحب أن نفكر معًا في بعض الأسماء الأخرى التي يمكن أن تُجري معك هذا الحوار؟». قال: «لقد اتخذت قراري، وانتهى الأمر، إلا إذا كنت أنت غير راغب في ذلك أو ليس لديك الوقت». قلت: «كيف ذلك يا أستاذ نجيب؟ يكفي أنني سألقاك أسبوعيًا لأجري هذا الحوار. إنني أتساءل فقط: لماذا أنا؟». وكان محفوظ جاهزًا بالرد: «إننا مختلفان، فأنت تنتمي إلى جيل ثورة يوليو، وأنا أنتمي إلى جيل ثورة ١٩١٩، وأنت كاتب مسرحي في الأساس، وأنا روائي، وهذا سيثري الحوار، لأنني لا أريد شخصًا يتفق معي في كل شيء، وكلما قلت له شيئًا قال آمين».

وهكذا بدأت فكرة «حوارات نجيب محفوظ» التي نُشرت لأول مرة في «الأهرام» يوم ٢٢ ديسمبر ١٩٩٤، وظلت تتوالى على مدى ١٢ عامًا، إلى أن رحل صاحبها عن عالمنا في نهاية أغسطس عام ٢٠٠٦.

وقد ظللت طوال تلك السنوات أقصد منزل نجيب محفوظ بالعجوزة في السادسة مساء كل يوم سبت، ومعني جهاز تسجيل صغير يُسجل المقابلة التي قد تستمر ما بين نصف الساعة أو الساعة، حسب حالته الصحية، يتحدث محفوظ خلالها في موضوعات كثيرة أطرحتها عليه أو يقترحها هو، ثم أختار منها في النهاية ما يناسب النشر وأعرضه عليه قبل أن أسلمه للجريدة.

وعلى الرغم من أن هذه الجلسات كانت تقتصر في معظم الوقت علينا وحدنا، فإنه في بعض الأحيان كان عدد من الصحفيين الأجانب أو السفراء أو بعض كبار الزائرين يطلبون لقاء محفوظ الذي أصبحت زيارته مكملة لزيارة معالم البلاد. فكان الضيف الأجنبي يزور الأهرامات وأبا الهول ويلتقي نجيب محفوظ، وكنت كلما أخبرته بأن هناك من يريد لقاءه قال لي: «أحضره معك يوم السبت».

وهكذا تجمع لديّ ما يقرب من ٥٠٠ ساعة مسجلة بصوت أديب العربية الأكبر، يتحدث فيها عن الثقافة والسياسة والأدب، كما يتحدث عن حياته الشخصية وذكرياته، ويجيب عن أسئلة زواره.

ويضم هذا الكتاب مختارات، مما كان يُنشر من هذه الحوارات بجريدة «الأهرام» يوم الخميس من كل أسبوع، وقد أوردتها هنا كما نُشرت ودون تدخل مني، إلا في بعض التقديم والتأخير حتى أضم الحوارات التي تعالج موضوعات متصلة ببعضها البعض في سياق متسلسل. وفي هذه

الحوارات تتضح بصيرة نجيب محفوظ وموسوعية معرفته وشمول رؤيته مما يجعل هذه الحوارات صالحة لكل العصور، حتى يكاد القارئ يشعر بأنها أجريت اليوم، وأن محفوظ يتحدث فيها عن موضوعات حالية، ويطرح آراء ما أحوجنا إليها فيما نواجهه اليوم من مشاكل، ويتحدث عن ذكرياته، وعن سيرته التي لم تُكتب حتى الآن، ويتطرق إلى موضوعات لا تتقدم، خاصة بالثقافة وبإبداعه الذي أثرى حياتنا منذ ثلاثينيات القرن الماضي، وما زال يثريها، لكنها قبل ذلك كله وبعده جلسة حميمة تأخذ القارئ إلى مجلس رجل من أعظم وأمتع رجالات مصر في عصرنا الحديث.

محمد سلماوي

بعد ما أثير حول رواية «أولاد حارتنا» وحتى نأخذ الأمور من بدايتها، لم يكن من الممكن إلا أن أبدأ حواراً مع الأستاذ نجيب محفوظ بالسؤال عن الدين، فقلت: بعد كل ما حققته البشرية من تقدم وتكنولوجيا، هل ما زال هناك مكان في عالمنا المادي هذا للدين؟

قال بلا تردد: بل دعني أقل لك إنه بسبب هذا التقدم الذي سخر للإنسان قوة هائلة لم يكن يسيطر عليها من قبل، ولم يكن يتصورها حتى في الخيال أصبحت ضرورة الدين أشد، لأن هذه القوة إما أن يُراعى في استخدامها شيء من المبادئ الإنسانية والأخلاقية، أو ستخضع لتقدير العقل والمصلحة وحدهما، والعقل والمصلحة بعيداً عن المبادئ قد تنشأ عنهما الكثير من الكوارث، مثل الحربين العظميين اللتين كان الدافع وراءهما هو المصلحة. إن ما نراه الآن حولنا من جرائم وأحداث اغتصاب وأعمال عنف، إنما هو نتاج لانفصال العقل والمصلحة عن المبادئ. أما حين تخضع قوة الإنسان للمبادئ الدينية، فإنها تصبح لخير الإنسان.

أوليس الدين بهذه الصورة - كمنظومة من المبادئ - يمكن الاستعاضة عنه ببعض الفلسفات الوضعية الحديثة التي تنطوي هي الأخرى على المبادئ الإنسانية والأخلاقية؟

هناك من الفلسفات ما يدعو إلى المبادئ العامة، هذا صحيح، لكن أغلبها متأثر بالأصل الديني. فلم يكن جان جاك روسو مثلاً، بعيداً عن المسيحية، ولا كان فرانسيس بيكون. على أن ما يقدمه الإنسان من اجتهاد ليس مثل ما يتلقاه، وهو مؤمن بأنه آتٍ من رب هذا الكون، هناك فرق كبير بين الاثنين، لذلك تجد مبادئ بعض الناس أحسن ما تكون، لكن أصحاب الإيمان وحدهم هم الذين يموتون في سبيل المثل والمبادئ النبيلة، فورا التضحية دائماً إيمان، وليس مجرد اقتناع عقلي، وهو ما جعل الفلاسفة أنفسهم يطالبون بالدين، مثل الفرنسي فيكتور كوزان الذي قال في القرن الماضي إننا في حاجة إلى الدين من أجل الدين.

إذن فالفارق بين الفلسفة والدين هو الإيمان بوجود الله!

قال مبتسماً: وهل هذا فارق بسيط؟ إن الذي يخلق المبادئ بعقله قد يتشكك فيها، قد يقول لنفسه ما الذي يلزمني بهذا؟ ولماذا أضحي بلذتي وسعادتي السريعة وجميع الفوائد الأخرى من أجل بضع أفكار؟ لكن حين تكون المبادئ مستوحاة من الإله صاحب الكون وخالق الناس، يكون لها معنى آخر.

ثم يُنهي الكاتب الكبير حديثه قائلاً: الله هو الذي يُعطي للقيم معناها. الله هو الذي يعطي للوجود معناه. ودونه لا معنى للوجود، لا معنى للقيم، وبديله هو العبث، اللامعنى.

قلت في حوارك الأسبوع الماضي إن الكثير من أعمال العنف والجريمة التي نشهدها في عالمنا الآن هي نتيجة انفصال العقل والمصلحة عن المبادئ الدينية، فما قولك يا أستاذ نجيب في الدين حين تكون وسيلته في التعامل مع المجتمع هي العنف والإرهاب ذاته، الذي قلت إن الدين يقي منه؟ فيما أعلم، لا أعرف ديناً وسيلته العنف والإرهاب. ليس هناك دين يمسك سكيناً ويضرب به الناس لكي يحملهم على اعتناقه، والإسلام في مقدمة هذه الأديان، حيث قال تعالى: «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ» و«فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ». لا ليس هذا بالإسلام.

ألم يعرف الإسلام العنف في أيّ من مراحل التاريخية؟

كل شيء بأسبابه، كما أنه في الماضي كانت هناك أخطاء، لكننا لدينا القدوة الحسنة في السلف الصالح: الرسول والصحابة، هؤلاء أهم من حكام المماليك، والترك مثلاً، فهل نريد حكم النبي وحكم عمر، أم حكم معاوية وحكم الترك والديلم، أم أننا سنقتدي بالخوارج الذين رغم تقواهم الشديدة فهم أسوأ مثل في التطرف، فقد كانوا يكفرون وينفذون؟ إن الإسلام الحقيقي هو إسلام الرسول الذي لم يعرف التكفير ولا الإرهاب.

ثم يضيف الأستاذ في صوت رخيم: الإسلام لم يعرف العنف إلا دفاعاً عن النفس، وما غير ذلك فهو انحراف في الفهم، خطؤه نابع ممن يتبعونه ومسؤوليته تقع عليهم وليس على الإسلام. هل يمكن أن يكون هؤلاء في حالة دفاع عن النفس؟

لا، ليسوا في حالة دفاع عن النفس، وقد بدأوا هم بالعدوان. إن الإرهاب كجريمة لا يمكن الدفاع عنه، قد يمكن تفسيره أو فهم ظروفه، لكن تبريره أو الدفاع عنه لا يمكن، إلا إذا كان يمكن الدفاع عن الجريمة.

كيف يمكن تفسيره أو فهم ظروفه؟

إن كل مذهب به اعتدال بالوسط وتطرف على اليمين وآخر على اليسار، وفي مجال الأفكار لا بأس من ذلك، لأنه يدخل في باب الحوار، بل هو من متطلبات الحوار ولا ضرر منه البتة، وقد وُجدت المذاهب الإسلامية وغير الإسلامية على هذا الأساس.

ويختتم الأستاذ حوارَه بكلمات اختارها بعناية: أما في ظروف أخرى يشتد فيها الضغط الاجتماعي والاقتصادي وتسوء الحالة، فإن الفكر المتطرف بسبب يأسه قد يسقط في الجريمة. وعلاج الإرهاب كجريمة هو التصدي له دون تفكير، لأن من قتل يجب أن تُشهر سلاحك في وجهه، لا يمكن أن تتسامح مع الجريمة أو تؤجل التعامل معها، ولكن الاكتفاء بذلك خطأ، وهو يمثل نظرة ضيقة للظاهرة التي هي أوسع بكثير من الحيز الأمني. صحيح أن الشرطة تتصدى للإرهاب على أكمل وجه، لكن الأفكار التي أدت إلى هذا الإرهاب ما زالت في حاجة إلى من يتصدى لها، وذلك

لا يكون بالعنف وإنما بالفكر.

كيف يكون التصدي لظاهرة السلفية والتطرف الديني والإرهاب؟ هل يكون بطرح بديل عصري يعتمد على الفكر الحديث المتنور، أم يكون بالرد على المفاهيم الدينية الخاطئة، ومن ثم اللعب على نفس أرضية الاتجاه السلفي؟

إن القول بأن تجنّب التطرف والإرهاب يعتمد على تجنب الدين، إنما يعني أن ديننا يؤدي بالضرورة إلى الإرهاب، أو أن التنشئة الدينية تخلق الأرضية الصالحة لزراعة الإرهاب، وتلك فروض خاطئة. إن أفضل مقاومة للانحراف الديني والإرهاب هي التربية الدينية السليمة منذ الصغر، بإبراز الجانب الإنساني للدين وغناه وتأكيد مبدأ التسامح الذي يقوم عليه الدين والتركيز على القدوة الحسنة والحديثة. هذا هو المصلح الواقعي ضد الانحراف والإرهاب. الدين هو العلاج وليس الخروج عن الدين، لكن الدين المتقدم بالعلم، لأن التقدم لا يكون إلا بالعلم والدين معاً. ثم بيتسم الأستاذ في خجل، وهو يقول: لقد كنت أول من استخدم تعبير «العلم والإيمان» منذ أكثر من نصف قرن من الزمان، فلقد أحضر لي أحد الأصدقاء مقالاً قديماً نُشر لي «بالمجلة الجديدة» في بداية الثلاثينيات، كان هذا التعبير هو عنوانه.

وعلى من تقع مسؤولية التربية الدينية السليمة؟

المسؤولية تقع أولاً على التعليم، وقد تربينا جميعاً تربية دينية جيدة بالمدارس، فلم نتطرف ولم نتعصب ولم ننحرف، وكنا نفترق مؤقتاً مع إخواننا الأقباط، وقت درس الدين فقط، ثم نعود أصدقاء وأصحاباً، ثم هي بعد ذلك مسؤولية وسائل الإعلام من الإذاعة والتلفزيون. إن بعض ما تقدمه الإذاعة والتلفزيون يؤدي بالفعل إلى الانحراف، لأنه بعيد عن روح الدين، وأقرب إلى الخرافات والخزعبلات. إن أجهزة الإعلام يجب أن تحكي قصة الدين النير، الدين المتسامح، الدين الإنساني، وتملأ بها قلوب الناس.

ثم يضيف: إذا أردت مقاومة الإرهاب والانحراف، إذا أردت أن تدعو إلى إنسانية شاملة ومحبة شاملة، فانتشر الفكر الإسلامي الصحيح في مكانه الصحيح، ما بين التعليم والإعلام. وهل على المثقفين أيضاً مسؤولية؟

بالطبع، فالذين سيقومون بهذه المهمة هم المثقفون، فالمدرسون بالمدرسة من المثقفين، وكُتّاب المادة الدرامية بالإذاعة والتلفزيون من المثقفين أيضاً.

هل أسهمت أنت شخصياً يا أستاذ نجيب في هذا المجال؟

إن فكرة الدين والله من الأفكار الأساسية التي تدور دائماً في أعماقي، وقد برزت بالطبع فيما كتبت من قصص وروايات، فكل إناء بما فيه ينضح.

قلت في حوار سابق يا أستاذ نجيب إن للإرهاب أسبابًا كثيرة، بعضها فكري والبعض الآخر اجتماعي واقتصادي!

إن البعض لا يقبل هذه الفكرة، فإذا قلت إن من بين أسباب الإرهاب البطالة والفقير والغلاء يثورون ويفضلون القول بأن الإرهابيين مأجورون من الخارج، وأنا أقول دعونا لا نختلف فلندع الإرهاب جانبًا، أليس الفقر والغلاء والبطالة أعداء علينا محاربتنا؟ فلنحاربها جميعًا، كلٌّ لغرضه.

ويصمت الأستاذ قليلاً ثم يقول: إن الشباب حين ينشأ في جو مريح اقتصاديًا واجتماعيًا، فإن الحياة بالنسبة له تصبح غالية ويصبح حريصًا عليها، ويفكر كيف يسعد نفسه والآخرين، لكنه حين يوضع في جو قاسٍ طاغٍ، فإنه إن لم يلجأ للإرهاب الديني، فهو يلجأ إلى الجريمة من أجل السرقة أو القتل. والكثير من الجرائم التي نسمع عنها اليوم لم تكن موجودة في مجتمعنا من قبل، حين كانت الحياة أقل قسوة، لقد أتت بها البطالة والفقير. ونتيجة لذلك نقول إن الإرهاب سيختفي جزء كبير منه بالعمل على رفع مستوى المعيشة، وإذا كان البعض يقول إنه ليست هناك علاقة بين الاثنين، فإنني لن أجادل في ذلك، وسأكتفي بالقول: دعونا نتصدى معًا للمشكلة الاقتصادية الاجتماعية، فلا أظن أن هناك خلأً على ذلك.

هل ترى أن هناك بين مسببات الإرهاب جانبًا سياسيًا أيضًا؟

بالطبع، فنحن إزاء جماعة تقول إن الإسلام دين ودنيا، وأنتم مسلمون، ويجب أن نحكم بالشريعة، ولنا سياسة. بدلاً من أن يقال لهم اعملوا في نطاق الشرعية فكونوا جمعية أو حزبًا وادعوا إلى آرائكم، وسندخل معكم في نقاش على ضوء حقائق العصر الذي نعيش فيه، أي بدلاً من أن نمنحهم حقوقهم السياسية، فإننا نقول لهم: لا حقوق لكم.

ألا ترى يا أستاذ نجيب أن على هذه الجماعة أن تقبل أولاً قواعد اللعبة قبل أن تُدعى للمشاركة فيها؟

يجب أن نبدأ أولاً بأن نعطيهم حق التكوين، ثم يأتي الحوار بعد ذلك والتفاعل مع المجتمع، وهما كفيلا بإقناعهم بقبول مؤسسات الدول العصرية، لأنهم سيضطرون إلى التعامل معها بدلاً من أن كانوا يكفرونها، وبقبول التعددية السياسية، لأنهم سيكونون أحد أطرافها، بدلاً من أن كانوا يقاطعونها.

ثم يُنهى الأستاذ حديثه قائلاً: إن الدين ديننا جميعًا، وأنا مطمئن على أنه دين سلام وتسامح وعلم وتقدم، وليس هناك مجال للخوف من الدين.

ثم طوى معي الأستاذ صفحة الدين والإرهاب ليفتح صفحة جديدة في حوارنا.

استأذنت الأستاذ نجيب محفوظ في أن أجعل موضوع حوارنا اليوم هو السياسة في أدبه قائلاً: أنت من أوائل من أدخلوا السياسة بشكل واضح في الرواية، فهي قد تكون في الصدارة في إحدى الروايات، أو في الخلفية في رواية أخرى، لكنها دائماً هناك.

فقال الأستاذ: أعتقد أن الكاتب، خاصة الروائي أو المسرحي، يحوم دائماً حول الموضوعات التي لها أثر في نفسه، والتي لها انعكاسات على حياته، والتي يهتم بها. فإذا أردت أن تعرف اهتمامات أي كاتب، فاقراً مؤلفاته، فستعرف بماذا يهتم في هذه الدنيا. وأحد الأبعاد التي أهتم بها هو السياسة، فهي تظهر في الموضوعات وفي الشخصيات التي تقوم عليها رواياتي، هي واهتمامات أخرى بالطبع، مثل الدين على سبيل المثال والحياة الشعبية، وربما روح الفكاهة أيضاً. وسبب اهتمامي بالسياسة يرجع إلى أن جيلي كله إذا أردت أن تصفه، فقل إنه جيل سياسي، لأننا تفتّح وعينا في سنوات حياتنا الأولى على الثورة الشعبية المصرية.

ثم يسرح الأستاذ بعيداً بمخيلته، ليقول: لقد شاهدت الثورة بعيني، من شبكي ببيت القاضي، وأنا طفل في السابعة أو الثامنة من عمري؛ شاهدتها وهي تدور في الشوارع وأعلامها مرفوعة، شاهدتها وهي تصارع الإنجليز، وسمعت في هذه السن دوي الرصاص، ورأيت قوات الخيالة الإنجليزية وهي تقتل وتقتل. ولم أكن في تلك السن أعرف أنني محتل، ولا أعرف الفرق بين أن يكون الإنسان محتلاً أو مستقلاً، لأن سن السابعة في ذلك الوقت ليست كالسابعة الآن، حيث الإذاعة والتلفزيون والخبرات المكتسبة. لكنني في ذلك الوقت بدأت أسأل، وبدأت أعرف ما معنى كلمة إنجليزي أو كلمة وطني. بدأت أعرف ماذا يعني سعد زغلول، وماذا يعني النفي، وقد تتبععت هذه الأشياء، وبدأت أقرأ الجرائد، ولا أذكر أنه مر عليّ يوم واحد دون متابعة للسياسة.

لكنك مع ذلك لم تعمل أبداً بالسياسة، ولم تنضم إلى أي تنظيم سياسي!

لا، أنا مواطن منتم، اهتمامه بالسياسة من الدرجة الأولى، وهذا يكون في بعض الأحيان أكثر إخلاصاً، لأن من يمتهن السياسة يضحى أكثر، وهو لذلك ينتظر ثمرات أكثر، أما نحن فلوجه الله، نحب الله، ونكره الله. وإن كان ذلك في بعض الأحيان لا يعطينا من دفع ثمن حبنا ذلك، وكأننا من رجال السياسة.

قلت للأستاذ نجيب محفوظ: لقد كانت دراستك في الفلسفة، وجاءت رواياتك بها الكثير من الأصدقاء الفلسفية، ويقال إن لكل كاتب فلسفة، فما رأيك في علاقة الأدب بالفلسفة؟
إن الأدب يقوم على رؤية الأديب للحياة، والفلسفة تُثري هذه الرؤية وتمنحها عمقًا، ذلك إذا استطاع الأديب أن يستفيد منها. فالفلسفة هي التي تُعطي المعنى للعمل الأدبي، لأنها تصقل رؤية الأديب إلى الحياة.

هل يعني هذا أن الأديب يجب أن تكون له فلسفة متكاملة؟

ليس هناك في الأدب شيء اسمه يجب، فالعمل الأدبي يتخذ شكله من طبيعة موضوعه، ومن أسلوب كاتبه. وما دام الأديب قدم عملاً جميلاً وجيداً فلا نستطيع أن نصادره بحجة أنه يفتقر إلى البعد الفلسفي أو غيره.

إلى أي مدى أثرت الفلسفة في أعمالك؟

لا شك أنه كان لها تأثير كبير، فقد درست الفلسفة وعشقتها، إلى درجة أنني في بداية حياتي كنت حائرًا ما بين اتخاذها مجالاً لعملي أو الاتجاه إلى الأدب، وقد ظل اهتمامي بالفلسفة قائمًا حتى بعد أن اخترت الأدب.

في رأيك، ما أكثر رواياتك تأثرًا بالفلسفة؟

أتصور مثلاً أن «الطريق» و«ثرثرة فوق النيل» و«ملحمة الحرافيش» و«ليالي ألف ليلة» من أكثر الروايات التي تتضمن بعدًا فلسفيًا واضحًا.

تحدث الأستاذ نجيب محفوظ عن محنة الأدب وأسبابها، فقال: إن التعليم هو المسؤول الأول عن المحنة الحالية للأدب، فالتعليم هو الذي يكون إنسان المستقبل. لكننا نجده يخرج مواطنًا لا يحب القراءة، وإذا أحبها فهو لا يستطيعها، لأنه لم يتعلم التعليم الجيد الذي يؤهله لذلك. فكيف يمكن أن يتعامل مع الشعر مثلًا أو مع الرواية بأشكالها الحديثة!

وكيف بدأ الخطأ في التعليم؟

بدأ حين أدركت الدولة أن التعليم حق من حقوق الشعب، وهذا إدراك سليم. لكن لكي يصبح التعليم بالفعل حقًا من حقوق الشعب يجب أن نوجد أولاً الأدوات اللازمة لنشره بالشكل السليم من أساتذة وفصول تعليم وخلافه، ثم ندعو بعد ذلك أبناء الشعب إلى الالتحاق. لكننا كنا متعجلين، فدعونا إلى التعليم قبل أن تكون لدينا أدواته الصحيحة، وأصبح الفصل في المدرسة تمامًا مثل الأوتوبيس، كل منهما مزدحم بالمتشغلين فيه، وكلهم واقفون، لأنه ليس هناك مكان لكي يجلس أحد.

لكن الأدب في الخارج أيضًا في محنة، رغم ارتفاع مستوى التعليم!

فيقول الأستاذ: هذا صحيح، لكن الأزمة عندنا أكثر حدة؛ ذلك أنه لو كان لدينا تعليم جيد، لكان الأدب قد تأثر بقدوم التلفزيون مثلًا بشكل أقل، فكان التلفزيون قد أخذ جزءًا من زبائن الأدب، كما حدث في الخارج. لكن الذي حدث عندنا هو أن المنافس الذي هو التلفزيون، أخذ الكل لأنه وجد أن الجمهور الموجود لا يصلح إلا له وحده.

ثم يضيف: لذلك فإن الأدباء المصريين الآن في أزمة حقيقية، لأن المتلقي نادرًا ما يستطيع أن يفهمهم. ومن هنا تدهور الأدب، فهناك كتب كثيرة تروج في الوقت الحالي، لكن الأدب الراقى من الشعر والنثر قليل، بعد أن حلت محله أشياء أخف من الكتاب ومن المسرحية الجادة، كالمسلسل التلفزيوني مثلًا، الذي هو أقرب إلى مزاج لا يجيد القراءة الجادة ولا صبر له عليها.

وأسأل الأستاذ: إذا كان سبب أزمة الأدب هو التعليم، فهل الاهتمام بالتعليم يمكن أن يعيد الأدب إلى سابق منزلته؟

فيقول بلا تردد: نعم، فأداة التذوق الأدبي، بل أداة التلقي الأدبي أصلًا هي التعليم الراقى، والاهتمام باللغة. وذلك قد يعيد إلى الأدب منزلته، فيجد قراءه ويجد كُتَّابه، حتى في ظل وجود منافس آخر وخطير في الميدان هو التلفزيون. ولا مانع في ذلك، ومرحبًا بالتنافس، ولكن شريطة أن يكون تنافسًا على المستوى الرفيع، وليس تنافسًا في الإسفاف والهبوط.

وأسأل الأستاذ نجيب محفوظ عن زعماء مصر الذين رحلوا، فاكتملت دورتهم، وصار تاريخهم قابلاً للتقييم، وأبدأ بسعد زغول.

فتلمع عيناه وتعلو نبرة صوته: سعد زغول هو بطل جيل بأكمله، من عرف السياسة في جيلنا كان مدخله إليها سعد زغول، مدخله إلى الوطنية كان سعد زغول، مدخله إلى تاريخ مصر كان سعد زغول.

هل قابلته؟

لم أره قط، كانت هناك فرصة وحيدة لرؤيته، لكنها لم تتحقق، فحين اختلف مع الملك وقامت المظاهرات أمام سراي عابدين تهتف: «سعد أو الثورة»! كان سعد سيجيء لمقابلة الملك، فقلت لنفسى: اليوم سأراه! لكن ما إن وصل إلى ساحة عابدين حتى أحاطت به الآلاف من كل اتجاه، حتى إن سيارته تحولت إلى كتلة بشرية تتقدم بصعوبة في اتجاه القصر. حاولت جاهداً أن أجيء يميناً أو يساراً، علني المحه، لكنني لم أستطع حتى أن أرى سيارته.

وتدمع عينا الأستاذ نجيب محفوظ وتحتبس الكلمات في الحلق، فيحل الصمت لحظات متصلة، لا أستطيع خلالها مواصلة الحوار، احتراماً للحظة وتقديراً لمشاعر الرجل التي فاضت أمامي في تلقائية نبيلة، فأجرع السؤال بداخلي فلا يطل برأسه إلا بعد أن يستعيد الأستاذ هدوءه: علام حزنك يا أستاذ نجيب؟

ليس حزناً، الحزن قد فات وقته وانقضى، إنه شريط الذكريات التي أحيها حوارك اللعين! ثم يضيف: لقد كان سعد زغول هو المدرسة التي تخرّجنا فيها جميعاً، المدرسة التي تعلمنا فيها كيف نحب مصر من يوم أن وُجدت، أن نحبها بقدر عمرها.

ويصمت الأستاذ من جديد، ولا أَرْضَى عن نفسي وأنا أقطع الصمت بسرعة كي أوصل الحوار: وماذا عما يقال عن أن سعد بعد توليه الوزارة تراجع قليلاً عن مواقفه السابقة، وصار يتعاون مع الإنجليز؟

فيقول محفوظ في هدوء، لكن بإصرار والدمع ما زال في عينيه: لم يتراجع أبداً، والوزارة التي تولّاها فعلت ما لم تفعله قبلها وزارات مصر مجتمعة من حيث الإصلاح والمواقف الوطنية. أما عن علاقته بالإنجليز، فبعد مقتل السردار فإن الإنجليز استخدموا القوة وطرّدونا من السودان، فماذا كان باستطاعة سعد زغول أن يفعل؟ وحين وجه إليه أعضاء الحزب الوطني المعارض مثل هذه الانتقادات قال لهم: أعطوني «تجريدة» وأنا أورد على الإنجليز.

وتتوالى الذكريات، فيقول الأستاذ: وحين ذهب للنبي يعطي لسعد إنذاره الشهير، دخل عليه مجلس الوزراء بالجيش والخيالة، ودون سلام أخرج إنذاره وقرأه، فقال له سعد بابتسامة: لم أكن أعلم أنكم

أعلنتم الحرب!
كم حزنت على وفاته؟
حزنت حزناً لم أحزنه على أحد، ربما كان أكبر حزن في حياتي!
وأستودع الأستاذ قبل أن يودع الدمع عينيه.

ويمتد الحوار مع الأستاذ نجيب محفوظ حول الزعماء المصريين، فأسأله عن مصطفى كامل. هذا هو زعيم الوطنية المصرية، هو أول صوت بعد الاحتلال يرتفع لينفخ في نار الوطنية المصرية، هو الذي ربي الجيل الذي حين تطورت الظروف صار جند سعد زغلول، الذين كانوا يهتفون: «نحن جنودك يا سعد»! جميع هؤلاء الطلبة والشباب هم في الحقيقة تربية مصطفى كامل. ومن محمد فريد؟

محمد فريد يقال فيه ما قيل في مصطفى كامل، لكنه يهياً لي أنه لم يكن يتمتع بصمود مصطفى كامل، فحين وجد نفسه مهدداً بالسجن ترك مصر وهرب. وكان ذلك سبباً أساسياً في الضعف الذي لحق بالحزب الوطني، حتى إن أحد رجال الحزب الذي كان يرأسل محمد فريد قال له: لو كنت أعرف أن خروجك سيكون له هذه النتائج على الحزب الوطني، لكنت قد قيدتك بحبل وتركتك تدخل السجن حتى لا يضعف حزب الوطنية المصرية.

ودون أن أسأله، يعود الأستاذ مرة أخرى إلى سيرة زعيم صباه سعد زغلول، فيقول: إن محمد فريد لم يكن يحب سعد زغلول، وكان يقول عنه إنه يتعاون مع الإنجليز. لكن الغريب أنه حين أخذوا يشكون له من ضعف الحزب الوطني وانفضاض الناس عنه، أرسل إليهم رسالة من منفاه الاختياري بفرنسا، يقول لهم فيها: خذوا لرئاسة الحزب سعد زغلول، فأنا رغم اعتراضى على الكثير من تصرفاته، فإنني لا أشك في وطنيته ولا في نزاهته. هكذا شهد خصم سعد زغلول، ولقد قرأت ذلك إما في مذكرات محمد فريد، وإما في تاريخ الراجعي. لا أذكر.

وقبل أن أطرح سؤالاً جديداً، يواصل الأستاذ في إصرار: سعد زغلول لم يكن زعيم مصادفة، لقد كان وكيل الجمعية التشريعية. أي أنه كان زعيم الشعب المنتخب وقد انتُخب في دائرتين، وكان أول من وضع تقاليد الانتخابات في مصر، فقد كان يخطب في الجماهير معلناً عن برنامجه فيما لو انتخب!

ثم يضيف: كان ذلك في بداية القرن، فقل لي الآن كم مرشحاً يدخل الانتخابات ببرنامج محدد يستفتي عليه الناس، ثم يعمل على تنفيذه بعد انتخابه؟! فلا تصدر عني إجابة على سؤال الأستاذ، ولا أوجه له أسئلة أخرى.

ثم يأتي دور مصطفى النحاس في الحديث عن الزعماء، فيقول الأستاذ نجيب محفوظ: النحاس هو خليفة سعد زغلول، قد لا يتمتع بعبقريّة سعد، لكن أخلاقه وصلابته لم يُعرف لها مثيل. فقد كان يناجز الاستعمار والملك بكل شدة، مدافعًا عن حقوق مصر الداخلية والخارجية، وظل في هذا الجهاد من بعد وفاة سعد زغلول عام ١٩٢٧ وحتى قيام ثورة يوليو عام ١٩٥٢. وكان مثاليًا للنزاهة بين من حكموا مصر، فقد كان الوفد لكي يحافظ على كرامة زعماء الحزب يصرف له مرتبًا من أموال الوفد، مع أنه تولى رئاسة الوزارة عدة مرات، وكم من المناقصات والمزايدات مرت في عهده، دون أن تمتد يده إليها من قريب أو بعيد، وذلك في وقت كانت فيه الوزارة في مصر تمثل سبيلًا للغنى، أما هذا الرجل فكان إما يتكسب من المحاماة وإما يصرفون له مرتبًا، ليتفرغ لزعامه الوفد.

إذن، ما قصة الكتاب الأسود و...؟

فيقاطعني الأستاذ على غير عادته قائلاً: دعني أولاً أكمل لك الكتاب الأبيض.

ثم يسترسل: لقد كان جمال عبد الناصر يصرف له راتبًا شهريًا في أواخر أيامه، حين علم أنه لا يملك ثمن الدواء الذي يتناوله. فكان أحد الضباط يذهب إليه شهريًا ليسلمه مبلغ ٣٠٠ جنيه، وهو مبلغ كان له في ذلك الوقت قيمته التي قد تساوي أكثر من ٣ آلاف جنيه اليوم. أما الكتاب الأسود فإذا أردت أن تعرف قيمته، فابحث عن نسخة قديمة منه واقراها، فستجد فيه مثلًا اتهامًا لحكومة الوفد تحت زعامه النحاس بأنها منحت أحد الموظفين علاوة ٤ جنيهات مرتين في سنة واحدة. لقد كان مكرم عبيد صاحب هذا الكتاب زعيمًا وطنيًا، لكنه كان عصبياً، وقد أثر في نفسه تأثيرًا كبيرًا أن ضعفت في وقت ما صلته بالنحاس. فقد كان يحب دائمًا أن يكون رجل النحاس الأول، ولا يطيق أن يرى أحدًا في هذا المكان، لكن تلك الصلة تدخل فيها نساء ورجال وخلافه، حتى انقطعت، فكان الكتاب الأسود.

وما رأيك في مكرم عبيد كزعيم؟

كان مكرم عبقريًا، وكان وطنيًا. هو من الناس الذين كانت خطبهم غناءً، هو محمد عبد الوهاب الخطابة السياسية، ومصر لم ترَ خطيبًا بعد سعد زغلول مثل مكرم. فقد كانت بلاغته من القرآن الذي كان يحفظه عن ظهر قلب ويدرسه دراسة جيدة، إن مكرم بلا شك من العناوين الثابتة للوحدة الوطنية من الرجال العظام في تاريخ مصر، ذلك هو مكرم عبيد.

ونصل في حوارنا عن زعماء مصر إلى جمال عبد الناصر، فأبادر الأستاذ نجيب محفوظ بالقول: رأيتك يا أستاذ نجيب، وقد تهلل وجهك وأنت بالمستشفى حين حضر لزيارتك الدكتور خالد نجل الزعيم الراحل جمال عبد الناصر، وقد قمت لأول مرة من مرقدك، وأخذت ترحب به قائلاً أهلاً بابن الزعيم، ثم سألت عن المصور، وقلت إن كان من أتى لزيارتي في غرفة الإنعاش كان يحضر معه مصوراً، ألا يوجد مصور الآن ليصورني مع ابن الزعيم؟

فبيّتسم الأستاذ وهو يقول: جمال عبد الناصر هو زعيم ثورة، وقد أثر في مصر تأثيراً كبيراً. فقد غير تركيبها الطبقي، أي أنه رفع الشعب عدة درجات، وحطم الإقطاع دون سفك دماء، وعمل إصلاحات لمصر لم تعرفها من قبل، ولم يكن به عيب إلا انزلاقه أو انزلاق الدكتاتورية إليه، واللعب الشيطاني الذي لعبته المخابرات في وقته، لكنه زعيم من أجل وأعظم زعماء مصر. كم مرة قابلته؟

قابلته عدة مرات في مناسبات عامة، ومرة واحدة في مناسبة خاصة. أما المناسبات العامة، فكانت في عيد العلم مثلاً حين قلدني وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى، وكان هذا هو أول وسام في حياتي. وفي عهده أيضاً حصلت على جائزة الدولة التقديرية، وفي عهده توليت كل منصب كبير توليته في حياتي. وأما المناسبة الخاصة فكانت عند افتتاح المبنى الجديد لـ«الأهرام» عام ١٩٦٨ وقد كنت جالساً مع د. حسين فوزي وصلاح جاهين وصلاح طاهر، حين دخل علينا به الأستاذ هيكل، وأتذكر أنه قال لصلاح جاهين: أكل لحمة الراس تخنك كثيراً، ثم لاطفني قائلاً: لماذا لم نقرأ لك قصصاً بـ«الأهرام» منذ عدة أسابيع؟ وقد كنا يوم الخميس، فقال له الأستاذ هيكل: بالمصادفة فإن له قصة غدًا في عدد الجمعة، وهي من النوعية التي «تودي في داهية». فقال له عبد الناصر على الفور: «توديك أنت».

وينطلق الأستاذ يضحك من القلب، ثم يعود إلى هدوئه، ليقول: إن جمال عبد الناصر بالنسبة إلى جيلكم هو ما كان سعد زغلول بالنسبة إلى جيلنا، رمز للوطنية وبطل لجيل بأكمله.

وأسأل الأستاذ نجيب محفوظ عن أنور السادات، فيقول: أنور السادات هذا تضعه في قائمة السياسيين الكبار على مستوى العالم، ورغم أن له شخصية الزعيم وقوته، فإنه في الأساس سياسي والمعارك التي كسبها، كسبها بالسياسة، بما في ذلك الحرب التي كسبها أيضاً بالسياسة، ولقد غير السادات صورتنا في العالم. والحقيقة أن الأثر الأليم الذي تركته حرب يونيو ٦٧ في نفوس جيلكم وجيلنا، والهزيمة النفسية التي ملأت العرب، لم يخلصنا منها إلا أنور السادات.

ألم يكن له كسائر الزعماء نقاط ضعف؟

بل كانت له أخطاء جسيمة، ربما تفوقت في رأي البعض على أخطاء من سبقوه. لكن من حق أنور السادات علينا أن ننسى كل سيئة وكل خطأ وكل مصيبة في عهده من أجل انتصار أكتوبر، والقرار الذي اتخذته فيها، فرفع مصر والأمة العربية كلها، ثم السلام الذي أوصلنا إليه بعد ذلك.

ويستطرد الأستاذ: إن المرة الوحيدة التي مُنعت فيها من الكتابة كانت في عهد أنور السادات، وذلك في بداية عام ١٩٧٣، حين وقعنا على بيان ضد حالة اللا سلم واللا حرب، كان قد كتبه توفيق الحكيم، وكنت أنت أحد الموقعين معنا. ولقد مُنعت جميع أعماله من الإذاعة والتلفزيون أنا وتوفيق الحكيم، ولم يعد مسموحاً بأن يُذكر اسم أيّ منا، رغم أن اسمينا لم يظهر في قائمة الممنوعين من الكتابة، والذين نُقلوا إلى هيئة الاستعلامات. لكن عذر السادات في ذلك أنه كان يُعد لحرب أكتوبر العظيمة، ولم يكن يريد خلخلة في الجبهة الداخلية، ولم نكن نعلم ذلك.

رغم حديثك الحماسي عن انتصار أكتوبر، فلا أجد أنه قد ألهمك شيئاً!

بل ألهمني، ولكن بالطريقة الأدبية، فقد تأثرت بالحرب نفسياً، ولذلك ما استلهمته منها هو روحها، وليس تفاصيل معاركها، وروح أكتوبر هي أعظم ما فيها. لقد ظهرت تلك الروح بشكل واضح في «الحرافيش» التي أعتبرها ثمرة من ثمرات ٦ أكتوبر، فليس لي أدب قبلها بهذا التفاؤل، وبهذه البطولة، وبهذه المهمة. إنها ملحمة حقيقية.

وأقول للأستاذ نجيب محفوظ: الآن وقد أصبح حادث الاعتداء الآثم وراء ظهرنا، هل لي أن أسألك عن الأثر الذي تركه هذا الحادث في نفسك؟

فيقول الأستاذ بعد لحظة تفكير: لا، ليس بعد. إن كل إنسان هو بلا شك نتاج لما يتعرض له من تجارب، لكن أعتقد أن التأثير العميق لتجربة أكتوبر الماضي لن يتضح إلا فيما بعد، لأنه منذ تعرضت لهذا الحادث قبل خمسة أشهر، وأنا إقامتي محدودة أولاً بالمستشفى، ثم الآن بالمنزل، حيث ما زلت خاضعاً للعلاج الطبيعي بزراعي اليمنى. لذلك فإن الأثر الذي يمكن أن يتركه الحادث في الأعماق - أيًا كان وصفه - لم يحن وقته بعد فيما يخيل لي.

ثم يقول: السبب الثاني هو أن الحادث كأنه حدث لغيري، أي إنني لم أكن من شواهد، لو كنت رأيت الشاب الذي اعتدى عليّ أو كنت متذكراً كيف مددت له يدي بالسلام، كما قيل لي لكان للواقعة الآن أثر ما في نفسي. لكني لا أتذكر إلا أنني بعد أن جلست في السيارة واستدرت للتحديث إلى زميلي شعرت بهذا الوحش الذي انقض عليّ، ولا أتذكر شيئاً بعد ذلك، وكأني كنت في غيبوبة تامة لا أدري ما حدث.

فأقول: ربما أن الإنسان في تلك الظروف يتصرف بالغريزة، أو بشكل لا إرادي، فلا يعود يتذكر بعد ذلك حقيقة ما حدث؟

فيجيب الأستاذ وقد اعتلت وجهه ابتسامة هادئة: أو أنه من نعم الله علينا أننا لا نتذكر تفاصيل مثل هذه المواقف، وإلا لما استطعنا مواصلة الحياة إذا لم تفارق تلك التفاصيل مخيلتنا. حين تقول إن الأثر العميق لم يظهر بعد، فهل تقصد الأثر الذي يعبر عن نفسه في رؤيتك للحياة، وينعكس على كتاباتك؟

بل على حياتي أيضاً، فقد عرفت الآثار المادية للواقعة الماثلة أمامي، سواء في العناية التي لاقيتها بالمستشفى أو في اهتمام الناس بي الذين أحاطوني بعطف شديد سيظل يمثل ديداً لن أستطيع أن أوفيه، فالذين حزنوا للحادث كثيرون، ولم أكن أتصور أنني أملك كل هذا العطف. سبب سؤالي لك أنني لم ألحظ أي تغيير قد طرأ على شخصية الأستاذ نجيب محفوظ الذي أعرفه، فأنت كما أنت: نفس الإنسان المحب ذي الوجه البشوش والابتسامة العريضة الصادقة! فيجيب عليّ الأستاذ بكلمة واحدة: ربما!

امتدت حوارات الأستاذ إلى معاهدة الحد من انتشار الأسلحة النووية التي ينعقد مؤتمرها الآن في نيويورك، فقال: من ناحية المبدأ، ومن ناحية المنطق، فإن ما تطالب به مصر من ضرورة انضمام إسرائيل إلى المعاهدة لا يستطيع أحد أن يناقشه. فالاتجاه العالمي منذ سنوات طويلة هو إلى محو السلاح النووي، ومن يطالب بتحويل الشرق الأوسط إلى منطقة خالية من أسلحة الدمار الشامل لا يمكن أن يُقال إنه مشاغب.

ثم يضيف: لكن المسألة ليست مسألة مبدأ فقط، ولا هي مسألة منطق فقط، إنها مسألة قدرة سياسية أيضًا. فقبل الإقدام على أي موقف، علينا أن ندرس قدرتنا السياسية، هل سنتمكن من تحقيق ما نطالب به؟ لأنه إذا اضطررنا إلى التراجع فإن في ذلك ضررًا لا مبرر له. وللأسف فإن موعد تجديد الاتفاقية جاء في وقت تزيد فيه حدة التوتر داخل إسرائيل والأراضي الفلسطينية، وتتعرض فيه عملية التطبيع مع المتفقين في مصر التي وصل عمر السلام بينها وبين إسرائيل إلى أكثر من ١٥ عامًا، وقد جعل ذلك إسرائيل أكثر تعنتًا في موقفها من عدم الانضمام إلى الاتفاقية والاحتفاظ بأسلحتها النووية. ذلك أن السلام الشامل في الشرق الأوسط ما زال بعيدًا.

أليس في استمرار الوضع الحالي قدر من الإجحاف بالعرب الذين قبلوا نزع سلاحهم النووي، بينما تتزايد الترسانة الإسرائيلية كل يوم؟

الوضع القائم الآن في المنطقة سيئ سيئ سيئ، ولا يجوز أن نُسلم به دون قيد أو شرط، لأن التسليم به هو تسليم بأن نكون تحت سيطرة إسرائيل. وما نسعى إليه هو أن نتعامل معها معاملة الجار للجار والند للند، لكن هل هي مسألة إسرائيل أم هي مسألة السلاح النووي؟ إذا كانت هي مسألة إسرائيل، إذن فهي خناقة محلية، أما إذا كانت مسألة السلاح النووي، فإن علينا أن نطالب بقية دول العالم بما نطالب به إسرائيل. فالهند وباكستان وإيران يجب أن ينزعوا سلاحهم النووي أيضًا، لأنه يكفي أن يملك القنبلة النووية طرف واحد في العالم حتى يُهدد العالم كله، ولا يتحتم أن يكون هذا الطرف جازًا لنا؛ بل على العكس فإن التهديد القادم من بعيد هو أكثر خطورة، لأن الجار لا يستطيع أن يقذفني بالقنبلة النووية دون أن يتعرض هو أيضًا لأخطارها.

في إطار الحديث عن العيد الخمسين لإنشاء جامعة الدول العربية تطرق الحوار مع الأستاذ نجيب محفوظ إلى القومية العربية والوحدة العربية التي كانت في الماضي أساسًا لقيام الجامعة. هل ما زالت القومية العربية موجودة؟ وهل ما زال حلم الوحدة ممكنًا؟

هناك من الأمم من جمعتهم رابطة لغة، وهذا ليس بالشيء الهين، وجمعهم تاريخ مشترك وتقارب جغرافي. تجد هذه الأمم أن بإمكانها أن تعمل وحدة فيما بينها، أو فلنقل تعاونًا اقتصاديًا ينفعها ويرتقي بها. فهناك بين دول هذه الأمة من ناسها قليلون ومالها كثير، وأخرى مالها قليل وناسها كثيرون، وهذا إنما يدفع إلى التنسيق والتعاون من أجل التكامل فيما بينها، بدلًا من اللجوء إلى الغير. أليس هذا أساسًا متينًا للوحدة في عالم يرمي ويتجه اليوم نحو التكتل؟ إن القومية العربية من هذه الناحية لا يمكن أن تزول، يمكن أن تضعف في بعض الأوقات، ويمكن أن نتناساها، أو أن نحول بعض الظروف دون تحقيقها في أوقات أخرى، لكنها تظل حقيقة قائمة لا يمكن إنكارها. لكن تعبير القومية العربية يكاد يكون قد اختفى تمامًا من قاموس السياسة العربية الحالية، بل إن مجرد ذكره أصبح يثير حساسية البعض!

إذا كان تعبير القومية العربية يثير بعض المخاوف، فلنتجه إلى معطيات العصر الذي نعيشه، ولننظر إلى ما يحدث في أوروبا مثلًا: إن أماننا الآن ما يُسمى بالوحدة الأوروبية. ما هذه الوحدة التي بدأت بتعبير «European community» التي لم نعرف كيف نترجمها الترجمة الصحيحة، فسميناها السوق الأوروبية المشتركة، ولم تكن السوق إلا أحد مظاهرها. لقد انتهت الآن إلى الوحدة الأوروبية الصريحة «European union»، فلماذا نخاف نحن من كلمة الوحدة أو القومية؟ إن القومية قد تغير معناها في العصر الحديث، فتحوّلت من النزعة الرومانسية التي سادت في القرن التاسع عشر إلى المصالح الاقتصادية التي تحكم عصرنا الحالي، ونحن لدينا الأساس القومي والأساس الاقتصادي.

ثم ينهي الأستاذ حديثه قائلًا: إن أحد أهم أدوار الجامعة العربية في المرحلة القادمة هو إعطاء هذه الفكرة مضمونها الحديث الذي يتفق مع حقائق العصر، لأن القومية ما زالت تصرخ وتنادي علينا قائلة: هأنذا، إن إنقاذكم بيدي.

يتطرق الحوار مع الأستاذ إلى الحديث عن أم كلثوم، فأسأله عن أحب أغانيها إلى قلبه. فيقول: الحقيقة إنه ليس هناك ما لا أحب من أغاني أم كلثوم. أنا أفضل قصائدها الطويلة، وما لحنه لها عبد الوهاب ورياض السنباطي، لكني لا أعرف أغنية شددت بها أم كلثوم ولم تعجبني. ثم يقول: وهواك عندي كالغناء، لأنه حسن لديّ، ثقيله وخفيفه.

ويعود الأستاذ نجيب محفوظ بالذاكرة إلى الوراء، فيقول: كنت في الماضي حين أصحو من نومي بعد الظهر أستمع إلى إحدى أغنيات أم كلثوم، وأنا أتمشى في صالة البيت، ثم أجلس بعد ذلك بغرفة المكتب لأكتب. لكن ذلك كله تغير الآن، ولم تعد الحال كالحال، فمنذ اشتد ضعف سمعي وبصري قبل حوالي خمسة أعوام، لم يعد باستطاعتي أن أسمع الموسيقى، وأصبح ما يصل منها إلى سمعي يبدو كالضوضاء، لا أتبين فيه اللحن. والغريب الذي يحيرني هو أن هناك ثلاثة أو أربعة ألحان فقط للشيخ سيد درويش هي التي أستطيع أن أسمعها بوضوح، منها مثلاً «سالمة يا سلامة» و«شد الحزام». لكن حتى أغاني سيد درويش الطويلة لا أستطيع أن أسمعها، وكثيراً ما سألت الأطباء في ذلك، فكانوا يتعجبون أنني أسمع تلك الألحان أصلاً، لأن المفروض أن الشعيرات التي تسمع الموسيقى قد ضمرت في أذني.

ثم يتنهد الأستاذ قائلاً: لقد قلبت عليّ المواجه، إنني أقول لك أسفاً إنني في بعض الأحيان أسمع شيئاً أقرب إلى «التنعير» فأقول لمن حولي: ما هذا؟ فيقولون إنها أغنية كذا أو كذا لأم كلثوم، وعندئذ أكاد أبكي من الألم.

يقال إنك كتبت لها خطاباً ظلت تحتفظ به ٢٥ عامًا، ماذا كان في هذا الخطاب؟ كان ذلك منذ زمن بعيد في بداية أيام الإذاعة، وكانت أم كلثوم تغني كثيراً في الحفلات العامة، فاقترحت عليها أن تغني مرة واحدة في الشهر، ولم تكن هي تعرفني، لكني كتبت لها كأحد المعجبين، وقد وجدت أنها أخذت باقتراحي بعد ذلك. كم مرة قابلت أم كلثوم؟

فيقول على الفور: مرة واحدة فقط، كان ذلك عام ١٩٦١، وكان الأستاذ محمد حسنين هيكل أطال الله عمره قد قرر الاحتفال بعيد ميلادي الخمسين، فاتصل بأم كلثوم يسألها إن كانت تود المشاركة مع «الأهرام» في الاحتفال، فرحبت بذلك. وكنت سعيداً جداً بوجودها، فلم أكن أعرف أنها تعرفني أصلاً، فما بالك بحضورها حفل عيد ميلادي، لقد كانت تلك هي المرة الوحيدة التي وضعت يدي في يدها.

شهر ديسمبر هو شهر تسليم جائزة نوبل التي أكدت عالمية أدب نجيب محفوظ. لذلك سألته: ما مفهومك للعالمية في الأدب؟

العالمية في اعتقادي لها مفهومان، أحدهما أساسه التقدير الكمي، والثاني التقدير الكيفي. والكم يعني أن العمل يُقبل في أي مكان يُطرح فيه بصرف النظر عن قيمته الأدبية، وأوضح مثال على ذلك هو القصص البوليسية. فكاتبة مثل أجاتا كريستي قد وُزعت كتبها وبيعت في جميع أنحاء العالم أكثر بكثير من كتب جميع الكتاب الكبار مجتمعين، وهي لذلك كاتبة عالمية لا يمكن أن ننكر ذلك. فمثل هذا الأدب يُسمى عالمياً، لأنه يُقرأ في أي مكان في العالم، ويستمتع به القراء بصرف النظر عن قيمته الأدبية. وإذا كانت العالمية في المفهوم الأول صفة مكانية، فإن العالمية في المفهوم الثاني تختص بالقيمة، وتلك صفة تُطلق على الأدب الذي إذا تُرجم إلى أي لغة من لغات العالم، وإذا عُرض على أي مجموعة من المثقفين والنقاد في أي بلد من البلاد، فإنهم يجدون فيه شيئاً يستحق التقدير الأدبي. والانتشار في هذه الحالة ليس هو المعيار، بل قد لا يكون هذا الأدب منتشرًا، وقد لا يكون معروفًا خارج بلاده، لأنه لسبب أو لآخر لم يُترجم. لكن هذا لا يمنع أنه قد يكون أدبًا عالمياً بالفعل، لأنه يحمل كل صفات الأدب العالمي في جودته ورُقيته، وهذا النوع من الأدب غالبًا لا يطبع إلا بالآلاف، أما الأول فهو بالملايين. فإذا كانت أجاتا كريستي قد أمتعت الملايين من القراء في مختلف أنحاء العالم، فإن كاتبًا مثل الألماني الكبير توماس مان له تقدير آخر، رغم أن البعض من قراء قصص أجاتا كريستي البوليسية قد لا يعرفونه، لكن يظل كل من توماس مان وأجاتا كريستي عالمياً، أحدهما بالانتشار، والثاني بالقيمة.

وسألت الأستاذ نجيب محفوظ هل هناك مواصفات معينة تجعل الأديب عالمياً، سواء من ناحية قيمته الأدبية أو من ناحية انتشاره؟

فيما يتعلق بالعالمية بمعنى الانتشار خارج الحدود، فإن أسبابها هي التفوق في التشويق والإمتاع، وأبلغ مثل لها هو القصة البوليسية، فهي تقوم على الإثارة ودقة الحبكة والجاذبية. أما العالمية من حيث القيمة الأدبية، فليس لها صفة غير الصفات التي نلتمسها في الأدب الجيد مثل شمول فكرته وعمقه وأسلوبه وفلسفته والرؤية التي ينطوي عليها. وتلك الأشياء لا تأتي إلا بالاستعداد والموهبة، ومن يمتلكها هو أديب عالمي، سواء حصل على نوبل أو لم يحصل عليها. فجائزة نوبل ما هي إلا علامة تعرض، قد يحصل عليها الأديب أو لا يحصل، ثم إنها لا تُمنح إلا لأديب واحد كل سنة. والحقيقة أن العالم بالتأكيد يزخر بأكثر من أديب عالمي واحد، كما أنها لم تُمنح طوال تاريخها إلا لحوالي ٩٠ كاتباً، فهل هؤلاء هم كل الكتاب العالميين في القرن العشرين؟

ثم يضيف الأستاذ: إنني أعتبر كل كاتب فيه صفات الجودة الأدبية كاتباً عالمياً، حتى لو لم يكن معروفاً خارج وطنه، فالعالمية هي صفة الجودة الأدبية، وهي ليست صفة تُكتسب بالجوائز. فهناك من الأدباء في الدول المتقدمة ذات السلطة الثقافية من قد تُترجم أعمالهم إلى عشرين لغة، دون أن يحصل أحد منهم على أي جوائز، وحين يحصل عليها غيرهم، فإن مكانتهم لا تهتز على الإطلاق. وما رأيك في المحلية؟ هل هي نقيض للعالمية؟ أي هل الكاتب الذي يتخذ أحداثه من الواقع المحلي يستحيل وصوله إلى العالمية؟

إن صفة العالمية هي - كما قلت - الجودة، ولا شيء غير ذلك، أما المحلية فإن الأدب غالباً ما يكون محلياً، لأن الكاتب لا يكتب إلا عن الواقع الذي يعيشه. فكاتب مثل دستوفسكي العظيم هو كاتب محلي، يأخذ القارئ معه إلى شوارع وأحياء موسكو القديمة بأشخاصها ومشاكلها، لكن أحداً لا يستطيع أن ينكر عليه صفة العالمية. لأن العالمية تأتي من صفات العمل الأدبي نفسه، وليس من المكان الذي تجري فيه أحداثه، إن العالمية هي صفة فنية في الأساس، وليست صفة جغرافية.

حدثني الأستاذ نجيب محفوظ عن تخليد العظماء، فقال: إننا مقصرون في ذلك، لأن التخليد الحقيقي لكبار مفكرينا وكتابنا هو أن تظل أعمالهم موجودة ومتداولة بيننا. فلا تكاد أي مكتبة أدبية في بريطانيا مثلاً تخلو من الأعمال الكاملة لشكسبير، وكذلك جوته في ألمانيا أو راسين في فرنسا. لكنك قد تبحث عندنا عن ديوان شوقي أو عن عمل ما للعقاد فلا تجده، أما الأعمال الكاملة، فأصبحت تُطبع للشباب الذين ما زالوا يكتبون، ولم تكتمل أعمالهم بعد. والمسألة في رأيي ليست وفاءً لهؤلاء العظماء الذين أصبحوا الآن بين يدي الرحمن وليسوا بحاجة إلينا، فإننا نحن الذين نحتاج إلى تراثهم العظيم. وينطبق هذا على جميع الفنون، فأم كلثوم مثلاً ما زال صوتها يصدح في جميع أنحاء العالم العربي، وهي ليست بحاجة إلينا، ولكن أين مشروعها الكبير الذي عاشت سنواتها الأخيرة تحلم بتحقيقه. نحن الذين نحتاج إلى مشروع أم كلثوم للصوتيات، والذي لا أعرف لماذا لم يخرج إلى النور حتى الآن، رغم توافر كل تكاليفه.

ثم يضيف: والتخليد يكون أيضاً بكتابة سير العظماء، فقد عرفت مثلاً علي وحسن إبراهيم، وهما بلا شك من أعظم من عرفتهم مهنة الطب عندنا، وقد كانت حياة كل منهما مثلاً وقدوة، وعلينا أن نبقى على تلك القدوة، بأن نكتب سيرتهما أو أن تصبح حياتهما مادة لأعمال أدبية أو فنية، كما نقرأ كتباً أجنبية أو نشاهد الأفلام عن حيوات العظماء في جميع المجالات. لأن في مجال تربية الأجيال الجديدة لا شيء يؤثر مثل القدوة، فلماذا نترك أصحاب القدوة عندنا يندثرون؟ أذكر أنني أثناء خروجي مرة من لقاء مع الشباب بكازينو قصر النيل، مررنا بتمثال سعد زغول، فسألني أحدهم: تمثال من هذا؟ لقد قرأت في صباي كتباً كثيرة عن مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغول، أين ذهبت تلك الكتب؟

ثم ينهي الأستاذ حديثه قائلاً: إن تخليد العظماء لا يكون فقط بإقامة تمثال لهم أو بإطلاق اسمهم على شارع. فالتمثال سيظل في النهاية تمثالاً والشارع يبقى شارعاً، وقد نقول هذا تمثال أو ميدان لاطوغلي، دون أن نعرف من هو لاطوغلي هذا.

وحدثني الأستاذ عن حرية الصحافة، فقال: إن حرية الصحافة فوق كل الحريات، فالحرية كما نعلم ضرورة إنسانية واجتماعية، لكن صوتها لا يعلو إلا من خلال الصحافة. والحرية قد تمارس همساً أو على انفراد، أو في بعض بيئات المجتمع دون غيرها، لكنها في الصحافة تتحول إلى صوت الشعب الذي يصدح في المجتمع كله. وحرية الصحافة تخدم الشعب والحكومة معاً، فهي تنبه إلى الصواب، مستخدمة حقاً أصيلاً من حقوق الإنسان وحقاً أساسياً من حقوق المجتمع، والحق الأول للصحافة. إن هناك بعض الأشياء قد تعمل بلا حرية، ولو بطريقة عرجاء، إلا الصحافة، فهي إما حرة أو هي ليست صحافة، والصحافة غير الحرة لا تفيد أحدًا، ولا حتى الحكومة، لأن أي خبر يرد بها حتى لو كان يخدم الحكومة لا أستطيع أن أصدق، لأن الجريدة التي نشرته ليست حرة، والصحافة غير الحرة وراءها دائماً إرهاب خفي. أما بالحرية فإن الصحافة تتحول بسحر ساحر من ورقة صفراء تثير الشبهات والشك إلى صوت الشعب، إلى صوت الحق، إلى صوت الغد.

ثم يضيف الأستاذ: وفي قلب الصحافة يكون الصحفي الذي يقوم بدور ومهمة غاية في الخطورة، وعلى الدولة التي تحترم الحرية، والتي تريد بناء الديمقراطية أن تحترم ذلك الصحفي وتصون حقوقه، بل وتوفر له كل الضمانات التي تسهل له مهمته وتحميه من الأذى. وحسب الصحفي مسؤولية الحرية التي يتحملها الآن، تلك المسؤولية تكفيه، ولسنا بحاجة إلى تهديده بأي شيء بعد ذلك، من حبس أو غرامة، أو ما إلى ذلك.

وأقول للأستاذ نجيب: ماذا تقصد بذلك؟

فيقول لي منفعلاً: هل تظن أنك حين تقول لي أنت حر فذلك سهل؟ إنك حين تقول لي أنت لست حرًا فذلك أسهل، لأنني بذلك أكتب لك ما تريده وينتهي الأمر. لكني حين أكون حرًا فمعنى ذلك أن عليّ أن أعمل عقلي وأحكم ضميري وأزن كلامي وأنظر إلى الحاضر والمستقبل، وإلا فلن يقرأني أحد، ولن يصدقني أحد، ولن يحترمني أحد. إن الصحفي يجب أن يكون حرًا، لأنه إن لم يكن حرًا لم يكن صحفيًا بتاتًا، فهو إما حر وصحفي وإما غير حر وغير صحفي.

وأسال الأستاذ نجيب محفوظ إن كان يرى أن هناك تجاوزات تحدث في ممارسة حرية الصحافة، فيقول: بالطبع تحدث تجاوزات، ولقد تتبعت مثلاً هجوماً على أشخاص بلغ حد التجريح، وتلك الحملات غير الموضوعية لا معنى لها ولا فائدة فيها. كذلك هناك في بعض الأحيان أخبار تُنشر قد تقلق المواطن على حال بلده، فيقول: هل وصلت بمصر الحال إلى هذا الحد، أو إلى أين نحن ماضون؟ ثم يتضح بمرور الوقت أن هذا الخبر لا أساس له. ثم يرفع الأستاذ إصبعه في وجهي قائلاً: ولكن ألف تجاوز وتجاوز ولا اعتداء واحداً على حرية الصحافة.

لكن كيف نعالج تلك التجاوزات؟

إن القانون العام يكفي لحماية الأفراد في أعراسهم وسمعتهم. القانون العام الذي يخضع له جميع المواطنين والذي يلزمهم بالأمانة والصدق والإخلاص، ثم إن هناك بالضرورة ميثاق شرف يجب أن نلتزم به أسوة بالمهن الأخرى كالطب والمحاماة مثلاً، فالحرية هي مسؤولية قبل أي شيء آخر. ألم تكن أنت شخصياً في وقت ما ضحية لبعض تلك التجاوزات؟

لقد عانيت تجاوزات أدبية وسياسية في الصحافة. أما الأدبية، فإني أقبلها وأقصى ما أقوله فيها هو أنها نقد لا يخلو من الهوى، لكن إلى جانب ذلك هناك دائماً نقد آخر شريف وموضوعي يرد للإنسان قيمته. وأما في السياسة فقد كانت تلك التجاوزات مؤلمة، فحين أعبّر عن رأي سياسي أتوقع أن يقول لي أحدهم أحسنت، وأن يقول لي عشرة آخرون أسأت، لكن حين أنادي مثلاً بالسلام والتفاوض، فيقال إنني عميل إسرائيلي! فهذا فيه ظلم لا يرضاه أحد ولا حتى من ارتكبه. فلقد كان يجيئني هؤلاء ويقولون لي نحن نعلم أنك لست ما نقوله فيك، لكننا نقول ذلك حتى نردع الآخرين. لماذا لم تلجأ إلى القضاء؟

إن معالجة تلك الأمور لا يكون فقط بالقانون، والإنسان الواثق من نفسه ومن موقفه يعرف أنه لا يصح في النهاية إلا الصحيح. فما قد اتجه العالم العربي كله إلى طريق السلام والمفاوضة، بما في ذلك من اتهموني بالخيانة والعمالة. أليس في ذلك رد اعتبار تاريخي وقومي أقوى من أي حكم قضائي؟

ثم يُنهي الأستاذ حديثه قائلاً: إننا يجب أن يتسع صدرنا للتجاوزات التي تأتي بها الحرية، لأن معالجتها تكون بالرقي العام للمجتمع، وبالتهذيب الذي يأتي من خلال استمرار الممارسة الديمقراطية. إن علينا جميعاً أن نواجه تلك التجاوزات بالترشيد والتقويم، وليس بسن القوانين التي تجور على الحرية، فإن يضار شعب بأكمله بسبب غياب الحرية فهذا مفهوم، لكن أن يضار شخص واحد فقط بسبب الحرية، فهذا يثير الألم في القلوب.

يقول الأستاذ نجيب محفوظ: إن جيلي لم يكن ينظر إلى السودان على أنه بلد آخر، وإنما على أنه مصر الجنوبية ونحن السودان الشمالي. ولا نتصور لأي سبب من الأسباب أنه يمكن الفصل بين الشعبين، حتى إن الزعيم مصطفى النحاس اكتسب منزلة وطنية خاصة، لأنه في إحدى مفاوضاته المهمة مع الإنجليز كان قد وصل إلى اتفاق جيد جدًا بالنسبة لمصر في ذلك الوقت، لكنه وجد أن الإنجليز يريدون أن يكون ذلك على حساب السودان، فرفض النحاس التوقيع على الاتفاق، وقال كلمته الشهيرة: «تقطع يدي ولا أوقع معاهدة الفصل بين مصر والسودان». وهذا الشعور لم يكن خاصًا بالسياسيين وحدهم، وإنما كان في قلوب الشعبين السوداني والمصري، فكان في كل الهتافات وفي الأغاني الوطنية التي تغنت بأن السودان لمصر ومصر للسودان.

ثم يضيف: هل تعلم أن الجيش المصري كان دائمًا يضم السودانيين، فأبي دليل على توحد الدولتين أكثر من ذلك؟ إنني أذكر أنه حين صدرت الأوامر للجيش المصري بإخلاء السودان بعد مقتل السردار، أن أول من عصى الأمر كانت فرقة سودانية من الجيش المصري، رفضت أن يعود الجيش إلى مصر، وقد استشهد قائدها، وكان اسمه على ما أذكر «عبد اللطيف»، وذلك دفاعًا عن وحدة مصر والسودان. كما أن التاريخ السياسي للبلدين يقوم على هذه الوحدة، فمثلما كان الوفد يعتبر ذلك من ركائزه الأساسية، فإن حزب الميرغني في السودان كان يقوم على الفكرة نفسها. وحين نستعرض الأشقاء العرب جميعًا نجد أن أقربهم دخولًا في القلب وبعدها عن الغربية هو السوداني، وذلك لأسباب تاريخية ولصلات الدم التي تجمع بين الكثير من العائلات عبر الحدود. وإذا كانت النظرية القائلة بأن أصل المصريين من الصومال صحيحة، فإن ذلك يعني أن أصولنا جنوبية أيضًا، أضف إلى ذلك نهر النيل الذي شربنا جميعًا منه، والذي كان طريق المواصلات المفتوح دائمًا بين الشمال والجنوب، وهو طريق الحياة وطريق العبادة أيضًا.

ثم ينتقل الأستاذ إلى الحاضر، فيقول: أما حالة التوتر الحالية في العلاقات المصرية - السودانية، فإنني أنظر إليها بألم شديد جدًا، وأرجو أن أغمض عيني وأفتحهما، فلا أجد لها أثرًا في البلدين، لأنها تطور غير أصيل في علاقاتنا التاريخية بالسودان. لكن موجة التطرف تفصل بين فئات البلد الواحد، وتحدث انقساماتها الخطيرة، لكن يطمئنني أن مصر الشقيقة الكبرى بعد لحظات اندفاع قصيرة انزعجت لها أشد انزعاج وظنت أنها ستؤدي إلى عواقب وخيمة، عادت مرة أخرى تتوخى الحكمة التي عهدناها في نظامنا الحالي.

ثم ينهي الأستاذ حديثه قائلاً: إنني أتمنى أن نعبر هذه الأزمة قريبًا، وأقولها لك بشكل قاطع: ليس هناك سبب من الأسباب يبرر الاحتكاك بالسودان، فلا يجوز الخلط بين المتغيرات الطارئة والثوابت التي لا تتغير.

وينتقل الحوار مع الأستاذ إلى مجال الأدب ومدارسه المختلفة، فيتحدث عن مدرسة العبث التي ظهرت في الخمسينيات، ووصلت إلى قممها في الستينيات في الأعمال المسرحية والروائية للكاتب الأيرلندي صمويل بيكيت الحائز على جائزة نوبل، فيقول: عالم ما بعد الحرب العالمية الأخيرة في الغرب خلا من الألوهية والإيمان، لذلك سقط في اللا معنى، فأخذ يبحث عن معنى الحياة، وعن جدواها، وهذا وضع يختلف عما هو موجود عندنا.

لكنك تعرضت يا أستاذ نجيب لهذا العالم العبثي في مسرحياتك الخمس ذات الفصل الواحد، وفي بعض قصصك؟

إن صدمة الهزيمة عام ١٩٦٧ أحدثت عندنا ما يشبه الارتجاج في المخ، حيث فقد العالم من حولنا رصانته ومعناه وأصبحنا في حالة شك وألم. لذلك كان أسلوب العبث واللا معنى هو خير الأساليب الفنية في التعبير عن هذا الوضع. ولكن لأن أساسي الإيمان قوي، فقد استخدمت هذا الأسلوب للتعبير عن الحالة الطارئة التي مررت بها نتيجة الإحساس بالهزيمة. فالمسرحية أو القصة القصيرة ذات الأسلوب العبثي التي كتبتها في تلك المرحلة تجد أن لنهايتها معنى، أي أنها تستخدم أسلوب اللا معنى لتخرج في النهاية إلى المعنى.

أليس الشك والتشكك في جميع الأحوال هو سمة أساسية من سمات الكاتب؟

هناك شك يسعى إلى المعرفة، وشك من أجل الشك، فهناك مدرسة تشك في كل شيء، بما في ذلك الألوهية ذاتها والأخلاقيات. لكن هناك شكاً تبدأ كخطوة أولى إلى المعرفة الحقة، وهو ما فعله «ديكارت» مثلاً، حيث وجد أنه لكي يعرف الوجود ويعرف الخالق لن يبدأ بما قاله الآخرون في هذا المجال، لكن عليه أن يبدأ من الصفر. ومن هذا الشك وصل «ديكارت» في النهاية إلى الإيمان بالله والطبيعة والوجود، إنه إذن شك الباحث وليس شك اليائس.

يقول الأستاذ نجيب محفوظ: إن الترجمة هي عملية غاية في الأهمية بالنسبة للرقى الفكرى لأى أمة، وهى الوسيلة الأولى لمسايرة العصر، وما يجرى فيه من تطورات، ولقد كانت لدينا حركة ترجمة نشيطة فى الستينيات. لست أعرف لماذا وهنت الآن إلى هذا الحد، لقد كنا نترجم أحدث ما تصدره المطابع الفرنسية والإنجليزية، فقرأنا جان بول سارتر فى الوقت الذى كانت تقرأه أوروبا، كما قرأنا ألبير كامى، وقرأنا جميع كتاب مسرح العبث فى الوقت الذى كانت فيه عروضهم تقدم على مسارح باريس، كما قرأنا ت. س. إليوت. وحين بدأ المسرح الجديد فى بريطانيا بمسرحية «انظر وراءك فى غضب» لجون أوزبورن كانت النسخة العربية للمسرحية تباع عندنا على الأرصفة، كذلك قرأنا ألبرتو مورافيا وأرنست همنجواى وبييراندلو وغيرهم.

ثم يقول: أما اليوم فما زلت أجد من يقولون لى: قال سارتر. وكم كنت أود أن أعرف ماذا حدث فى العالم بعد سارتر، فلا يمكن أن يكون الفكر الإنسانى قد توقف عند سارتر وكامى. لكن للأسف إن الجديد لا يُترجم الآن بنفس السرعة التى كان يُترجم بها فى الماضى.

ويضيف: والحقيقة، إن فترة ازدهار الترجمة فى الستينيات لم تأت من فراغ، فلقد نشأنا على حركة ترجمة قوية قبل الثورة، فقرأنا أمهات الكتب العالمية فى ترجمات لأساتذة كبار. فأذكر أننى قرأت شكسبير وجوته وبلزاك، وإن كنت قد وجدت أن أجمل الترجمات فى الشعر خاصة ليست دائماً أضبطها. فقد استهوتنى مثلاً ترجمات الشاعر الكبير خليل مطران لشكسبير، رغم أنه اضطر إلى الكثير من التصرف حتى يضبط ترجمته الشعرية من حيث الوزن والجرس، ومع ذلك فقد نقل إلينا روح الشاعر، وحتى ليخيل إليك أن شكسبير يكتب بالعربية. ولقد لاحظت الظاهرة نفسها فى ترجمات رباعيات الخيام، فالتى أعجبتنى كانت ترجمة السباعى رغم أن ترجمة رامى جاءت من الفارسية مباشرة.

ويُنهي الأستاذ حديثه عن الترجمة قائلاً: إن علينا أن نُحيى حركة الترجمة مرة أخرى حتى لا نتوقف عند فكر عصر مضى ولا نغلق على أنفسنا، فنجد أننا نتحدث إلى بعضنا البعض، بينما العالم الحديث فى وادٍ ثانٍ لا نعرف عنه شيئاً.

جاء السيد منصور علم، سفير باكستان بالقاهرة، يسأل الأستاذ نجيب محفوظ ماذا نفعل إزاء تلك الأزمة التي تواجهنا الآن في جميع الدول الإسلامية، ففي مصر كما في باكستان يبدو أن هناك معضلة لم نجد لها حلاً بعد، وهي كيفية التوفيق بين هويتنا الإسلامية الخاصة ومتطلبات التحديث، حتى ليبدو أن المتمسكين بالإسلام سلفيون متخلفون عن العصر، وأن المطالبين بالتحديث فقدوا انتماءهم وأصبحوا يتقصون القيم والمبادئ الغربية؟

فقال الأستاذ بلا تردد: تلك أزمة مفتعلة، فنحن في مصر مثلاً قد تمكنا من إحداث هذا التعايش بين الهوية الخاصة والتحديث منذ عصر محمد علي في القرن الثامن عشر وكأنهما ثقافة واحدة. وقد كان من نتيجة ذلك أن شهدت البلاد نهضة في شتى جوانب الحياة الثقافية والاجتماعية. إذن فالمشكلة ليست في إحداث هذا التعايش الذي هو ضروري، ومهم من أجل التقدم، إن المشكلة هي في مجتمعاتنا نفسها، وما حدث بها خلال سنوات ماضية من تدهور، خاصة في المجال الاقتصادي، حيث خلق ذلك قدرًا من السخط الشعبي على ما هو سائد من أوضاع، فبدأ الناس يبحثون عن حل آخر. فإذا كانت الاشتراكية التي اتجهت إليها الغالبية من دولنا الإسلامية بعد استقلالها واحتضنت مبادئها الداعية إلى العدالة الاجتماعية والكفاية والعدل قد فشلت في تحقيق تلك الكفاية وذلك العدل. وإذا كانت الرأسمالية قد فشلت قبل ذلك في تحقيق مجتمع الحرية والرفاهية، فإن ذلك قد جعل للمتطرفين الذين يدعون إلى نبذ كل هذه النظم الحديثة والعودة إلى السلفية، جاذبية جديدة لم تكن لهم من قبل.

ثم يستطرد الأستاذ: إن هذا التطرف السلفي ليس ظاهرة جديدة، لقد كان لدينا دائمًا من كانوا يدعون أن الموسيقى حرام وأن كل اختراع جديد هو بدعة، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار، لكن أحدًا لم يكن يستمع إليهم أو يأخذهم مأخذ الجد. فليس هناك ما يمنع أن تصلي الصبح وتنزل لتركب سيارة مصنوعة في فرنسا، أو أن تصوم وتكتب بقلم مصنوع في الصين، كما أنه لا أحد في الحضارة الغربية يجروء على أن يقول لك لا تتذوق المتنبّي أو اخرج من دينك. فيمكن أن تحتفظ بهويتك في الوقت الذي تتمتع فيه بثمار حضارات الدنيا كلها.

وألتقط الخيط من السفير الباكستاني، لأسأل الأستاذ نجيب محفوظ: وأين المخرج؟ فيقول: إنه حل مزدوج، أولاً: يجب أن نعمل على رفع مستوى معيشة الناس، لأن أحد الأسباب الرئيسية للتطرف في رفضه المجتمع الحضاري الحديث هو عدم قدرة البعض على الانضمام إلى هذا المجتمع والتمتع بوسائله. وثانيًا: يجب أن نوسع من دائرة المشاركة السياسية بالديمقراطية، فنسمح لكل من يتصور أنه يملك الحل أن يتقدم به للناس. يجب أن نسمح لكل من يريد أن يؤلف حزبًا أن يفعل ذلك ويتفاعل مع الواقع وفق القواعد الديمقراطية.

فأقول: حتى الـ...

فيقاطعني: حتى الشياطين، فهناك الشعب الذي سيحكم على كل شيء في النهاية.

سألت الأستاذ نجيب محفوظ: هل هناك علاقة قائمة بين الثقافة والديمقراطية، أي هل يمكن أن تقوم إحداهما بعيدة عن الأخرى، أم أنهما مرتبطتان؟

فأجاب: إن الثقافة بمعنى الفنون والآداب والفكر يمكن أن توجد في ظل أي نظام سياسي، لكن وجود الديمقراطية هو ما يُنعشها ويعطيها الهواء النقي الذي تننفسه، فتقوى وتزدهر، ففرق كبير بين ثقافة حية ومنتعشة وأخرى ضعيفة لأنها مخنوقة. كذلك فإن الديمقراطية تعتمد هي الأخرى في ازدهارها على الثقافة، فالشعب المثقف تكون ممارسته للديمقراطية أنضج بكثير من شعب ثقافته قليلة. لكن مع ذلك، فإن العلاقة بين السلطة السياسية والثقافة هي دائماً علاقة فيها قدرٌ من التوتر تحت جميع الأنظمة السياسية. فالسلطة دائماً تريد من يؤيد، أما المثقفون فهم ضمير الأمة وإحدى مهامهم الأساسية هي توجيه النظر إلى سلبيات المجتمع والوقوف ضدها. لكن الاختلاف هنا بين النوعيات المختلفة للأنظمة السياسية هو اختلاف فقط في القدرة على احتمال المثقفين، فقدرة احتمال النظام الديمقراطي مثلاً أقوى بكثير منها عند النظام الدكتاتوري الذي لا يتحمل أي نوع من النقد، ويعتبر أن فيه مساساً بهيبته، حتى ليكاد يصبح مقياس الديمقراطية هو قدر ما يتعرض له الحاكم من نقد. فنجد في الأنظمة الشمولية لا أحد ينتقد الحكام، وكأن كل شيء على ما يرام، بينما في الدول العريقة في الديمقراطية يواجه الحاكم نقدًا لا هوادة فيه، لكن ذلك لا ينتقص من قدره في شيء. فهذا النقد هو الخبز اليومي الذي تتغذى عليه الديمقراطية السياسية، وكل من هو في السلطة يتوقعه.

ويمضي الأستاذ فيقول: في مثل هذا الوضع، حيث حرية التعبير مكفولة تجد الأدب ينتعش والفن ينتعش والفكر ينتعش. وهكذا يقوم المثقفون بدورهم في المجتمع على أكمل وجه، فيكون لدينا مجتمع صحيح وسوي وليس مريضاً ومنحرفاً، ذلك أن الثقافة تصبح في هذا المجتمع سلطة إلى جانب السلطة تصلح وترشد، فتحول دون وقوع الكوارث، فالكوارث القومية لا تتفاقم إلا في الظلام.

حلت ذكرى رحيل جمال عبد الناصر، فقال الأستاذ: لن أنسى أبداً مثل هذا اليوم منذ ٢٥ عاماً بالتمام والكمال، فقد كنت دائماً أخذ إجازتي السنوية في سبتمبر، وفي عام ١٩٧٠ عُدت من الإسكندرية مساء يوم ٢٨ من هذا الشهر أنا وزوجتي وابنتانا. ولم يكن هناك بالطبع أي استعداد للعشاء بالمنزل الذي كان مغلقاً منذ شهر كامل، فقالت زوجتي إنها سترسل الشغال ليحضر لنا عشاء جاهزاً من أحد المطاعم القريبة. فجلسنا أنا والبنتان أمام التلفزيون نتسلى إلى أن يأتي الطعام، فلاحظنا أن التلفزيون لا يقدم إلا القرآن، وعندما طال ذلك قلت لزوجتي إن هناك بالتأكيد كارثة وقعت، وإن الراجح عندي هو أنهم قد قتلوا الملك حسين. فقد كان الملوك العرب مجتمعين في القاهرة بدعوة من الرئيس عبد الناصر، في محاولة لوقف مذبحه أيلول بين الأردن والفلسطينيين، لكن في أثناء ذلك عاد الشغال من المطعم ليقول إنه سمع أن «الرئيس» توفاه الله، ففزعت فيه فزعة عارمة ونهرته بشدة وقلت له ألا يفتح فمه بمثل هذا الكلام، وأن يمكث بالبيت ولا يبرحه. فقد خشيت أن يروج مثل هذا الكلام في الخارج، لكن بدأ بداخلي الشك والقلق ولم أستطع أن أدوق الطعام، وبعد دقائق أعلن التلفزيون أن نائب الرئيس أنور السادات سيُلقى بياناً. وما إن شاهدت وجه أنور السادات على التلفزيون حتى كنت أنا الذي قلت: «الرئيس مات!» فلم أرَ في حياتي وجهًا كوجه أنور السادات في هذا اليوم الذي كان مكتوبًا عليه الموت بخط فارسي.

ماذا كان شعورك بعد أن تيقنت من الخير؟

كنت في حالة من الارتباك من جملة عواطف شديدة جداً، فمن ناحية لم أكن مصدقاً تماماً في داخل نفسي أن عبد الناصر قد مات، فقد كنت أحد المختلفين ليس مع عبد الناصر وإنما مع نظام حكمه، وكنت من المعارضين الشرفاء في الكثير من رواياتي، خاصة ما كتبتة بعد نكسة يونيو ٦٧، وقد قبل عبد الناصر هذه المعارضة، ولم يُصادر عليها، لا في كتاب ولا في فيلم. وفي الوقت نفسه أنا أول المعترفين بمآثره، وما فعله للمجتمع المصري والعربي، لكن في هذه اللحظة لم يكن أمامي إلا مآثر هذا الزعيم العظيم، وحدث لي فزع شخصي عميق التأثير لن أنساه مدى ما حييت، من أنني سأموت، فإذا كان عبد الناصر قد مات فمن ذا الذي سيحيي؟! فالموت كما يقول الشاعر «حتم مؤجل»، لكن هذا الحدث لم يجعله مؤجلاً، بل جعله واقعاً ماثلاً أمامي. فهذا هو الزعيم الذي أحدث في العالم كله هذا التأثير بعيد المدى، وهذا الرجل الذي دخل كل قلوب أبناء وطنه بطرق مختلفة حتى أصبح جزءاً منها لا يتجزأ، حتى لم نكن نتصور الحياة من دونه، قد مات وانتهى. لقد كانت تلك لحظة أخذت فيها درساً عن قيمة العظمة وقيمة الحزن وقيمة الحياة التي لا تساوي شيئاً مع إحساس شديد بالعدم. كان يوماً عانيت فيه من المشاعر المتضاربة ما لم أعان في حياتي.

تحدث الأستاذ نجيب محفوظ، قائلاً: إن العقاد وطه حسين والمازني وهيكل قد أثروا حياتنا بدرجة كبيرة جداً، فقد قاموا بعمليتين كبيرتين للغاية. فقد قدموا لنا تراثنا القديم بمنهج علمي حديث، فقرأنا «حياة محمد» لهيكل، وقرأنا «إسلاميات العقاد» بفكر حديث ومنهج حديث. أما العملية الثانية فهي أنهم قدّموا لنا الفكر العالمي والتراث العالمي. وهكذا عرفنا برناردشو وه. ج. ويلز وأناتول فرانس، قبل أن نعرف كلمة في الإنجليزية أو الفرنسية. أي أنهم قدموا لنا العصر الحديث والعصر القديم بمرآة العصر الحديث، وذلك إنجاز ثقافي كبير استحقوا عليه لقب الرواد والمجددين، وكانوا مجموعة لم يشهد لها الأدب المصري مثيلاً من حيث إنجازها وضخامة عملها. والحقيقة أن هذا الجيل تميز بشيء مهم، وهو أن السياسة لم تفسد ذوقه الأدبي مثلما حدث بعد ذلك في تقسيم الكُتّاب إلى يمين ويسار. فقد كنت تجد العقاد وهيكل وطه يقاتلون بعضهم البعض بضراوة كل صباح بالصحف الحزبية، ثم يصدر كتاب لهيكل فينقده العقاد بكل نزاهة، ويعترف به وبمزاياه، وطه حسين يعترف بالعقاد، ونحن تلامذتهم. وقد كنت وفدياً متحمساً، لا أقرأ أحداً ممن يهاجمون الوفد، ومع ذلك فإن مراجعي الأدبية في ذلك الوقت كانت هيكل وطه حسين، المعادين للوفد، كما كانت أيضاً العقاد والمازني وسلامة موسى. لقد كنا نقرأ كتب أعدائنا السياسيين ونتعلم الأدب منها. هذا الوضع لم يكن موجوداً وقت تقسيمة اليسار واليمين، التي للأسف ما زالت معنا حتى اليوم. فلم يعد بمقدور البعض التجرد من الاعتبارات السياسية والحكم على الأدب كأدب، فعدوك في السياسة هو عدوك في الأدب، وهكذا فسدت الأذواق.

تحدث الأستاذ نجيب محفوظ عن عباس محمود العقاد، فقال: إن صلتني بالعقاد منذ الصغر كانت وثيقة للغاية، فقد كنت أقرأ له بانتظام، باعتباره كاتب الوفد الأول في مختلف الجرائد الوفدية، مثل: «كوكب الشرق» و«الجهاد» وذلك وقت المعارك الوفدية الكبرى. وكان العقاد بالنسبة لي هو الكاتب السياسي الذي وصفه سعد زغلول بالجبار إلى أن قرأت ذات يوم إعلانًا عن إعادة طبع ديوان العقاد، وأذكر أنني سألت والدي هل هذا هو عقادنا؟ فقال لي نعم هو نفسه. وحتى ذلك الوقت لم أكن أعرف أنه شاعر، بعد ذلك أصبح العقاد هو الشاعر الوحيد الذي قرأت كل كلمة كتبها من الألف إلى الياء، فرغم إعجابي بالمتنبي مثلًا، فلا أدعي أنني قرأت كل ما كتب، وكذلك أبو نواس لكن الذي كنت أجد فيه ما يجذبني لأتهم كل بيت شعر كتبه كان العقاد.

ثم يقول: ومع ذلك فأنا لا أقول إن العقاد كان أكبر عبقرية شعرية عرفتها، لكنه كان يمثل نزعة عقلانية واضحة، في وقت كنت أنا أتجه فيه إلى دراسة الفلسفة بالجامعة، فوجدت في شعره العقلاني ما يتفق مع استعدادي في ذلك الوقت، فقد كان العقاد ينتمي في هذا الصدد إلى مدرسة أبي العلاء المعري. ولقد قرأت أيضًا كتب العقاد غير الشعرية، مثل كتابه العظيم «ساعات بين الكتب» وكتبه عن سعد زغلول، وعن أبي نواس وعن المسيح، وهو مفكر جيد جدًا وأسلوبه العقلاني يحتاج إلى مجهود من القارئ، فهو صوت عقلاني منطقي يقول: «رَبِّعْ واسمعني!».

ويواصل الأستاذ نجيب محفوظ حديثه عن العقاد، فيقول: رغم تأثير العقاد الكبير عليّ فإنني لم أكن أعرفه شخصياً، لكنه أنصفي عدة مرات دون أن تكون بيننا معرفة. فقد كانت هناك مسابقة للقصة، وكانت اللجنة المشرفة عليها يغلب عليها الذوق التقليدي، ولم يكن فيها شخص مسير للاتجاهات الجديدة غير عبد القادر المازني، لذلك فضلت اللجنة أن تمنح الجائزة في ذلك العام إلى محمد سعيد العريان عن رواية «باب زويلة». لكن المازني اختلف معهم وقال إن اللجنة لا تستطيع أن تتجاهل الرواية المقدمة من نجيب محفوظ، وكانت اللجنة قد رفضت منح الجائزة لرواية «القاهرة الجديدة»، لأنها وجدت بها أشياء جريئة، مثل أن بطلها قواد، وكذلك وجدت اللجنة خروجاً عن التقاليد في «زقاق المدق». فقال لهم المازني: وماذا عن «خان الخليلي»، إن ما تعترضون عليه في الروايات الأخرى للكاتب غير موجود في هذه الرواية. وبينما هم يتناقشون تعالت أصواتهم في أثناء خروج العقاد من لجنة أخرى، فسمع نقاشهم، فخرج عليهم مستفسراً: لماذا يتشاجرون؟ فقالوا له: لقد جئت في وقتك، لقد اختلفنا حول جائزة الرواية وسنحكمك فيما بيننا، فنحن نريد أن نمنح الجائزة لـ«باب زويلة» والمازني يطلب تقسيم الجائزة بين هذه الرواية و«خان الخليلي». وقد قيل لي إن العقاد بعد أن قرأ الروايتين بعث إلى اللجنة يقول إنه يختلف مع الرأيين. فقد رأى أن يأخذها صاحب رواية «خان الخليلي» وحده، وقد رأت اللجنة إزاء ذلك أن تقبل تقسيم الجائزة بين الروايتين. أما المرة الثانية فكانت بعد ذلك بسنوات، حين قال العقاد في حديث تلفزيوني أذيع قبل وفاته بقليل: إن عندنا في مصر من يستحق الفوز بجائزة نوبل، وذكر اسمي، فكان أول من تنبأ بذلك، وبعد حوالي ربع قرن من الزمان تحققت نبوءته.

لقد كان عباس محمود العقاد هو أول من تنبأ بأنك ستحصل على جائزة نوبل، أتذكر ذلك يا أستاذ نجيب؟

كان ذلك حين حصل الروائي الأمريكي الكبير جون شتاينبك على الجائزة. لقد قال العقاد وقتها إننا لدينا في مصر من هو أفضل من شتاينبك، وقال إنك ستحصل على نوبل في يوم من الأيام.

لقد حَزَّ ذلك في نفسي كثيرًا، لأن العقاد كما تعلم كان شديد الكبرياء، ونادرًا ما كان يثني على إنسان. وفي ذلك الوقت لم أكن أعرفه معرفة شخصية، رغم أنني أعتبر نفسي من تلاميذه مثلما كان سيد قطب من تلاميذه أيضًا.

وكعادة الأستاذ نجيب محفوظ، بدلًا من أن يتكلم عن نفسه، قرر أن يكمل الحديث بالتركيز على العقاد، فقال: كان العقاد صاحب فكر مثلما كان صاحب كرامة، وجعل من الأديب شخصية كبيرة يُسعى إليها ولا تسعى إلى أحد.

فيم كنت تلميذًا للعقاد؟

العقاد هو أول من نبهني إلى قيمة التراث الإسلامي والعربي، وفي الوقت نفسه هو الذي عرفنا بالفكر العالمي، وعقد بين هذا وذاك مقارنات، مثلًا بين شوبنهاور وأبي العلاء المعري، فجعلنا ننظر إلى الثقافة على أنها شيء واحد يسهم فيه الإنسان من أي مكان، وأنه لا موضع لتعصب لتراث دون تراث، وأعطانا القدرة على أن نعترف بتراثنا، وعلمنا أن به ما يقارن بأحسن ما أنتجه الفكر العالمي من فلاسفة ومفكرين وأدباء وشعراء.

لكن بينما نجد أن للعقاد أسلوبًا يميل إلى التقفي، فرغم أنك تعتبر نفسك تلميذًا له فإن من بين إنجازاتك أنك تكاد تكون قد ابتدعت لغة جديدة للرواية، تعتمد على أسلوب عربي أصيل يميل إلى السلاسة، بحيث يفهمه المثقفون والعامّة في نفس الوقت.

لقد اهتم العقاد، لكونه مؤلفًا ومفكرًا، بالمنطق والدقة قبل الأسلوب، أما أنا فحكاء أحكي للناس بدلًا من الرجل الذي كان يجلس على القهوة، ويقول للناس: أول ما نبدي اليوم نصلي على النبي، ثم يقص عليهم حكاياته، إذن لا بد أن تكون مهمة هذا الرجل الأولى هي كيف يطوع هذه اللغة العظيمة لغة الحكى.

ويستطرد الأستاذ: لقد كنا في ذلك الوقت مدرستين: أناس قالوا الفصحى لا تصلح للحكى وإن العامية هي لغة الرواية، وبعضهم كتب الرواية كلها بالعامية مثل محمد عفيفي ومصطفى مشرفة. أما أنا، فقلت إن الفصحى هي لغة الرواية، لكن كيف تُكتب بها رواية واقعية مثل «زقاق المدق» على سبيل المثال؟ الحل هو أن نطورها ونطوعها وستصلح، وقد صلحت بالفعل، وكان اعتزازي

بالفصحى نابعًا من أمرين: أولاً أنها لغة القرآن، وثانيًا أنها لغة القومية. لذلك فلن أتركها من أجل الرواية، ولكنني سأتي بالرواية إليها.

قلت للأستاذ نجيب محفوظ: هذا الأسبوع حلت الذكرى العاشرة لرحيل الكاتب الكبير توفيق الحكيم. ولقد تذكرت بهذه المناسبة التي مرت علينا مر الكرام ما قلته لي بعد فوزك بجائزة نوبل، من أنه كان هناك من كانوا أحق منك بها، وذكرت لي يا أستاذ نجيب: العقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم! هذا صحيح، وأنا ما زلت عند رأيي هذا، وأشكرك أنك ذكرت ذلك في وقت يبدو أننا قد نسينا أفضل توفيق الحكيم على الأدب العربي. وماذا كانت أفضاله؟

إن ما تسألني فيه أكبر من أي حوار محدود كحوارنا هذا، ولا أستطيع أن أقول لك إلا بعض الانطباعات البسيطة التي تناسب هذا المقام الصغير المتاح. أولاً لقد كان ظهور توفيق الحكيم في حياتنا الأدبية مفاجأة فنية كبيرة، لأننا اعتدنا على الأدباء الباحثين والنقاد الذين كان الإنتاج الفني على هامش حياتهم، فكان كل منهم يؤدي رسالته العقلية النقدية أولاً، ثم بعد ذلك قد يكتب الرواية أو الشعر. لقد كانت هذه هي حال المفكر الكبير عباس محمود العقاد وأستاذ الجامعة العظيم طه حسين، حيث كان إنجاز كل منهما في المجال الثقافي أكبر بكثير من الأشعار التي كتبها العقاد أو الروايات التي كتبها طه حسين. أما توفيق الحكيم فقد كان فنانياً في المقام الأول، ولم يعتمد على شيء إلا فنه، فلم يكن له حزب يشجعه ولا زعيم يؤازره، ولا كان ناقداً ولا أستاذاً جامعياً. ولقد كانت «أهل الكهف» على سبيل المثال مفاجأة كبيرة للحياة الثقافية في الثلاثينيات. وأذكر أنني نزلت من الترامواي وأنا في طريقي إلى الجامعة لأشتري «أهل الكهف» من المكتبة التجارية، لأنها كانت حديث الوسط الثقافي كله، وكتب عنها العقاد الذي لم يكن يكتب عن أحد بسهولة. لقد كان توفيق الحكيم في نظري بحيرة من تلك البحيرات الغنية التي تتفرع عنها الجداول والينابيع والأنهار، فهناك من أخذ عنه الرواية، ومن أخذ المسرح ومن أخذ القصة القصيرة، ومن أخذ الفكرة والفلسفة. فتوفيق الحكيم ليس تأثيره في المسرح فقط، رغم عمق هذا التأثير، ولكن كان له أيضاً تأثير كبير في الفن الروائي. فقد كتب أهم رواية عربية كانت قد صدرت حتى ذلك الحين، وهي «عودة الروح» التي لا تضاهيها «سارة» العقاد، ولا «أيام» طه حسين، رغم روعة كل منهما. لقد كانت «عودة الروح» أول رواية عربية مكتملة فنياً، لذلك كانت في حد ذاتها مدرسة، تأثر بها كل من كتب الرواية بعد ذلك، كما تأثرت بها أنا شخصياً تأثراً كبيراً.

قال الأستاذ نجيب محفوظ عن إبراهيم عبد القادر المازني: لقد كان المازني يتمتع بأسلوب أدبي خاص وجميل، وقد كان يكتب بحلاوة وعذوبة لا مثيل لهما، وهو الوحيد بين الرواد الكبار - طه حسين والعقاد وهيكل وسلامة موسى - الذي لو تخصص لكان روائياً ضخماً، لأنه كانت لديه مواهبها جميعاً. لكنه للأسف لم يكتب إلا «إبراهيم الكاتب» و«إبراهيم الثاني»، كما كان مترجماً ممتازاً، تقرأ له فلا تتبين أن ما تقرأه هو ترجمة، وإنما من سلاسة أسلوبه تتصور أنه الأصل. وقد كانت لي معه واقعة لا أنساها، فحين صدرت لي رواية «زقاق المدق» لأول مرة في عام ١٩٤٧، قال المازني لعبد الحميد جودة السحار، وقد كان صديقاً له، إنه يريد أن يقابلني. وأخبرني السحار بذلك، فذهبت للقائه، وكان يسكن في شارع فاروق الذي سُمي بعد ذلك شارع الجيش، وكان بيته بسيطاً مثل البيوت التي نسكنها. وقد استقبلني في حجرة تغطي الكتب جميع جدرانها، فلم أر لها جدراناً، وشجعتني كثيراً على أن أوصل الكتابة الروائية. لكنه استدرك قائلاً: إن ما أكتبه ينتمي إلى مدرسة الأدب الواقعي، التي لم يكن أحد يتحدث عنها في هذا الوقت المبكر، وهذا النوع من الأدب يأتي بالكثير من المشاكل. فعليك أن تتوقع مثلاً أن يقيم عليك أحد المواطنين قضية قائلاً: إنك كنت تقصده في إحدى رواياتك. ثم إن الرواية عندنا في مصر هي نوع من السيرة الذاتية، مثل روايتي «إبراهيم الكاتب» أو رواية «سارة» للعقاد أو «الأيام» لطف حسين. وحين تكتب أنت الآن «زقاق المدق» فالناس ستقول إن تلك سيرتك، لأننا في مصر لم نتعود الواقعية الموضوعية بعد، لذا فإنني أنبهك لذلك حتى تحترس. ثم ذكر لي هذا الرجل طيب القلب بعض الأمثلة لكتّاب أجانب رُفعت عليهم القضايا لنفس هذه الأسباب. فانظر كيف يهتم كاتب كبير بروائي شاب مثلي ويطلب مقابلاته، يشجعه ثم ليحذره من بعض المنزلاقات.

مع دخول فصل الشتاء تحدث الأستاذ نجيب محفوظ عما يمثله له هذا الوقت من السنة، فقال: الخريف والشتاء كانا دائماً بالنسبة لي فصلي العمل والنشاط والحيوية، وبعكس الكائنات التي تعرف البيات الشتوي فإنني كنت أجد دائماً أن في هذا الوقت من السنة تكون روعي متألفة، وكل استعداداتي وإمكانياتي الأدبية في حركة ونشاط، ابتداءً من الخريف وطوال الشتاء. أما في الربيع، فببداً عندي ما يمكن أن نسميه البيات الصيفي! وأذكر أنني حين تخرجت في الجامعة عام ١٩٣٤ أصابتنني أنواع مختلفة من الحساسية في العين وفي الجلد مع بداية الربيع، وقد تكررت عدة سنوات، مما كان يجعلني غير صالح للعمل حتى إذا أردته، بينما كنت في الخريف أبداً في استرداد صحتي وإمكانياتي وأصبح مزدهراً وفي أحسن ما أكون. أي إن الشتاء كان دائماً بالنسبة لي هو فصل الصحة وليس فصل المرض، سواء كانت النوبات البردية أو غيرها، وقد كان يحدث بالطبع أن أصاب مرة بنزلة برد، لكن ذلك كان قليلاً جداً. لذلك فإنني أحب الخريف والشتاء، وأجد نفسي مقبلاً على الدنيا أكثر في ذلك الوقت من السنة، بينما أجدي أتحمّل الصيف بصبر، وكأني أغلب حالة - وإن كانت خفيفة - من الاكتئاب، وأظل أنتظر حلول الشتاء التالي.

ثم يضيف الأستاذ: لقد كنت أعتبر فصل الصيف عائقاً في عملي الأدبي، وأنه أضاع مني شهوراً طوالاً على مدى السنين دون عمل. أما الآن فأستطيع أن أقول لك إن فصول الصيف هذه أفادتني كثيراً، لأنها أعطت لي فترات راحة إجبارية ومن دون ذلك كنت سأستمر في الكتابة بشكل مستمر. وهذا كان من الممكن أن يجعلني عرضة لبعض ردود الفعل العنيفة، مثل السأم الذي يأتي من العمل المتواصل ويجعل الكاتب يهجر عمله فترات طويلة، لكن توقي أثناء الصيف كان دائماً يجعلني أعود للعمل بعد ذلك باشتياق كبير.

وأسأل الأستاذ نجيب محفوظ عن فصل الشتاء في أعماله الروائية، فيقول: هناك بالطبع «السمان والخريف» و«الحب تحت المطر» وغيرهما من الأعمال التي تقع أحداثها الرئيسية في الخريف أو الشتاء، لكن هناك من الروايات أيضاً ما وقعت أحداثها في رأس البر أو الإسكندرية، لكني لم أدرس جغرافيا أعمال الروائية. وهناك من الروايات ما كانت تتضمن فصلي الصيف والشتاء معاً مثل «الثلاثية»، وأيضاً «ميرامار» التي وصفت فيها شتاء الإسكندرية كثيراً، وأذكر في إحدى الترجمات الإنجليزية لـ«ميرامار» أن الناقد الذي كتب المقدمة قال فيها إنه أحس بأن المطر مثل أحداث الرواية كان يحاصر الأبطال ويلحقهم. كذلك فإن «ثرثرة فوق النيل» استغرقت أحداثها حوالي سنة، فكان فيها الشتاء وفيها الصيف، بل إن الحادثة الرئيسية فيها كانت في الصيف، حين خرج الأبطال لأول مرة من العوامة وركبوا السيارة فوقع لهم حادثة.

ثم يضيف الأستاذ: ومع ذلك أقول لك إن الفصل المفضل عندي هو الشتاء، حيث أشعر بوجود، وأجد نفسي قادراً على الكتابة، وقد كانت هذه هي حالي منذ الصغر، وحين كنت أقرأ الشعر العربي القديم كان من يتحدث منه عن الشتاء يؤثر فيّ أكثر من غيره. أما فصل الصيف، فرغم أنني لا أكتب فيه على الإطلاق، فإنني كثيراً ما أفكر فيما سأكتبه بعد ذلك، ففي الصيف كنت كثيراً ما أتمشى على النيل في القاهرة أو على شاطئ البحر في الإسكندرية، وكنت أعتاد أن تجيئني بعض الأفكار لكتابات كنت أختزنها لأعود إليها مع حلول فصل الخريف، حيث كنت أعود مرة أخرى إلى الكتابة. وقد كنت في بعض الأحيان أدون هذه الأفكار، وفي أحيان أخرى لم أكن أدونها، وكانت تبقى معي حتى أعود إلى الكتابة أو تهرب ولا أصبح قادراً على استعادتها مرة أخرى.

أرسل الأستاذ نجيب محفوظ رسالة إلى مؤتمر الثقافة والأدب والديمقراطية، الذي يبدأ أعماله في باكستان بعد غد، قال فيها من بين ما قال: إن الديمقراطية ليست شيئاً نطالب به الحكومات وحدها، فالديمقراطية هي روح الحرية، وما لم تترسخ في المجتمع بجميع مستوياته، فلا جدوى منها. إذ إننا نرى الآن أن الكُتَّاب والمتقنين كثيراً ما يتعرضون للاعتداء، ليس من جانب الحكومات، وإنما من قبل جماعات عميت أبصارها ولم تعد ترى غير ما يتراءى لها وحدها، وهذا وضع يهدد حرية الإبداع أكثر من أي شيء آخر.

ثم يضيف: ففي بعض الأحيان يجد الكاتب نفسه واقعاً في دائرة النار التابعة لبعض الجماعات في المجتمع التي قد تكون الحكومة نفسها في حالة صراع معها، وهكذا قد تصيبه النيران من الجانبين. وأسأل: أليس الكاتب بطبيعته في صراع مع مجتمعه، سواء السلطة السياسية أو أي جماعات أخرى؟

فيقول الأستاذ: ليس بالضرورة. إن الكاتب قد يكون في حالة تناقض مع السلطة القائمة، لكن ذلك لا يعني أن يكون هناك صراع بينه وبينها. ما دامت هناك ديمقراطية فإن الجميع يستطيع التعايش وتحدث في بعض الأحيان بالطبع بعض حالات التوتر في العلاقات بين المتقنين والسلطة، لكني لا أعتقد أن تلك من طبيعة العلاقة التي ينبغي أن تقوم بينهما.

فأقول: إذا كان مثل هذا الاعتداء بشقيه المعنوي والجسدي قد يصيب الكاتب من الحكومات والجماعات، على حدٍ سواء، فأين يحتمي الكاتب؟

فيقول الأستاذ: يحتمي في جمهوره، لكن هنا أيضاً يجب أن نتذكر أن الديمقراطية هي التي وفرت له هذا الجمهور الواسع. ذلك أن الثقافة كانت في الماضي حكراً على الصفوة الحاكمة من ملوك وأمراء، فكانوا هم الراعين للفن وهم متلقيه أيضاً. لكن الديمقراطية خلقت جمهوراً جديداً تماماً للكاتب لم يكن متاحاً له من قبل، وهو جمهور متنوع يختلف عن جمهور الصفوة القديم في أن ذوقه قد يتراوح ما بين أرفع المستويات وأكثرها تواضعاً، لكنه أيضاً جمهور يتسع عن محيط الأمراء والملوك، ليحتوي الأمة كلها، لذلك فهو يتمتع بقوة لا يُستهان بها.

سألت الأستاذ نجيب محفوظ عما يمثله له عيد ميلاده، الذي حل هذا الأسبوع، فقال: هو محطة يصعب تصور محطة بعدها، ففي أي عيد ميلاد ينظر الإنسان إلى عيد الميلاد التالي، لكن في سني هذه يكون الإحساس دائماً بأن هذا هو العيد الأخير.

وكيف تنظر إلى ما مضى؟

بالرضا، ليس لأن ما فعلته خلال حياتي لا يمكن طلب خير منه، وإنما لأنني أشعر أنني فعلت ما في جهدي، وبالطريقة السليمة، على أنه يداخلي شعور كالذي يشعر به من طال به الأمد في مكان ما حتى مل.

ثم يضيف ضاحكاً ضحكته الصادقة: «الحقيقة إنني أنا زهقت».

ويشرح: إنني أشعر بالامتلاء، وكأنني شبعت من الحياة، وما أصبح يخفف من وطأة الأيام الآن هو أنها تنتهي.

فأقول على الفور: إذا كان شعورك الآن يا أستاذ نجيب هو أنك لم تعد تحتاج إلى الدنيا، فإن الدنيا بدورها تحتاج إليك، ابتداءً من دائرة أصدقائك المحيطين بك وحتى قرائك المنتشرين في العالم كله! فيقول الأستاذ: إن أهم شيء في حياتي هو الصداقة، لولا أصدقائي لكانت فترة السنتين الأخيرتين من أتعس أيام حياتي. أما القراء، الذين أعتز بهم كل الاعتزاز، فإن كل ما كتبته كان لهم، وسيظل ملكاً لهم، سواء كنت على قيد الحياة أم لا.

وكيف ترى الدنيا الآن؟

إنها رحلة ثرية، بها من كل شيء الخير والشر.

وماذا أخذت من الدنيا؟

فيقول بعد لحظة تفكير: حصلت على تجربة مهمة تنطوي على متعة كبيرة وعلى آلام لا تُنسى، أي إنني أخذت منها كل شيء يمكن للإنسان أن يأخذه. وأكثر ما أعتز به هو ما حصلت عليه من أبناء وطني البسطاء، فالتقدير الكبير الذي حصلت عليه منهم يساوي في نظري أهم الجوائز العالمية، أما فرحتهم بنجاتي فقد كانت الفرحة الأصفى.

ذهبت وملئي الخجل إلى شيخنا الكبير الذي كرمه العالم أجمع، ثم جئنا نحن وقد وصل إلى سن الـ ٨٤ لنهدد برفع دعوى قضائية ضده لتطليقه من زوجته، فقال لي وبريق الحب يلتمع في عينيه: إن مصر بلد عظيم، ولا ينبغي أن نحكم عليه من أعمال بعض أبنائه الذين لا يمثلون حقيقته. إن مصر هي أصل الحضارة، والحضارة هي الحب والخير والجمال، وهي أيضًا الوعي الذي يفرق بين الحق والباطل.

لكن سرعان ما تحول بريق الحب إلى نظرة لوعة وألم، وهو يقول: لقد تألمت كثيرًا أنني وجدت إذاعات العالم تفرد مساحة من نشراتها الإخبارية، لتقول إنه يجري الآن في مصر الاستعداد لتطبيق نجيب محفوظ من زوجته، لأنه كتب رواية «أولاد حارتنا». ليس هذا هو ما تستحقه مصر من أجهزة الإعلام الدولية، إن مصر أكبر من ذلك بكثير وهي أم الأمم جميعًا. لقد حدث ذلك، والدعوى ما زالت مجرد تهديد، فماذا سيحدث حين تقام الدعوى بالفعل؟ وماذا ستفعل أنت؟

فيجيب الأستاذ: أنا شخصيًا لا أخشى شيئًا، بل لعلي أحب أن تُعرض رواية «أولاد حارتنا» أخيرًا على قاضٍ عادل، لأنني واثق ثقة كاملة في قضائنا النزيه، ولأن الرواية ليست كافرة، ولا أنا بكافر. ولعلي أذكرك بأنه منذ حوالي ٣٠ عامًا أخبرني حسن صبري الخولي الممثل الشخصي للرئيس عبد الناصر، بأن لجنة من الأزهر ستأتي تناقشني في الرواية، فرحبت بذلك، وذهبت بالفعل في الموعد المحدد لمكتب الخولي إلا أن أحدًا منهم لم يحضر.

ثم يضيف: إذن من ناحية الموضوع، أنا لا أخشى شيئًا، لكن ما أزعجني على المستوى الشخصي هو أن أنهي حياتي في هذه السن في ساحات المحاكم، أنا الذي لم أدخل محكمة في حياتي. فكم من مرة نُصب عليّ في بعض المال أو قذفني شخص بما ليس فيّ، وكان يجيئني المحامون يقولون إنها قضية مضمونة والتعويض فيها مؤكد، لكنني كنت أرفض ذلك، حتى لا أُجرر إلى المحاكم. والآن يصعب عليّ في هذه السن، حيث ما زلت أخضع للعلاج الطبيعي، أن أضطر إلى الذهاب إلى المحاكم يومًا بعد يوم.

وأترك الأستاذ وقد انتقلت لللمعة التي كانت في عينيه إلى عيني أنا من الدمع الذي حاولت من دون جدوى كبتة.

يقول الأستاذ نجيب محفوظ: من الغريب أن همومي السياسية بدأت منذ بدأت أتعرف على ما حولي بشكل واعٍ، فقد شاهدت مثلًا أحداث ثورة ١٩ وأنا في السابعة، وشاهدت الميدان الهادئ الواقع بالقرب من منزلنا بالجمالية، وقد تحول إلى ساحة صاخبة للهناف والدماء وضرب الرصاص. وحين وصلت إلى سن العاشرة أو الحادية عشرة، كانت قد أصبحت لي آراء ومواقف سياسية، وكان لي أبطال الوطنيين من أمثال سعد زغلول، وحتى قبل أن أقرأ الجرائد كنت قد عرفت وطنيين أنتمي إليهم، وآخرين نسميهم خونة، وهم قد لا يكونون كذلك، لكنه حماس تلك السن. ليس غريبًا أن تبدأ اهتماماتك السياسية والوطنية في هذه السن المبكرة التي تعتبر أقرب إلى مرحلة الطفولة؟

أعتقد أن ثورة ١٩ هي المسؤولة عن ذلك، فقد جعلت منا جيلًا سياسيًا بحكم الظروف التاريخية التي مررنا بها خلال سنوات تكويننا الأولى. ففي ذلك الوقت لم تكن السياسة ترفًا، بل كانت هي حقائق حياتنا اليومية، ولم تكن حكرًا على من يمتهنونها من رجال السياسة، فإن قضية الاستقلال والحرية كانت من صميم اهتمامات الرجل العادي.

وبعيدًا عن السياسة، هل كانت لك هموم أخرى في الطفولة والصبا؟ هل كانت لك مشاكل مع الآخرين؟ هل كنت تجد صعوبة في التكيف مع ظروفكم آنذاك؟

لم تكن لديّ مشاكل مع الناس، فقد كان لي دائمًا أصدقاء كثيرون، إلى درجة أنهم كانوا يشكلون فريقين يلاعبان بعضهما البعض. ومع ذلك فقد كانت لي منذ الصغر أوقات عزلة ووحدة، لم أكن أحب أن يتطفل عليها أحد، تلك هي أوقات القراءة التي تشبثت بها منذ سن ١١ سنة، التي أعتقد أنها حددت مسار حياتي كلها بعد ذلك.

ويتطرق الحديث مع الأستاذ نجيب محفوظ إلى قراءاته، فيقول: إن أول كتب قرأتها في الصغر هي كتب الكبار، فلم تكن هناك كتب للأطفال في ذلك الوقت، كان عمري آنذاك اثني عشر عامًا. فكنت أقرأ كتبًا فارغة مليئة بالقصص البوليسية وبالحرامية مثل كتب آرسين لوبين وجونسون وغيرهما، ثم أصبحت أقرأ القصص العاطفية، لكنها لم تكن تزيد في قيمتها على القصص البوليسية. ويستطرد الأستاذ: لقد كانت تلك كلها كتبًا مترجمة، وكنا نتصور في ذلك الوقت أنها تمثل شيئًا في الأدب العالمي إلى أن كبرنا واكتشفنا أن تلك الأسماء التي كنا نقرأ لها لم تكن لها أي قيمة في آداب بلادها.

هل تذكر بعض هذه الأسماء؟

أذكر مثلًا تشارلز جارفز الذي لم أجد له ذكرًا في الأدب الإنجليزي بعد ذلك، ولقد كانت رواياته التي قرأتها تدور حول قصة حب بين ابن أحد اللوردات الذي يقع في غرام ابنة فلاح، وأشياء من هذا القبيل، كذلك كانت هناك قصص ابن جونسون.

من ابن جونسون هذا؟

كان جونسون لصًا شهيرًا ترجم سلسلة كتبه حافظ نجيب، وحين انتهت السلسلة وحقت نجاحًا كبيرًا استخسر المترجم ذلك، فأوجد له ابنًا من عندياته وبدأ سلسلة جديدة من الروايات عن ابن جونسون. الغريب أنه كان يوقعها كمترجم رغم أنه هو مؤلفها، لأن الكتب المترجمة في ذلك الوقت كانت تجد إقبالًا من الجماهير. وكان الكثير ممن يؤلفون القصص يكتبون عليها «مترجمة عن الفرنسية»، وكان المرحوم السباعي ممن كانوا يقومون بالترجمة عن الفرنسية، لكن الترجمة في ذلك الوقت كانت دائمًا ترجمة مع تصرف. فمثلًا كان يمكن للمترجم أن يورد وسط قصة فرنسية

حديثًا نبويًا، وكنت أنا أشتريها، فأقول: يا سلام إن جي دي موباسان يعرف أحاديث الرسول! ويضحك ملء شذقيه ويقول: لم يكن هناك من يوجهنا، وكان على المرء أن يعلم نفسه بنفسه، ويبحث وحده عما ينبغي أن يقرأه. وقد قطعنا شوطًا طويلًا حتى وصلنا إلى أن ننتمي إلى أكبر مجموعة ثقافية في تاريخنا الحديث مثل العقاد وطه حسين والمازني وهيكل وسلامة موسى.

قلت للأستاذ: كنت دائماً معروفاً بأنك تقدر الصداقة، وأن لك دوائر مختلفة من الأصدقاء، وقلت لي في حديث سابق إنه لولا الأصدقاء لما كان لحياتك الآن معنى، كما أنك استلهمت بعض رواياتك مثل «الحرافيش» من أصدقائك، فماذا يمثل الأصدقاء في حياة نجيب محفوظ؟

فقال: إن الأصدقاء كانوا دائماً جزءاً أساسياً من حياتي، فأنا لا أتصور الحياة بلا أصدقاء، وحتى وأنا طفل صغير عمري ما بين السابعة والعاشر في بيت القاضي وسيدنا الحسين، كان لي أصدقاء ألعب معهم، وأحرص على مقابلتهم يومياً. ومن الغريب أن هؤلاء الأصدقاء هم الوحيدون الذين اختفوا الآن من حياتي، رغم أن جميع صداقاتي بعد ذلك استمرت معي في مراحل مختلفة من العمر. لكن الآن لم أعد أتذكر من أصدقاء الطفولة إلا أسماء عائلاتهم، فأعرف مثلاً أنه كان لي صديق من أولاد السكري وآخر من عائلة البنان، ولكن إلى أين أخذتهم الحياة، لا أعرف. على أي حال لم يبقَ منهم جميعاً إلا صديق واحد فقط، كان ابن مأمور قسم الجمالية في ذلك الوقت، وأعتقد أن اسمه كان همّام، ورغم أنني لم أقابله بعد ذلك فإن بعض أقاربي قالوا لي إنهم قابلوه مستشاراً. لكنني أذكر جيداً أننا كنا نزورهم أنا ووالدتي في بيتهم الملحق بالقسم، وكنا نلعب أنا وهو في ميدان بيت القاضي بلا خوف، لأنه لم تكن هناك آنذاك سيارات، فكان الميدان بمثابة ملعب لنا. وأذكر أننا كنا ننتظر عربة الرش التي كانت أحد الرموز الهائلة في حياتنا، فكنا نجري وراءها في الميدان، بينما كان يجرها بغلان عظيمان وتنطلق من خلفها نافورة ماء جميلة تهبط التراب وتلطّف الجو، وكان الميدان في ذلك الوقت يُكنس ويُرش مرتين في اليوم الواحد.

ثم يضيف: وفي سن العاشرة حين انتقلنا إلى حي العباسية اتسعت دائرة أصدقائي بشكل كبير، وبدأ اهتمامي بالرياضة، خاصة الكرة. وقد كان أصدقائي يشكلون فيما بينهم فريقين كاملين للعب الكرة، بالإضافة إلى أربعة أصدقاء آخرين احتياطي، وقد ظللت أراهم إلى أن تُوفوا الواحد وراء الآخر.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: بعد أصدقاء الطفولة في الجمالية، الذين كان اللعب هو الجامع بيننا انتقلنا إلى العباسية، وبدأت السياسة والحياة العامة تشكل اهتمامًا مشتركًا بيني وبين أصدقائي الجدد، لكنني كنت ما زلت أتوق إلى الحي القديم. وكثيرًا ما كنت أصحب أصدقاء العباسية إلى الحسين، خاصة في ليالي رمضان، حيث كنا نسهر في قهوة الفيشاوي، وحين كبرنا قليلًا كنا نذهب إلى قهوة الباريزيانا بشارع الألفي، ولنا صور جميلة تجمعنا معًا ما زلت أحتفظ ببعضها.

وبعد لحظة صمت، يضيف الأستاذ: ليتغمدهم الله جميعًا برحمته، فقد تُوفوا جميعًا، ولم يبقَ لي منهم على قيد الحياة إلا ثلاثة فقط هم عبد المنعم الشويخ الذي لم أره منذ فترة، فهو لا يخرج الآن من بيته والدكتور أدهم رجب ومصطفى كاظم من رجال الأعمال، وهو شقيق السيدة تحية قرينة الرئيس عبد الناصر. ومن الطرائف أنه تشاجر مع زوج شقيقته قبل أسابيع قليلة من قيام الثورة، وحين تلقى خبر قيام الثورة كان جالسًا مع عبد المنعم الشويخ، فقال له مازحًا أخشى أن يكون المجنون زوج شقيقتي أحد المشاركين فيها. وقد روى عبد الناصر هذه القصة لعبد الحكيم عامر بالإسكندرية أمام شقيق زوجته، فرد عليه عبد الحكيم قائلاً: كان شقيق زوجتك على حق، فإن ما قمنا به ليلة ٢٣ يوليو كان جنونًا بالفعل.

وتمضي لحظات الضحك، ويعود الأستاذ إلى سكوته ليقول: إن هؤلاء الأصدقاء الذين كانوا يشكلون فيما بينهم فريقين يلعبان الكرة ضد بعضهم البعض، زائد أربعة أفراد احتياطي قد انتقلوا جميعًا إلى رحمة الله، ولم يبقَ لي الآن منهم إلا هؤلاء الثلاثة فقط، أطل الله في أعمارهم. أما الباقون فمنهم من تُوفي في الشباب، ومنهم من اختطفه المرض، ومنهم من تُوفي في الكبر، وكلما كنت أسمع عن رحيل أحد أصدقاء العباسية القدامى كنت أشعر وكأن جزءًا مهمًا من كياني قد اقتطع مني، سواء كنت ما زلت أرى هذا الصديق أو كانت الحياة قد باعدت بيننا.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: في سنة ١٩٤٣ بدأت علاقتي أنا وبعض أصدقائي بالنشر، حيث كنا قد بدأنا نكتب ونسعى لنشر ما نكتبه، وذلك بعد أن حصلنا على بعض الجوائز لكتاباتنا، وهكذا بدأت دائرة معارفي تتجه نحو الأدباء والكتّاب مثل عادل كامل وأحمد زكي مخلوف. وقد دعاني عادل كامل إلى منزله ليعرفني بأصدقائه كما عرّفته أنا من قبل بأصدقائي من العباسية، وكانت هذه بداية علاقتي بشلة الأصدقاء الذين أطلقنا عليهم اسم «الحرافيش»، فعرفت أحمد مظهر وثابت أمين وأمين الذهبي ومحمود شبانة، ولقد بدأنا نتقابل أسبوعياً، وجعلنا مكاننا المفضل هو كازينو أوبرا، وسرعان ما جذبت إلينا هذه الجلسة عدداً كبيراً من الفنانين. وكثيراً ما كنا نمضي سهرتنا أيضاً بمنزل محمد عفيفي، وكانت الجلسة تضم ما لا يقل عن ٢٠ شخصاً، كان من بينهم صلاح جاهين ومصطفى محمود وأحمد بهاء الدين ولويس عوض، فقد زادت الجلسة واتسعت مع الوقت حتى أصبحت تُذكر في عدد أفرادها بأصدقاء العباسية. ولم يكن يتركز الحديث في هذه الجلسات بمنزل محمد عفيفي حول الأدب وحده، لكنه كان كثيراً ما يتطرق إلى الأمور العامة، خاصة السياسة، وفي هذه الحالة كان مضيفنا يندب حظه التعس الذي جعله يستضيفنا ويعرض نفسه للمخاطر. وأذكر أنه في إحدى هذه الجلسات، أخبرنا صلاح جاهين بنبأ زواجه، وكان في جلستنا الأسبوعية مساء الخميس، وتقرر أن تكون جلستنا القادمة يوم الخميس التالي في فرح صلاح جاهين، لكن في تلك الليلة نظر مصطفى محمود إلى السماء، وقال إنه يرى نجم زحل يبرق وهذا لا يُنبئ بالخير، فضحكنا منه جميعاً. لكن قبل حلول يوم الخميس التالي، وبالتحديد في يوم الاثنين الذي كان تاريخه هو ٥ يونيو ١٩٦٧ حدث ما أنسانا جلستنا وأنسانا أيضاً الفرحة الذي لا أعرف حتى الآن، إن كان قد تم أم لا، لأننا حين التقينا بعد ذلك بصلاح جاهين لم يتحدث أحد منا عن الزواج أو الفرحة.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: منذ شهر واحد فقط فاجأني صديقي العزيز أحمد مظهر بالزيارة، فقد اتصل بي تلفونياً وقال إنه في طريقه إليّ للزيارة، وقد تتصور أنه كان هناك أمر عاجل وراء تلك الزيارة. لكن الحقيقة أنه أراد فقط أن نلتقي بعد فترة فرق المرض فيها فيما بيننا، فقد اعتلت صحته في الآونة الأخيرة، بينما حدثت حالتي الصحية من كثرة خروجي. وقد كنا في السابق نلتقي أسبوعياً حيث كان أحمد مظهر أحد الحرافيش الذين كنت أعتر بهم، كانت هذه هي الشلة الجديدة التي تعرفت على جميع أفرادها في يوم واحد عام ١٩٤٣ بمنزل عادل كامل، وكان من بينهم مظهر وشبانة وأمين الذهبي وغيرهم، وتلك هي الشلة التي سُمي أعضاؤها فيما بعد الحرافيش. لقد كان أهم ما يلفت النظر في أحمد مظهر تعدد مواهبه، فالناس يعرفون جميعاً أنه كان فارساً عظيمًا، إلى جانب كونه ممثلًا مهمًا في تاريخ السينما المصرية، لكن قد لا يعرف البعض أنه كان أيضًا موسيقياً موهوبًا، كما كان مغنيًا، فقد كان يعزف القانون بحساسية فائقة، ويعني ألحانًا كثيرًا ما أطربنتني في أثناء لقاءاتنا الأسبوعية، كما كان أيضًا رسامًا كأنه فنان تشكيلي محترف. لذلك فحين دخلت بيته لأول مرة دهشت من كمية الكؤوس التي حازها كفارس، فلديه جناح كامل مليء بهذه الجوائز التي تشهد على تميزه في الفروسية، لكنني وجدت على الحائط المقابل لوحاته التي أنجزها بريشته، لكن ذلك كله كوم وأخلاق أحمد مظهر كوم آخر، فقد كانت لديه درجة من السمو في الأخلاق نادرًا ما تجدها في أيامنا هذه. رحم الله أحمد مظهر وألهمنا جميعًا الصبر على فراقه.

تحدث الأستاذ نجيب محفوظ عن الحرافيش، فقال: إن أول مكان كانوا يجتمعون فيه كان على شاطئ النيل بالحيزة في المنطقة الواقعة أمام منزل الرئيس السادات الآن. كان ذلك في الأربعينيات وكانت تلك منطقة مهجورة آنذاك، وكنا نجلس في حلقة على الأعشاب الخضراء، وأمامنا النيل، لكننا سمينا هذا المكان الدائرة المشؤومة، لأننا لم نتحدث فيها إلا عن إحباطاتنا في الحياة في ذلك الوقت. فقد كان الوضع السياسي مؤلماً في أجواء ما قبل الثورة، حيث الفساد والرشوة والتخبط السياسي في وقت كان فيه الاستعمار البريطاني ما زال جاثماً على صدورنا. وكنا نحن مجموعة شباب يحاولون شق طريقهم في دنيا الأدب والثقافة، لكن أحداً لم يكن يشعر بنا، وكان ذلك يصيبنا بالإحباط على المستوى الشخصي. وبعد ذلك انتقلنا إلى منزل عادل كامل بالحيزة، ثم بيت محمد عفيفي بالهرم، ثم استضافنا توفيق صالح.

كان من بين الحرافيش من أقلع عن الكتابة، ومن هاجر إلى الولايات المتحدة ولم يصمد من الأدباء أحد غيرك!

ذلك أني كنت أحب الكتابة أكثر من حبي لتنتاجها، فهناك من يكتبون من أجل المجد والشهرة، ومن أجل المال، فإذا لم يجئ المجد ولم يجئ المال، فهم يمتنعون عن الكتابة. أما أنا فكانت جائزتي في الكتابة نفسها، التي ترضيني في حد ذاتها، ولا أقول لك إنني لا أحب المجد ولا المال، ولكن إذا لم يأت أيٌّ منهما فإنني أعمل، وكأنهما قد جاءا. فسعادتي بالكتابة كانت أكبر من أي شيء.

ويواصل الأستاذ حديثه عن الحرافيش، فيقول: إن ما يميز الحرافيش هو أنها كانت علاقة صداقة إنسانية وفنية وفكرية وسياسية، أي أنها كانت جامعة لكل شيء. لكنهم للأسف تقلصوا الآن، بعضهم بالوفاة مثل أمين الذهبي وفريد أمين وصلاح جاهين وعاصم حلمي الذي كنا نسميه «الكابتن»، وبعضهم بأن تغير في أسلوب حياته مثل مصطفى محمود الذي اتجه إلى الدين والتصوف، وكانت بداية ذلك بالتليسكوب. دعانا في مرة إلى بيته وجعلنا ننظر جميعاً إلى السماء والنجوم من خلال هذا التليسكوب، فرأينا جلال السماء الذي كان أول منبه له على عظمة الله جل جلاله.

لكني ألاحظ أن الحرافيش كانوا يمثلون أعماراً وأجيالاً مختلفة!

إن علاقة الحرافيش لم تكن علاقة أعمار، وإنما علاقة عقول، لذلك كانت تتخطى السنين والأجيال، ولست أعرف من كان أكبرنا سناً، قد يكون أنا، وما بيني وبين صلاح جاهين مثلاً كانت هناك عدة أعمار، ومع ذلك فقد خُطف صلاح منا قبل الأوان. وأذكر أنه في أواخر أيامه اتصل بنا تلفونياً، ولم نكن قد رأيناه منذ فترة طويلة، وقال لنا: أنا لا أخرج الآن من غرفتي، وطلب منا أن نذهب إليه، فذهبت إليه أنا وعادل كامل وآخرون، وكان قد تغير كثيراً، حيث كان يمضي ليله ونهاره في غرفته لا يبرحها، وكان هذه الزيارة كانت للوداع، فقد دخل بعدها في حالة الاكتئاب الشديد وحدث ما حدث.

ومن الباقي الآن من الحرافيش؟

الباقون والذين ما زالوا يتقابلون بصفة منتظمة هم أنا وتوفيق صالح وحر فوش جديد انضم إلينا له عظيم الأثر فينا جميعاً هو الدكتور يحيى الرخاوي. أما أحمد مظهر وبهجت عثمان وجميل شفيق فهم غير منتظمين، مظهر لصحته، والآخران لمشغولياتهما، وعادل كامل أصبح الآن مقيماً في أمريكا بصفة مستمرة. وهكذا صنفنا الحرافيش عليّ أنا ويحيى الرخاوي في بيت توفيق صالح وشوربة العدس التي تجيدها زوجته، والتي أعتبرها أفضل شوربة عدس في المدينة.

وبعد أن حدثني الأستاذ طويلاً عن أصدقائه منذ الطفولة المبكرة بالجمالية، ثم في الصبا بالعباسية إلى الحرافيش في الكبر، ومن بقي منهم، أسأله عن مفهومه للصدّاقَة.

فيقول: الصدّاقَة حين تصدق تكون من أنبل أنواع الحب، لأنه حب بلا هدف، بلا منفعة، بلا أغراض، سوى الاستمتاع بالصحة. وفي الصدّاقَة تشعر بروح صديقك تبادل لك الحب، لأن الصدّاقَة لا توجد إلا إذا كان هناك تقارب روحاني، كما أن الصدّاقَة لا يمكن أن تفرضها على أحد.

ثم يضحك قائلاً: قد تستطيع أن تفرض على أحد أي شيء، حتى الزواج يمكن أن تفرضه بالقوة، لكن الصدّاقَة ما لم يكن هناك تجاوب روحي، فهي لا يمكن أن توجد. وبهذا المفهوم فإن الصدّاقَة تتخطى كل الحواجز، حيث يمكن أن تقوم بين رجل وامرأة أو بين شاب وكهل، أو حتى بين أناس ينتمون إلى ثقافات وحضارات مختلفة.

وأقول إنني ألاحظ بين أصدقائك من الحرافيش تبايناً كبيراً في نظراتهم إلى الحياة ذاتها، فهم يمثلون مذاهب فكرية متنوعة، ولكل منهم مهنته، فهناك الكاتب والممثل والطبيب النفسي، إلخ.

فيقول الأستاذ: إن ما يجمعنا جميعاً هو حب الفن حتى فيمن يعمل بغيره، وحب الفن هنا هو الذي يكون الأرضية المشتركة، بينما في العباسية مثلاً كانت الجيرة والاهتمام بالسياسة هي التي توحدنا أنا وأصدقائي.

ويصمت قليلاً ليعود فيقول: لقد جاءنا أخيراً صديق قديم عاش فترة طويلة بالولايات المتحدة، وإذا به يقول لنا: كم أفتقد مثل هذه الجلسات بين الأصدقاء، لأن الحياة في الخارج ليس بها وقت للصدّاقات، وإذا اتصلت بشخص سألك على الفور ماذا تريد، وكأن كل اتصال يجب أن يكون له غرض.

ثم يُنهي الأستاذ حديثه عن الصدّاقَة قائلاً: إن الصدّاقَة هي متعة سامية، ولولا الأصدقاء في هذه المرحلة من حياتي، لما كان لحياتي الآن معنى أو مذاق.

قلت للأستاذ نجيب محفوظ مثلما للحارة أهمية خاصة في الحياة المصرية، فإن لها في حياتك وفي أعمالك الأهمية نفسها، فكيف ترى الحارة؟

قال الأستاذ: الحارة هي الوحدة التي كانت تتكون منها المدينة القديمة، أما الآن، فهناك الشوارع والميادين، وتلك أشياء حديثة وقد أصبح للحارة الآن تخصص فئوي. فليس الجميع الذين يسكنونها، والأمر لم يكن كذلك في الماضي، حين كان المجتمع المصري كله ممثلًا فيها بكل فئاته، بل حتى بجنسياته، فقد كان هناك المصري والتركي والخواجة. والحارة التي نشأت فيها هي درب إرمز، وكنت تجد فيها مثلًا ربعًا يسكنه فقراء الناس، وهو عبارة عن مبنى صغير يتكون من مجموعة غرف، كل عائلة تسكن إحداها، وأذكر أن الذين كانوا يسكنون الربع الواقع في حارتنا كانوا عسكريًا وعائلته، وأحد عمال كمبانية النور، وشحاذًا وزوجته الشحاذة، وكان هو ضرير يخرج إلى الحسين، وهي تجلس على الأرض في نفس الحي، وأمامها طبلية تضع عليها «براغيت الست». وأمام هذا الربع مباشرة كان يقع الدوار المنيف لعائلة السكري، وقد كانت من أكبر عائلات الحي، وحين كان يُفتح الدوار لأهل الحي في رمضان مثلًا أو في المواسم كنت تجد فيه حوشًا واسعًا به سلامك كبير وحرملك للسيدات، وكان كبير العائلة يخرج بعربة دوكار تجرها الخيل، ولها سائق وجرس. وكان من بين الأعيان أيضًا الحمصاني وقد رأيت في الدوكار، وكان آية في الجمال والوسامة، حتى إنهم كانوا يتغنون بجماله. ومن كبار عائلات الحارة عائلة السيبي والبنان وكانوا يبيعون البن، والمهيلمى وكانوا يتاجرون في الخيش، وعائلة تركية لم تكن على قدر كبير من الثراء، لكنها كانت ذات جاه، وهي عائلة الخربوطلي التي أصبح حفيدها بعد ذلك سكرتيرًا خاصًا لجمال عبد الناصر. وما بين الربع والدوار كان هناك البيت الذي تسكنه العائلات المتوسطة، وفي أحد هذه البيوت في حارتنا كانت هناك الست أفكار التي كانت إحدى رائدات التعليم، وكان بيتنا في نفس حجم بيت هذه المدرسة. وكانت الحارة مبلطة وتُكنس وتغسل مرتين في اليوم الواحد، على أن أجمل ما كان في الحارة هو تلك الرابطة التي كانت تربط بين جميع أهل الحارة، فكان سكان الربع مثلًا يعملون عند البنان والسكري، وسيداتهم قد يعملن عند سيدات هذه العائلات، فيطبخن لهن ويصنعن المفقة. وكانت جميع أفراح أو وفيات أهل الربع على حساب الأعيان، فهل يعرف الآن أي ساكن في شوارع المدينة من الذي يسكن إلى جانبه؟!!

وتأخذ الذكريات الأستاذ نجيب محفوظ إلى أيام روض الفرّج، فيقول: كان روض الفرّج فيما مضى هو مصيف أهل القاهرة، وكان به موسم مسرحي منتعش، فبينما كان الموسم الشتوي يقدم في مجال الكوميديا «كشكش بيه» و«علي الكسار»، كان الموسم الصيفي في روض الفرّج يقدم نفس أعمالهما بمن كانوا يقلدونهما إلى حد يصعب معه تبيين الأصل من التقليد، فكان عز الدين يقلد «كشكش» وفوزي منيب يقلد «الكسار». وكذلك كان هناك الغناء الموسيقي، وكانت من ألمع نجوم روض الفرّج في ذلك الوقت المطربة شمس قدرى، كانت كلها محلات خشبية على النيل.

وأسأل الأستاذ عن شكل هذا المصيف القاهري القديم، فيقول: كانت كلها محلات خشبية على شاطئ النيل، حيث كان يقام بين كل منها سور خشبي يفصل مساحة كل من هذه الكازينوهات، وكانت تُرص الكراسي في هذه المساحة، وكان هذا المكان يعج بالناس التي كانت تأتي إليه للتدخين في المساء، وهرّباً من حرّ النهار في الصيف.

هل تذكر كم كان ثمن التذكرة؟

كانت التذكرة بقرشين، وكانت التذكرة تعطيك الحق في مشاهدة برنامج الكازينو، بالإضافة إلى الحصول على مشروب.

ثم يضيف: وأذكر أن معظم أغاني سيد درويش سمعتها لأول مرة من عز الدين في روض الفرّج، فقد كنت أذهب في طفولتي مع والدي أو مع شقيقي الذي كانت تفصل بيني وبينه ٢٢ سنة. وحين بدأت الإذاعة بعد ذلك تذيع أغاني سيد درويش أدركت أنني كنت أعرفها كلها من روض الفرّج.

وماذا كنت تشرب أنت؟

كنت أشرب مشروب الجنزيبيل المعروف باسم «جنجر ايل». لقد كان ساحل روض الفرّج في ذلك الوقت خالياً من المنازل تماماً، فالمنطقة كانت قائمة على هذه المسارح والملاهي فقط التي كانت تقدم أنجح المسرحيات الغنائية والكوميديّة، ولكن بأرخص الأسعار. لقد كان روض الفرّج شيئاً خاصاً لا مثيل له الآن.

مع دخول الصيف وازدياد حرارة الجو يتجه الحديث مع الأستاذ إلى الإسكندرية، فيقول: إذا كانت الإسكندرية هي العاصمة الثانية، فهي كذلك بالنسبة لي، لأنها تأتي عندي بعد القاهرة مباشرة. ثم يعود بالذاكرة إلى الوراء ليقول: كانت أول زيارة لي للإسكندرية في حدود عام ١٩٢٠ مع والدي، حيث أمضيت حوالي أسبوعين في مصيف سان استيفانو الشهير. وأذكر أن حمّام سان استيفانو كان منقسمًا إلى حمّامين، أحدهما للرجال والثاني للسيدات، وكان الأطفال يدخلون حمّام السيدات، لأنه كان هادئًا ومياهه غير عميقة. وكان ثمن تذكرة الدخول حوالي قرشين، نحصل بمقتضاها على لباس الحمّام زائد قرعة حتى لا نغرق، أما حمّام الرجال فكان عنيفًا، وقد كنت في بعض الأحيان أتسلل إليه لأشاهد الموج وهو يقلب الرجال، بمن فيهم والدي، رأسًا على عقب. كانت تلك هي الزيارة الأولى، وكان عمري آنذاك حوالي التاسعة، وقد عدت من تلك الرحلة في لون الفحم، حتى إن والدتي فُجعت حين رأته لدى عودتي للقاهرة. لكنني بدأت أذهب بعد ذلك بشكل منتظم إلى الإسكندرية في الصيف في المرحلة الثانوية، أي ما بين عام ١٩٢٥ و ١٩٣٠ حيث كنت أذهب مع أصدقائي، وأذكر أن والدي كان يعطيني كلما كنت أسافر مبلغ عشرة جنيهات، كانت تكفي لكل مصروفاتي خلال الصيف من مأكّل ومسكن وفسحة. وكان عمي لا يرتاح لذلك، فكان كثيرًا ما يؤنب والدي، فيقول له: إنك تفسد الولد بهذا المبلغ الكبير الذي تعطيه له، والذي يزيد على الراتب الذي سيتقاضاه حين يستوظف بعد تخرجه. وأسأل الأستاذ: وكيف كانت الإسكندرية في ذلك الوقت؟ فيقول: لهذا حديث آخر.

ويكمل الأستاذ حديثه عن الإسكندرية في العشرينيات، فيقول: إنها كانت بلد الخواجات، حتى إن اللغة المتداولة فيها كانت في معظم الأحيان لغة أجنبية، فرنسية أو إيطالية أو يونانية أو إنجليزية، لكن جمال المدينة كان لا يوصف. وكنت من شدة نظافتها بإمكانني أن أكل الأكل من على أرضها، وذلك حتى في الشوارع الخلفية الصغيرة.

ثم يضيف: باختصار كنت تجد في الإسكندرية كل ما هو موجود في أوروبا، لكن بنصف الثمن، من دور السينما والمطاعم والمرافق، لكن ذلك كله كان للأجانب، وكنا نحن متفرجين من الخارج. فقد كان أهل الإسكندرية الحقيقيون يسكنون المناطق الشعبية، ولم يكونوا يظهرون في الرمل إلا كباعة جانلين أو كماشح أحذية، إلخ. ولقد كانت هناك دار سينما صيفية في بداية شارع سعد زغلول لم تعد موجودة الآن، كان بها جزء مخصص للمصريين مكتوب عليه بالفرنسية «pour les indigenes» أي للمواطنين الأصليين!، ولم يكن مسموحًا لنا بأن نجلس خارج هذا الجزء.

كان ذلك وقت الامتيازات الأجنبية، وقد ظل هذا الوضع سائدًا حتى معاهدة ١٩٣٦ التي ألغيت في أعقابها الامتيازات، وعندئذ أصبح الأجنبي خاضعًا لنفس القانون كالمصري، أما قبل ذلك فكان حتى رجل البوليس في رمل الإسكندرية أجنبيًا. وأذكر ذات مرة أنني كنت أتجول مع أصدقائي في شوارع الإسكندرية، وكنا نغني أغنية كانت شائعة في ذلك الوقت تقول: «الفتحة للعسكري قلع الطربوش وعمل ولي»، وإذا بأحد العساكر الأجانب يتصور أننا نهزأ به فيأخذنا إلى قسم البوليس، ومن حُسن حظنا أن الضابط كان مصريًا، فتفهم موقفنا، فأرضى العسكري وطلب منا أن نبحث لأنفسنا عن أغنية أخرى لا تخلق مشاكل. وها هي الأيام تدور، والآن في السودان مثلًا نجد أن العسكري قد خلع الطربوش بالفعل، وجعل من نفسه وليًا.

ويواصل الأستاذ حديثه عن الإسكندرية، فيقول: بعد إلغاء الامتيازات اختلف أسلوب الأجانب في الإسكندرية، فلم يعودوا يتصرفون وكأنهم أصحاب البلاد، ونحن - المصريين - مواطنون من الدرجة الثانية، لأنهم كانوا يعرفون أنهم في النهاية سيمثلون معنا أمام نفس القاضي. لذلك بدأنا نشعر بقدر أكبر من المساواة، ومع ذلك فقد ظلت جميع خصائص الحياة الأوروبية قائمة، لكنها أصبحت بعد إلغاء الامتيازات متاحة لنا أيضًا. وأذكر أنه في المطاعم والفنادق الكبرى كان الجرسونات يرتدون ما يشبه بدلة «الفراك» التي لم أكن قد رأيت من يرتديها إلا وزير الخارجية، لذلك كنت أطلق على الجرسون اسم ثروت نسبة إلى عبد الخالق باشا ثروت وزير الخارجية في ذلك الوقت، لأنك كنت تشعر وأنت تتحدث إلى أيٍّ منهم وكأنك تتحدث إلى وزير الخارجية نفسه، وكان الجرسون حين يأتي لي بالشيشة أقول لأصدقائي ثروت باشا أحضر لي الشيشة. وفي بعض الأحيان كنت أتسلل إلى محل أثنيوس الذي لم تكن ندخله من قبل، وكنت أتناول الإفطار لأنه أرخص وجبة. وفي إحدى المرات وجدت حول المائدة التي إلى جانبي عددًا من أكابر البلد، وكان من بينهم عثمان باشا محرم، وكان مشهورًا بطول العمر والصحة، وكان يتحدث إلى المستشار محمود غالب باشا الوزير الوفدي المعروف، وكان يُسر إليه بسر صحته وطول عمره، فقال له: اتعشى فول مدمس. وأخذ يشرح له كيفية عمل هذا الصنف الذي لم يكن أحد من الباشوات يتناوله ويصف له الزيت والليمون، وكأنه يصف له دواء. أما غالب باشا، فكان كثيرًا ما يسهر مع الشيخ البشري الكاتب الصحفي المعروف وابن شيخ الأزهر بكازينو الشاطبي الذي كان يستحضر كبرى الفرق الأجنبية، وكانا يخرجان في نهاية الليل مبسوطين بعض الشيء، فكنا بمجرد أن نلمحهما على باب الكازينو نبدأ في الهتاف بحياتهما وبحياة الوفد. فكان الشيخ البشري يقول لنا: موش وقته يا ابني، موش وقته.

ويُنهي الأستاذ حديثه قائلًا: باختصار أصبحت الإسكندرية في ذلك الوقت مدينة أوروبية ولكن للمصريين.

قلت للأستاذ نجيب محفوظ: ماذا تمثل الإسكندرية في كتاباتك الأدبية؟

رغم ارتباطي الوثيق بالقاهرة، فإن الإسكندرية كانت لها دائماً في نفسي مكانة خاصة، فهي تأتي عندي بعد القاهرة القديمة مباشرة. لقد كان البحر بالنسبة لنا نحن أهل القاهرة أسطورة، وكنا نسمع عنه حواديت مثيرة، فتلك المياه التي لا نهاية لها والتي لا شاطئ آخر لها تراه العين، كانت تُلهب خيالنا. ولقد قصدت الإسكندرية في البداية بغرض التصييف وصررت أذهب إليها كل سنة، إلى أن صارت الإسكندرية مدينتي الثانية. والحقيقة أن الذي حببني في الإسكندرية أيضاً كان الأصدقاء الذين عرفتهم فيها، فموطن الإنسان هو حيث يوجد له أصدقاء، خاصة إذا كانوا حميمين، وقد كان أصدقائي في الإسكندرية أعزاء عليّ، وبعضهم ما زال يسأل عني ويجيء لزيارتي حتى الآن، رغم أنني انقطعت عن الإسكندرية بسبب المرض، منذ ما يقرب من عشر سنوات.

لقد كان للإسكندرية مكان مميز في كتاباتك أيضاً!

هذا صحيح، فبعض رواياتي تقع أحداثها كلها في الإسكندرية، مثل «السمان والخريف» و«ميرamar»، بالإضافة إلى عدد كبير من القصص القصيرة.

ولماذا اخترت الإسكندرية؟

كانت شخصيات كل من هذه الروايات تقع على هامش الأحداث، لذلك فلم يكن من الممكن أن تكون في العاصمة، بل في مدينة أخرى ذات تاريخ، لكنها ليست مركز الحياة، كما هي الحال مع القاهرة.

وتحدث الأستاذ عن النيل، فقال: كما تعرف لقد وُلدت ونشأت في حي شعبي بعيداً عن المياه والحدائق، لكن أذكر أن والدتي كانت تصحبنى للفُسحة على النيل، فقد كانت مغرمة بالخضرة وبالمياه، وكانت نظرتها إلى النيل مثل نظرتها إلى الآثار بها كثير من الانبهار، ولقد عشقت النيل منذ الصغر، وما زلت أذكر كيف كنت أتدلى من سور كوبري أبو العلا، لأنظر إلى مياه النيل المتدفقة، ووالدتي ممسكة بي حتى لا أسقط.

فأقول: لقد تغلغل النيل في جميع كتاباتك، ابتداءً من المرحلة الفرعونية، وأذكر مثلاً الاحتفال الكبير بالنيل في رواية «رادوبيس» إلى المرحلة الواقعية، حيث تلقي نفيسة في «بداية ونهاية» نفسها في النيل، إلى المرحلة الفلسفية حيث «ثرثرة فوق النيل».

فيقول: هذا صحيح، فقد استمر عشقي للنيل في جميع مراحل حياتي، حتى إنني أول أن تزوجت أحضرت زوجتي من الإسكندرية وسكنا في عوامة بشارع النيل، أمضيت فيها أياماً أعتبرها من أسعد أيام حياتي، حيث كنت أفتح الشباك في الصباح، لم أكن أرى سيارات ولا شارعاً أسفلتياً، وإنما المياه الرقاقة المتدفقة لهذا النهر العظيم. ولم أكن أستنشق عادم السيارات، ولا أنفاس الجيران، وإنما رائحة الطمي الطازجة، وأشاهد على الشاطئ الآخر أشجار الكازورينا الباسقة، وأمامها عوامات أخرى كانت من بينها عوامة علي ماهر باشا رئيس الوزراء الأسبق، والفنانة الكبيرة منيرة المهديّة. وحتى بعد أن تركنا العوامة كنت دائم الجلوس أمام النيل، خاصة في شهور الصيف، حين كنت أخذ إجازة من الكتابة، كنت أمضي الساعات الطوال على شاطئ النيل، أنتظر ظهور القمر وأتأمل. وفي بداية تعرفي بالحرافيش كنا كثيراً ما نذهب إلى تلك البقعة الجميلة على شاطئ النيل، لنتسامر ونتحدث، فإلى أن لمّا محمد عفيفي وتوفيق صالح في بيتهما كانت سهراتنا دائماً «شوارعي».

ثم يُنهي حديثه قائلاً: لقد كانت أغانينا قديماً تتغنى بالنيل وجماله، فلم يكن هناك شاعر ولا مطرب لم يتغنّ بالنيل من شوقي وحافظ إبراهيم إلى محمود حسن إسماعيل، ومن عبد الوهاب إلى أم كلثوم. أما الآن فلا أسمع أحداً يتغنى به، لأنه لا أحد يعرفه بعد أن خنقناه بتلك المباني الخرسانية، وأقمنا الكازينوهات الصاخبة على ضفافه، ذلك النهر الخالد الذي عبده أجدادنا.

قال لي الأستاذ نجيب محفوظ: سررت جداً حين علمت أن اليونسكو قد اختارت القاهرة كعاصمة ثقافية إقليمية في العام القادم، وإن كان ذلك ليس بجديد على القاهرة التي كانت دائماً العاصمة الثقافية للمنطقة العربية، فبعد دمشق وبغداد، ومنذ نهضة محمد علي وما تلاها، كانت العاصمة الثقافية للعرب هي القاهرة. وقد كانت هي ملجأ المفكرين والمنقّفين، وذلك فضلاً عما امتازت به تاريخياً، حيث كانت مجمعاً لكل الحضارات الفرعونية والإغريقية والرومانية والفارسية والقبطية والإسلامية، وقد ساعد على ذلك أيضاً موقعها الواسطي عند ملتقى القارات الثلاث آسيا وأفريقيا وأوروبا.

ثم يضيف: إن اختيار القاهرة كعاصمة ثقافية هو دفعة قوية للحركة الثقافية في مصر، كما أنه في الوقت نفسه تذكرة للعالم بأن هنا ثقافة عريقة، فهي ستجدد اهتمام العالم بثقافتنا العربية، كما أنها فرصة لإنعاش حياتنا الثقافية. ويزيد من أهمية هذا الاختيار أن هناك الآن تياراً سلفياً يعمل على محو نهضتنا الثقافية التي بدأتها مصر منذ قرابة قرنين من الزمان، والتي أنعشت الوطن العربي كله، وقد بدأ تأثير هذا التيار المتطرف يظهر في مجال الثقافة واختيار القاهرة كعاصمة ثقافية يعطينا اعترافاً دولياً يساعدنا، بلا شك، في مواجهة هذه الهجمة. والثقافة في مصر من حيث المكان لها روح مصرية واضحة، ومن حيث التاريخ لها روح عربية إسلامية، ومن حيث الزمن بها عناصر عالمية، فهي كالمرآة تعكس كل أنواع الثقافات التي شخصيتها مصرية واضحة. فالثقافة هي في الحقيقة غذاء تستمدّه في جسدك وتتمثله، لكنه يتحول في النهاية إلى جزء منك، يتشكل حسب خصائصك الجسمانية ولا يغير هويتك.

ثم ينهي الأستاذ حديثه قائلاً: إن اختيار اليونسكو في مجمله لأن القاهرة كلها ثقافة أو ذكريات ثقافية، فهي المدينة التي إذا أردت أن تعطيها وصفاً فلن تقول إنها مدينة صناعية مثلاً أو تجارية، وإنما هي في المقام الأول مدينة ثقافية.

قلت: تعتبر يا أستاذ نجيب من أكثر من أثروا في تشكيل الأدب العربي في العصر الحديث، لكن كيف تأثرت أنت بالأدب العربي؟

قال: بمجرد أن وصلت إلى أول درجة من الوعي تجعلني أفهم معنى الثقافة، وقد كان ذلك في وقت مبكر جدًا من حياتي، وكان الأدب العربي الإسلامي المكون لثقافتي، فقد قرأت القرآن وقرأت السنة وقرأت أمهات كتب الأدب، مثل كتاب الأغاني، وأذكر أنه كان لديّ كتاب اسمه «المنتخب في أدب العرب» يضم مختارات من أقصى أزمنة الجاهلية وحتى العصر الحديث، مثل المنفلوطي والبارودي. وقد تأثرت جدًا بكل ذلك، وما من شك أنه كان له تأثير أساسي في إيجاد أسلوب الأدبي، وكان من آثار ذلك أنني بدأت كتابتي بالفصحى في وقت اشتد الهجوم فيه على الفصحى واشتدت الدعوة إلى العامية، فكنت من أنصار الفصحى، وكتبت بها أصعب الأشياء على الفصحى وهي الرواية الواقعية، فكيف يتكلم ابن البلد في القهوة أو الحارة باللغة الفصحى. لكنني عبرت عن ابن البلد هذا بالفصحى، وكان الكثيرون ممن يقرأون لا يعرفون إن كان ما تتحدثه شخصيات رواياتي هو الفصحى أم العامية، فقد تطورت الفصحى إلى أن أصبحت فصحى تُناسب العصر الحاضر وتناسب الرواية بشكل خاص.

ثم يؤكد: ولقد كانت قراءتي في التراث هي العامل الأول الذي ساعدني على ذلك، وقد يتصور البعض أن من يختار الرواية يكفيه أن يدرس تطور هذا الجنس الأدبي في الآداب التي تطورت فيها الرواية أكثر من الأدب العربي. فصحیح أن لدينا مثلاً حكايات العرب وألف ليلة وليلة والملاحم الشعبية، لكن تلك كلها لا تُفاس بثراء الشعر مثلاً، لذلك فإن استمساكي بالتراث كان وكأنني لن أكتب الرواية، وإنما سأكتب الشعر.

وتحدثنا عن مشكلة التزوير التي يعاني منها الكتاب المصري، وسألت الأستاذ عن الناشرين الذين لم يوفوا التزاماتهم تجاهه، فقال: أنا لا أتعامل إلا مع مكتبة السحار، والحقيقة أنني طوال سنوات لم أجد إلا الأمانة والانتظام في اتفقاتهم.

وماذا عن الناشرين الذين ليست لك اتفقات معهم؟

هؤلاء هم المزورون الذين ما إن يصدر كتاب هنا في مصر أو يُنشر مسلسل في جريدة أو مجلة حتى تصلني أخبار بأنه يُباع في لبنان والمغرب مثلاً. والحقيقة أن الشر أحياناً لا يخلو من خير، فالمزورون مثلاً هم أصحاب الفضل في انتشار أعمالهم في منطقة شمال أفريقيا، وهم الذين أوصلوني إلى أنحاء نائية من العالم تقرأ العربية، لكن ناشرينا الشرعيين لا يصلون إليها مثل إندونيسيا أو بعض دول أفريقيا، فهم كانوا في الحقيقة خسارة مادية، لكنهم كانوا أيضاً مكسباً أدبياً. وأستطيع أن أقول إن معظم كتبي إن لم تكن كلها قد زُورت، وقد كنت أعرف بها بالمصادفة، كأن يحضر لي صديق عائد من هذه البلاد نسخة لم أكن قد رأيتها من قبل لأحد أعمالهم. وأذكر أن أحد القراء كتب لي مرة يخبرني بأن إحدى رواياتي قد تم تزويرها وبيعها في لبنان، لأنه وجد في إحدى الصفحات اختلافاً عن النسخة التي طبعها السحار، بل إن كتاب تفسير القرآن لسيد قطب قد تم تزويره هو الآخر.

هل تعرف هؤلاء المزورين؟

فيقول ضاحكاً: لن تصدق ذلك، لكنني ذات مرة عقدت اتفاقاً مع أحد هؤلاء، فقد كنت جالساً في قهوة ريش، وجاءني رجل لبناني طويل مهيب وعرفني بنفسه قائلاً: أنا الذي زورت كتبك من «عبث الأقدار» إلى «ميرامار». قلت له: أهلاً وسهلاً، ماذا تريد؟ فقال: أريد أن أعقد معك اتفاقاً، لأنك بفضلك تُقرأ في جميع الدول العربية. فقلت له ولماذا تريد الاتفاق؟ فقال: بصراحة إن المزورين كثروا وأصبح التنافس بيننا شديداً وعنيفاً، لذلك أردت أن أتفق معك لكي أكون أنا مزورك الوحيد حتى أرغم باقي المزورين على سحب كتبهم من السوق، وذلك نظير حقك المادي طبعاً. وقد وجدت كلامه منطقياً، فوقعته معه الاتفاق الذي كان يريده.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: إن الثقافة بالنسبة إلى الأديب هي جزء أساسي من تكوينه المهني، ولقد كان للموسيقى مثلاً في نفسي أثر كبير يكاد يضارع تأثير التراث الأدبي نفسه. فقد عرفت الرعيل الأول من الموسيقيين الذين طوروا الموسيقى العربية على أسس الموسيقى التركية، مثل عبده الحامولي وعبد الحي حلمي والمنيلوي وصالح عبد الحي، ثم بعد ذلك العبقريّة الفريدة سيد درويش، الذي خطا بالموسيقى العربية إلى عصر جديد تمامًا، أكمله بعده محمد عبد الوهاب وأم كلثوم. كذلك فإنّ المعمار له عندي أهمية خاصة، فقد تعرفت على المعمار المصري القديم والمعمار الإسلامي منذ الصغر، واكتشفت فيهما أدق مكونات الحضارة المصرية الفرعونية والعربية الإسلامية اللتين هما شريانا الثقافة المصرية الحديثة. أما في مجال الأدب نفسه، فلم تكن قراءاتي حكرًا على التراث العربي وحده، وإنما كنت أحاول التعرف على الآداب الأجنبية أيضًا، ولقد كنت أقرأ الأدب الإنجليزي في عز كراهيتي للمحتل البريطاني، وكان البعض يظن أنه ينبغي مقاطعة الأدب الإنجليزي، لأنه سيجعلك تتحول إلى جانب الإنجليز. لكنني كنت أجد أن الأدب الإنجليزي يجعلك تنور أكثر على الاحتلال، لأنه أدب إنساني راقٍ لا يقبل الضيم ولا الظلم، ويدعو إلى الحرية والمساواة. لقد كان الأدب الإنجليزي من أسباب تمردنا على السياسة البريطانية، تمامًا مثل حُطْب سعد زغلول، وهكذا كنت تجد مثلاً أن العقاد قائد الحملة في الهجوم على الإنجليز مدرسته في النقد إنجليزية الأصل، وقد كان هو المدافع عن الأدب الأنجلوساكسوني ودخل معركة كبيرة مع طه حسين ضد الأدب اللاتيني. وكذلك فإنّ هناك أدبًا فرعونياً غاية في الجمال، وقد قرأته شعراً ونثرًا وقصصًا واستخدمته في الكثير من عمالي، مثل «عبث الأقدار» و«رادوبيس» و«كفاح طيبة» وأخيرًا «العائش في الحقيقة»، غير عشرات من قصصي القصيرة.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: كثيراً ما سبب لي ولعي بالكتابة الأدبية مشاكل لا حصر لها وأعد لي مقالب لا قبل لي بها. وأذكر مثلاً عند بداية تخرجي في الجامعة أن عملت بوزارة الأوقاف وقت أن كان عبد السلام الشاذلي وزيراً، وقد كان الشاذلي باشا رجلاً حازماً وصارماً، أراد أن يصلح من الوزارة، فأصدر أمراً بأن تغلق الوزارة أبوابها كل يوم في تمام الثامنة صباحاً، ولا يُسمح لأي من موظفيها بالدخول بعد ذلك، وكل من هو ليس موجوداً في الثامنة يُخصم اليوم من إجازته، فإذا تأخر ثمانية تطبق عليه أقصى عقوبة يملكها الوزير، وهي خصم ١٥ يوماً من مرتبه. وقد كنت أرى كبار موظفي الوزارة حين يطلبهم الوزير وهم واقفون في قلق على باب مكتبه لا يعرفون المصير الذي ينتظرهم. ولقد منع الوزير دخول الجمهور إلى الوزارة، فكان رئيس قسم التحقيقات هو الذي يقابل المواطنين على الباب ليستفسر منهم عما يريدون، فإذا كانت زيارة خاصة رُفضت وإذا كان عملاً يقوم رئيس التحقيقات بنفسه بالاتصال بالموظف المختص ويعرض عليه الموضوع، ثم يخطر المواطن بعد ذلك بالموعد الذي عليه أن يعود فيه، فإذا عاد في الموعد المحدد ولم يكن عمله قد تم يُخصم من الموظف المختص ١٥ يوماً. كذلك منع الوزير الأكل في الوزارة وقراءة الجرائد، كان البوفيه يقتصر على تقديم القهوة والشاي فقط، ومن كان يُضبط وهو يأكل ساندويتشاً أو يقرأ جريدة كان يُخصم منه ١٥ يوماً. ولقد كنت السكرتير البرلماني للشاذلي باشا وأذكر أنني أعددت له يوماً رداً على استجواب موجه إليه في البرلمان ووضعت في مظروف، وعند وصولنا إلى البرلمان سلمت الوزير المظروف في مكتبه وخرجت، وبينما أنا جالس خارج المكتب فتحت مظروفاً آخر كان معي لألقي نظرة أخيرة على قصة قصيرة كنت قد كتبتها، وكنت سأقوم بتسليمها في نفس اليوم للزيات لينشرها في مجلة «الرسالة». ولك أن تتخيل حالتي حين وجدت أن المظروف الموجود بين يدي ما زال به رد الوزير وأيقنت أن المظروف الذي تركته له به قصتي، ولم أدر بنفسي إلا وأنا أندفع إلى مكتب الشاذلي باشا قبل أن يدخل القاعة وأقوم باستبدال المظروف هذا بذلك. وكان الشاذلي باشا مشغولاً بالحديث مع أحد الوزراء، فتصورت أنه لن يلاحظ شيئاً، ومع ذلك فقد سألتني ماذا تفعل عندك؟ فقلت على الفور لا شيء ذا بال! وخرجت وأنا أتتنفس الصعداء، فلست أعرف ماذا كان يمكن أن يكون مصيري لو أنني تسببت في أن يقرأ الشاذلي باشا قصتي على أعضاء البرلمان بدلاً من رده على الاستجواب.

قلت للأستاذ نجيب محفوظ: مارست الكتابة الأدبية طوال أكثر من نصف قرن من الزمان، كما مارست أيضًا الكتابة الصحفية، ففي رأيك، ما الاختلافات بين هذين النوعين من الكتابة؟

قال: الحقيقة إن الأدب فن يصوغ مادته بطريقة هدفها جمالي في الأساس مهما عالجت من مشاكل اجتماعية أو سياسية أو خلافه، فالمشاكل هنا تدخل في إطار الفن، وتأتي بطريق غير مباشر. أما الصحافة فهي عملية كتابة عقلية لمتابعة المجتمع ومشكلاته في جميع نواحيها، وأساسها هو العقل وليس الوجدان والخبرة، وليس الموهبة الفنية. والتشابه بين الأدب والصحافة يأتي من أن كلاً منهما يعتمد على الكلمة، وإن كانت الكلمة في الصحافة هي في خدمة الفكرة. أما في الأدب فالكلمة هي غاية في ذاتها، بما تحمله من إحساس، وعلى الأديب أن يبذل جهدًا في تجميل وتحسين الكلمة، لأنها جزء من جمالية عمله الفني، في حين قد يصبح تجميل الكلمة في الخبر أو المقال الصحفي عائقًا في سبيل وصول المعنى بشكل مباشر، لأن المطلوب من الصحافة هو السهولة واليسر وسرعة الإيصال.

ويضيف الأستاذ: إن الصحفي الجيد هو الذي يمتاز بأسلوب بسيط سلس يفهمه عامة الناس، بعكس ما كانت عليه الحال في الماضي، حين كانت الصحافة في بدايتها، وكان المقال هو الأساس. لذلك كان الأدباء هم الذين يتصدرون الكتابة في الصحافة، خاصة أن هدفها كان محددًا، وهو إما تأييد الخديو مثلًا أو مهاجمة الاحتلال، فإن الكُتَّاب يتبارون في مقالاتهم الوطنية بأسلوب يعتمد على الكثير من البلاغة. أما الآن فالصحفي يكتب في كل شيء من السياسة والاقتصاد إلى الثقافة والاجتماع، ومن الأحداث اليومية إلى الاستراتيجية الدولية. لذلك فالكلمة في الصحافة أصبحت في خدمة كل ذلك وليست هدفًا في حد ذاتها، والصحفي اليوم يختلف كثيرًا عن المنفلوطي مثلًا، الذي كانت مقالاته مقطوعات أدبية تُحفظ عن ظهر قلب. ولقد كانت هذه هي الحال حتى عهد قريب، فلقد دهشت ذات مرة حين قابلت بقبوة ريش مواطنًا عراقيًا كان يحفظ عن ظهر قلب المقالات السياسية للعقاد.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: لقد غيرت الصحافة من أسلوب اللغة العربية بشكل لم يحدث من قبل. طبعًا المحافظون يقولون إن الصحافة أفسدت اللغة، لكنني لست مع هذا الرأي، فبعد البلاغة والجرس والفخامة الزائدة على الحدود أصبحت اللغة سلسلة ومركزة.

فقلت: لقد فعلت أنت يا أستاذ نجيب مثل ذلك في اللغة الأدبية في رواياتك، حيث نجد فارقًا كبيرًا بين أسلوبك الأدبي وأسلوب من كانوا قبلك!

فرد: أعتقد أن لغة الصحافة كان لها دخل في ذلك، لأنها اللغة التي يقرأها الناس كل صباح، وقد أردت أن أقرب منها قدر الإمكان، لأن اللغة يجب أن تسير العصر، لكن دون أن أترك اللغة الفصحى إلى اللغة العامية، كما كان يفعل البعض، فلقد كنت دائمًا من أنصار الفصحى.

ثم يضيف: في بداية عهد الصحافة، كانت صحافة مقالات وليست صحافة خبر، وكان كبار كتاب الصحف هم الأدباء مثل: العقاد وتوفيق دياب وأحمد لطفي السيد. فالأدب كان هو المدرسة الأولى للصحافة منذ أيام المنفلوطي وسعد زغلول اللذين كان لكل منهما أسلوب أدبي أخذ تتوقف عند عباراته وكأنك تقرأ مقطوعة أدبية، والسبب في ذلك أنه لم يكن هناك صحفيون بالمعنى العصري، ولم تكن الصحافة تجري وراء الأخبار بقدر ما كانت طرفًا في القضية الوطنية. لذلك كان المقال هو أساس الجريدة، وليس الخبر، وكنا نشترى الجريدة لنقرأ أحمد حافظ عوض والعقاد والمازني باعتبارنا وفديين، وكانت الجبهة الأخرى من الأحرار الدستوريين تقرأ لمحمد حسين هيكل وطه حسين. لكن التطور الحديث جعل الصحافة جسمًا مستقلًا عن الأدب ولغته، فلم يعد هناك مجال للقول: «أنت تنقُّ وأنا منقُّ فكيف نتفق؟». أي أنت شكاء وأنا بكاء فكيف نتفق؟ مثل هذه المقولات الجاهلية كانت تملأ الصحافة في البداية. ولقد كان محمد التابعي يمثل النقلة الحقيقية حين أصدر صحافة جديدة تتحدث اللغة التي يتحدثها الناس في الشوارع والقهاوي، ولا شأن لها بخناقات البحتري أو أبو تمام. وكان أسلوب التابعي هو المدرسة التي خرج منها مصطفى وعلي أمين وإحسان عبد القدوس ومحمد حسنين هيكل.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: دخلت الصحافة كأديب وليس كصحفي، فحين طُلبت للعمل بـ«الأهرام» طُلبت ككاتب قصة، وظللت لسنوات طويلة لا أنشر في الصحافة إلا قصصي القصيرة، أو رواياتي المسلسلة، لذلك لم أفكر مثلاً في الانضمام إلى نقابة الصحفيين، لأنني لم أكن أستطيع أن أدعي أنني صحفي. أما بداية كتاباتي للمقالات الصحفية فكانت في سنوات السبعينيات حين عُين المرحوم يوسف السباعي رئيساً لتحرير «الأهرام»، فقد سعدت في يوم إلى الدور السادس الذي كان به توفيق الحكيم وصلاح طاهر ود. حسين فوزي ويوسف جوهر وزكي نجيب محمود ود. لويس عوض وأنا، وقال: يجب الاستفادة بوجودكم جميعاً في «الأهرام»، فليكتب كل منكم مقالاً كاليوميات في أحد أيام الأسبوع، وكنت أنا متخصصاً في عملي ككاتب روائي، فطلبت منه إعفائي، لكنه ألح كثيراً، وصممت أنا على رأيي. وفي اليوم التالي مباشرة جاء إلينا بجدول مكتوب محدد فيه اليوم الذي سينشر فيه مقال كل كاتب، وكان هناك مكان شاغر فقال لي: هل يعقل أن يكون هناك يوم يكتب فيه صلاح طاهر وهو فنان تشكيلي وأنت صاحب قلم لا تكتب؟ قلت له: إنني على استعداد أن أنشر القصة كلما اكتملت عندي إحداها. لكنه قال: ستكتب مقالك يوم الاثنين، ولا أريد مناقشة. وأسقط في يدي ولم أدر ماذا أفعل، ولقد تحدثت مع ثروت أباطة، وقلت له: إنني لم أكتب مقالاً في حياتي، فماذا أفعل؟ قال: لا عليك إنها مسألة هينة لا تقارن بتأليف القصص، وقد كنا نفعلها منذ أيام المدرسة، وبدأت بالفعل أكتب في الأمور الاجتماعية والسياسية، لكن لولعي بالسياسة جذبتني الموضوعات السياسية أكثر من غيرها. لكن الغريب في الموضوع هو أن يوسف السباعي الذي أرغمني على الكتابة هو الذي أوقفني عنها بعد ذلك بحوالي عام، حين حدثت انتفاضة ١٨ و ١٩ يناير ١٩٧٧، وبدأ يسمع انتقادات على كتاباتي من الرئيس السادات، فصارحني قائلاً: إن مقالاتك أصبحت تسبب لي مشاكل. ولم أعد للكتابة الصحفية إلا بعد ذلك بسنوات، حين تقرر إنشاء باب وجهة نظر للملاحظات التي قد تتراءى لصحفيي «الأهرام»، فدعاني الزميل عباس مبروك، الذي كان مشرفاً على هذا الباب، لأن أكتب فيه يوماً في الأسبوع فاخترت الخميس. وظللت أكتب مقالي لمدة تقارب عشرين عاماً، إلى أن وقع لي الحادث، فتحولت المقالات إلى حوارات بفضلك. فقلت: بل بفضلك أنت يا أستاذ نجيب.

حين علمت برحيل كاتب الصحافة الكبير أحمد بهاء الدين لم أشأ أن أخبر أستاذنا نجيب محفوظ لمعرفتي بمقدار محبته له، وما يمكن أن يتركه مثل هذا الخبر في نفس الأستاذ من ألم عظيم، وحين قابلته بعد ذلك سألني الأستاذ مستنكرًا: «ألم تكن تعرف خبر رحيل بهاء حين قابلتني منذ أيام؟». فقلت: كنت أعرف لكني لما أستطع أن أخبرك. فسهم وبدت عليه علامات التأثر، وكأنه علم الخبر لتوه ولم يتكلم. فقطعت عليه صمته قائلاً: متى كانت أول مرة قابلت فيها الأستاذ أحمد بهاء الدين؟ فاستمر صمته قليلاً ثم قال: كان ذلك في الخمسينيات، وكنا في لقاء بنادي القصة، وجاءني شاب صغير السن يسلم عليّ وعرفني بنفسه قائلاً: أنا أحمد بهاء الدين. ودُهشت لأنني كنت أقرأ له بانتظام في «روز اليوسف» ولم أكن أتصور قط أنه صغير إلى هذه الدرجة، فقد كنت معجباً برجاحة عقله وبأسلوبه التحليلي العميق والناضج، فتصورت أنه كبير السن.

ثم ابتسم الأستاذ وهو يقول: وهناك معلومة قد لا يعرفها الكثيرون، وهي أن بهاء كان من الحرافيش، وكان يسهر معنا في حديقة الكاتب محمد عفيفي أو بيت المخرج توفيق صالح طوال فترة الستينيات، وكان دائماً وديعاً وهادئاً، وقد تعجبت أنني طوال تلك الفترة لم أره غاضباً أبداً، كان يتفق ويختلف كثيراً في الحديث، لكنه لم يكن يغضب أو يثور، ولم يتركنا إلا حين سافر إلى الكويت ليرأس تحرير مجلة «العربي». ولقد كانت لبهاء - رحمه الله - اهتمامات أدبية وفنية عميقة، فكان حين يجلس معنا نشعر أنه أحد الأدباء، كما كان يكتب في الأدب بنفس تعمقه في السياسة، والحقيقة أنه من أفضل ما كُتب عن «الثلاثية» كان ما كتبه أحمد بهاء الدين، فقد كانت ثقافته العامة لا تقل عن ثقافته السياسية. ولقد كان بهاء هو أول من كتب عن الأدب الإسرائيلي، وكان ذلك في خضم معركتنا معها، وقبل سنوات من اتفاقيات السلام، وأذكر أنني تحدثت إليه حول هذا الموضوع. وقلت له: أنت تريد أن تعرفنا بأعدائنا، لكنك عن طريق الأدب اخترت مدخلاً إنسانياً، مما قد يتعارض مع حالة العداء القائمة بيننا، وإنني لأخشى على الشباب من ذلك. لكنه كان مقتنعاً أننا يجب أن نعرف الإسرائيليين كما هم على حقيقتهم، وليس من خلال عدائنا لهم. فقلت له: لقد قرأتك وأنا مستمتع وخائف.

متى كانت آخر مرة رأيته؟

كان ذلك في بداية مرضه حين زرته أنا وتوفيق صالح وقد رحب بنا ترحيباً كبيراً وتأثر جداً لزيارتنا، وظللنا نتذكر جلسات الحرافيش القديمة، ونبكي، فكانت الجلسة نصفها بكاء، ثم مر وقت وقلت لتوفيق صالح: ألم يحن الوقت لزيارة بهاء ثانية؟ فقال لي: إن الزيارة لم تعد تجدي.

ذهبت إلى الأستاذ نجيب محفوظ بطلب من بعض القراء للاستفسار عن الحالة الصحية للكاتب الكبير، وطلبت منه أن يحدث القراء بنفسه هذا الأسبوع عن ذلك، فقال: إن تلك مسألة شخصية، وقد لا يكون من الجائز أن تُشغل بها القراء.

فأطلعته على الخطابات التي وصلتني، وكان من بينها خطاب من القارئ الدكتور علي السيد عبد الفتاح، الذي قال فيه: ما لنا نحن بكل هذه الموضوعات العامة التي تحدث فيها كاتبنا الكبير، والتي لا تختلف عما يكتب فيه سائر كُتَّاب الصحف والمجلات؟! إننا بحاجة أولاً لأن نطمئن على أستاذنا العظيم، ثم بعد ذلك تحدثوا فيما تريدون: كيف حال ذراعه اليمنى؟ هل أصبح الآن قادرًا على استخدامها؟ كيف حال عينيه؟ وكيف حال قدرته على السمع؟ باختصار كيف حالته الصحية والنفسية بشكل عام؟

قال الأستاذ: إن صحتي العامة لا بأس بها، أما الصحة النفسية فهي ممتازة، وذلك بفضل الدكتور يحيى الرخاوي، الذي يضعني في شبه علاج نفسي بعد الظهر، فهو يجمع لي الأصدقاء كل مرة في مكان مختلف، وقد حال ذلك دون أن أعزل عن الحياة بعد الحادث، أو أن أصاب بالاكْتئاب مثلاً، لذلك فإني أعتقد أن علاج الدكتور الرخاوي لا يقل في خطورته عن أجرى لي العملية الجراحية بعد الحادث. أما يدي اليمنى فإنها تتحسن بالتدريج بفضل العلاج الطبيعي، وبعد أن كنت لا أستطيع استخدامها على الإطلاق أصبحت الآن قادرًا حين أكون وحدي على أن أتناول طعامي دون مساعدة من أحد، كما أنني بدأت أكتب بها بشكل أفضل يسمح بقراءة ما أكتب، لأن الكتابة إحدى وسائل التدريب على استخدام يدي.

لقد كنت دائماً تهوى المشي، فماذا تفعل الآن وأنت لا تستطيع المشي في الشارع؟
إني أتمشى هنا في البيت لمدة نصف ساعة على الأقل قبل أن أخلد إلى النوم.

قلت للأستاذ: لقد وصل فيضان النيل خلف السد العالي إلى أعلى معدلاته منذ بناء السد، فما تقييمك الشخصي للسد العالي؟

قال: السد العالي بلا شك هو من أعظم المشاريع الهندسية في القرن العشرين، وهو أعظم مشروع هندسي أُقيم في التاريخ المصري كله، ولقد أعطى فوائده أكثر من مرة حين حمى مصر من الجفاف الذي عمّ دولاً أخرى في أفريقيا، كما حماها أيضاً من السيول التي جرفت مدناً بأكملها. لكنني أريد أن أنتهز هذه الفرصة لكي أذكر بأن السد العالي ما زال مشروعاً غير مكتمل، لقد توقفنا عند حد معين يسمح لنا بجني ثمار المشروع من تخزين للمياه والاستفادة من الطاقة الكهربائية وخلافه بمجرد أن أتمنا بناء جسم السد عام ١٩٧١، لكن المشاريع المكتملة لم يتم إنجازها، وهي في رأيي غاية في الأهمية. لقد استحوذ السد العالي على اهتمامي حين ثار حوله هجوم في السبعينيات فأرسلت إلى المجالس القومية المتخصصة أطلب بعض الدراسات، فتفضل الدكتور عبد القادر حاتم رئيس المجالس في ذلك الوقت، فأرسل لي الملف الكامل للسد. ولقد وجدت من خلال قراءاتي للملف أن جميع أسباب الهجوم على السد، وبصرف النظر عن دوافعها السياسية، كان معمولاً حسابها بمشاريع أخرى مكتملة، لكننا لم ننفذها. ومن ذلك نقصان درجة خصوبة أراضي الدلتا وزيادة النحر، وتآكل الساحل البحري، فلماذا لا تتم هذه المشاريع فنتفادى هذه المخاطر، قبل أن تتفاقم ولا يُجدي معها الحل، بذلك يكون السد كله فوائد ولا تكون له آثار جانبية.

قلت للأستاذ نجيب محفوظ: وصلني خطاب من لواء شرطة فاروق محمد وهبة يقول فيه: إلى جانب أنني من عشاق أدب وشخص عملاق الرواية العربية نجيب محفوظ، فأنا أيضاً من عشاق يوسف وهبي عميد المسرح العربي، ولعل ما يؤلمني حقاً هو أن هذا الرائد العظيم لم يأخذ حقه في التكريم بعد وفاته. إنني كلي أمل ورجاء أن يكون يوسف وهبي هو موضوع حواركم القادم مع أديبنا العظيم، لا سيما أن موعد الذكرى الرابعة عشرة لرحيله يحل في أكتوبر الحالي، ولعل هذا الحوار يكون جديلة زهر توضع على قبر المسرحي الراحل لتبدد بضوئها الباهر ظلام الجحود والنكران!

فقال محفوظ: إن يوسف وهبي هو أحد اثنين وهبا حياتيهما للمسرح المصري في وقت كان الاشتغال فيه بالمسرح ماساً بصاحبه. وقد كان يوسف وهبي ابن باشا ونال إرثاً كبيراً، لكن كل ما ورثه أنفقه على المسرح، وقد كان المسرح موجوداً من قبله، لكن يوسف وهبي أنشأ مدرسة جديدة في ذلك الوقت. فقد تعلم في إيطاليا ونقل عنها مدرسة الإلقاء البلاغي على المسرح، التي لاقت استجابة كبيرة من الجمهور المصري، لأنها تقترب من فن الخطابة الذي تربينا عليه وتأثرنا به، ولقد سببت هذه المدرسة متاعب ليوسف وهبي مع بعض النقاد، من بينهم محمد التابعي الذي تخصص في الهجوم عليه، وعلى طريقته في الإلقاء والتمثيل. وقد لا يذكر البعض أن بطلا مسرحيات يوسف وهبي كانت في البداية هي فاطمة رشدي، ثم استبدل بها أمينة رزق، فأنشأت فاطمة رشدي مسرحها الخاص، وأصبح التنافس بينها وبين مسرح يوسف وهبي على أشده، إلى درجة أنهما كانا في بعض الأحيان يقدمان المسرحية نفسها، وكان ذلك في صالح الجمهور بالطبع. فقد كنا نحضر المسرحية عند يوسف وهبي، ثم نحضرها في اليوم التالي مثلاً عند فاطمة رشدي، ونقارن بين كل منهما، وأذكر من ذلك مثلاً مسرحيات شكسبير مثل «هاملت» التي قامت فيها فاطمة رشدي بدور هاملت نفسه أو «أنطونيو وكليوباترا» التي قامت فيها بدور أنطونيو، بالإضافة إلى مسرحيات أخرى كثيرة، فأين نحن الآن من ذلك الثراء المسرحي الذي يقدم لنا في نفس الموسم عرضين لرائعة من روائع المسرح العالمي بواسطة أكبر ممثلي العصر؟ إن التنافس الوحيد الذي أراه الآن هو ذلك الذي بين الأهلي والزمالك.

ويقول الأستاذ نجيب محفوظ: لقد استطاع يوسف وهبي في مسرحه أن يجمع كل طبقات الشعب، من البسطاء الذين كانوا يجلسون أعلى التياترو، إلى الوزراء ووكلاء الوزارات من البكوات والباشوات، وكان يستطيع أن يجمعهم جميعاً في «صقفة» واحدة بأدائه العظيم في «كرسي الاعتراف» مثلاً أو في «راسبوتين». على أن من أعظم إنجازات يوسف وهبي في رأيي هو مشروعه الثقافي الكبير، الذي لم يتكرر في مصر حتى هذه اللحظة التي أكلمك فيها، وذلك هو مدينة الفنون التي أنشأها باسم «مدينة رمسيس» والتي كانت تقع مكان ميدان سفنكس الحالي بالمهندسين. فقد كانت مدينة رمسيس مدينة فنية متكاملة بها كل ما يخطر على بالك من العروض المسرحية إلى السينمات الصيفية إلى سرادقات الموسيقى والطرب إلى «اللونابارك» إلى المطاعم والقهاوي. وكانت المدينة لا تقدم إلا أفضل العروض، ففي المسرح كانت مسرحيات يوسف وهبي الكوميديّة، وهنا أريد أن أؤكد أن يوسف وهبي كان ممثلاً كوميدياً بارعاً إلى درجة أن بعض الناس كانوا يعتبرونه ممثلاً كوميدياً في الأساس، وكانوا يقولون إنه أكبر منافس لنجيب الريحاني. وفي السينما كانت تقدم أحدث الأفلام المصرية والأجنبية، وفي الطرب كانت هناك منيرة المهدية ومحمد العربي، كما كانت هناك أفضل المطاعم بثتى أنواعها من الحاتي إلى الساندويتشات الخفيفة، بالإضافة إلى المقاهي التي لا تقدم إلا المشروبات. وكانت تكاليف المدينة باهظة، لكن رسم الدخول لم يكن يزيد على قرش صاغ أو «ثلاثة تعريفة» بالإضافة إلى تذاكر العروض التي كانت في حدود قرشين، وكانت تلك تُعد أجوراً رمزية، حتى في ذلك الوقت رغم التنوع والجمال وال فخامة التي كانت تميز المكان. ولقد استمرت مدينة رمسيس لسنوات طويلة، وكنت أذهب إليها كل صيف، يوماً بعد يوم، طوال فترة دراستي بالجامعة من سنة ٣٠ إلى ٣٤ ثم بعد تخرجي لسنة أو اثنتين أيضاً. وكانت في ذلك الوقت هي مصيف أهل القاهرة ومُفرج الكرب عنهم، فما أحوجنا اليوم إلى مثل هذا المشروع لإحياء الثقافة والفنون وانتشالها من كبوتها الحالية.

ويُنهي الأستاذ نجيب محفوظ حديثه عن عميد المسرح العربي يوسف وهبي قائلاً: ومن الأشياء التي يجب أن نذكرها أيضاً ليوسف وهبي أنه أعطى للمسرح احترامه في وقت كانت فيه الفنون لا تتسم بالانضباط، ولا تلقى كثيراً من الاحترام بالمجتمع، لكن يوسف وهبي استطاع أن يجعل المسرح محرّاباً مقدساً للثقافة بما أضفاه عليه من التزام وتقدير. فعلى سبيل المثال إذا أُعلن عن رفع الستار في الساعة التاسعة مثلاً، فلم يكن من الممكن أن يدخل أحد المسرح بعد هذا الوقت مهما علا شأنه، وفي إحدى المرات تأخر بعض الحضور، فكانوا يجلسون في الخارج إلى أن تجيء الاستراحة، فيدخلون الصالة. انظر اليوم إلى الجمهور الذي يظل يدخل الصالة طوال فترة تقديم العرض، ففي أي وقت يحضر الجمهور، له الحق في أن يزج بقية المتفرجين ليصل إلى أماكنه. هذا لم يكن ممكناً على الإطلاق في مسرح يوسف وهبي قبل أكثر من نصف قرن من الزمان.

ويسرح الأستاذ قليلاً ثم يقول: لقد كنت ذات مرة بالمسرح، وكان بعض الشباب يقزقرون اللب أثناء أحد العروض، وإذا بيوسف وهبي يُوقف العرض ويتوجه إليهم بالكلام قائلاً: إن من يريد أن «يقزقز» أو يأكل أو يشرب فإن مكان ذلك هو البوفيه، وليس صالة العرض، فالمسرح مدرسة، وفي المدرسة لا يُسمح بالأكل والشرب في الفصل. فهل تصدق أن الجمهور صفق له على هذه اللفتة تماماً كما كان يصفق له على تمثيله. حاول اليوم إن استطعت أن تقول ذلك للجمهور، إنني أسمع أنهم في بعض دور المسرح يتناولون الكباب والكفتة ويشربون العصير أثناء العرض. أيضاً لم نعرف في مسرح يوسف وهبي مسألة الخروج على النص هذه، لقد كنا نحضر العرض مرة ومرتين ولا نجد أن ممثلاً قد أضاف فاصلاً من النكات أو القافية. المسرح الوحيد الذي كان به شيء من الارتجال كان مسرح علي الكسار، لأن ذلك مقبول في الكوميديا التي لا يُستند فيها إلى نص أدبي، ومع ذلك فقد كانت الإضافة لا تتعدى كلمة هنا أو هناك، أما في مسرح يوسف وهبي، فهذا لم يحدث قط ولا حتى في مسرحياته الكوميدية. لقد كان مسرح رمسيس محرّاباً فنياً ذا جلال، ابتداءً مما يُقدم على خشبته، وحتى سلوكيات الجمهور في الصالة.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: الحقيقة ودون مبالغة فإن رمضان بالنسبة لي أجمل الشهور، وبه أجمل الذكريات، وبداية وعيي برمضان تعود إلى سن السابعة، حين بدأت الصيام لأول مرة وأتذكر أنني كنت في هذه السن المبكرة أصعد إلى سطح بيتنا وأظل أنظر إلى مئذنة جامع الحسين، في انتظار أن أسمع صوت المؤذن معلناً حلول المغرب. وفي طفولتي هذه كان رمضان هو الشهر الوحيد الذي يُسمح لي فيه بأن أخرج في الليل وأن ألهو بالفوانيس مع أصدقائي ونغني «وحوي يا وحوي». أما في الكبر فكان اليوم مختلفاً، حيث كنت أمضي وقتاً طويلاً من نهاري في القراءة، سواء كانت القراءة الدينية أو الأدبية، وكنت ألاحظ أن تذوقني للقراءة خلال أيام رمضان كان أعمق بكثير من بقية شهور السنة. هل يخلق الصيام في الإنسان نوعاً من الشفافية يجعله يصل إلى أعماق قد لا يدركها وبطنه ممتلئ، أم أنه يعطي دفعة روحية للصائم تظهر علامتها في هذا التذوق المرهف؟ على أن ما أفتقده الآن في رمضان هو جو الحسين بعد الإفطار، فقد كانت جميع البيوت الكبيرة تقدم سهرات مديح نبوي تُقرأ فيها التواشيح النبوية بأصوات أفضل منشدي العصر، مثل علي محمود الذي كان أسطورة آنذاك. وكانت بيوت أخرى تفتح «المنذرة» للجميع، ابتداءً من المغرب حين كان يقدم الإفطار، ثم تبدأ تلاوة القرآن إلى وقت السحور، وكان القراء يتبارون ما بين بيت وبيت، فتنصاعد أصواتهم في عزف متناغم لا تتنافر فيه، بعكس تلك الميكروفونات القبيحة التي نعرفها اليوم والتي تتداخل أصواتها بطريقة ميكانيكية لا تتناغم فيها ولا انسجام. ولقد كنت خلال شهر رمضان أمضي الليل كله في الحسين، إلى أن يحل موعد السحور، فأتسحر مع أصدقائي في قهوة الفيشاوي ثم أعود إلى البيت. وحين انتقلنا إلى العباسية كنت أواظب على هذا البرنامج، وأعود في الفجر مع أصدقائي عن طريق الجبل، حيث أقيم الآن في صلاح سالم، وفي ذلك الوقت لم يكن به بيت واحد قائم. وهكذا كان رمضان دائماً بالنسبة لي عبارة عن قراءة وتذوق وسمع ومسامرة في حي يموج بالحياة وبأنشطة لا توجد إلا في رمضان.

قلت للأستاذ نجيب محفوظ: إن رمضان هو شهر صوم وعبادة وتقوى وتكشف، لكنه في الوقت نفسه هو شهر الولائم والمهرجانات والحفلات والفوازير، فما رمضان بالنسبة لك؟ قال: إن ما وصفته ليس هو رمضان بقدر ما هو طبيعة الإنسان المصري الذي يقول «ساعة لقلبك وساعة لربك». إن رمضان هو شهر العبادة والتأمل، وإني أذكر أن الصوم كان يُضفي على نفسي صفاءً غريباً حتى إني حين كنت أقرأ أثناء صومي أيًا كانت قراءاتي صوفية دينية أو أدبية فلسفية، كنت أذوقها تذوقاً خاصاً، فأشعر بمعانيها تتغلغل في نفسي للأعماق، لذلك فقد كان رمضان بالنسبة لي هو شهر الوجدان.

متى بدأت الصيام يا أستاذ نجيب؟

في سن السابعة أو ربما أقل قليلاً، وكان الصيام شديداً جداً عليّ حتى إني كنت أصعد إلى سطح البيت وأظن أنظر إلى مئذنة الحسين، في انتظار أن أرى المؤذن وهو يصعد ليؤذن لصلاة المغرب، ولكن مع قسوة الصيام عليّ في هذه السن المبكرة، فإنه كان متعة روحية كبيرة جداً. وللأسف، فإنني حين اضطررت لأن أبتعد عنه بأمر الأطباء، وبسبب الأمراض التي تحتاج إلى مداومة تناول الأدوية، وبسبب السن فقد خسرت بهجة كبيرة جداً.

ثم يضيف: ومن أجل ما أذكره عن رمضان في تلك السنوات الغابرة، أننا كنا نمر على بيوت العائلات الكبيرة في الحي، لأنها كانت تقدم ما كان يُعرف باسم «التوليد النبوي»، وهو عبارة عن تلاوة القصائد الصوفية التي تمتدح الرسول، فنستمع إليها من بيت إلى بيت. وكان الشيخ علي محمود من أجمل الأصوات التي كنت أعشقها، وكل بيت كان له منشه، كما كان له مقرئه، كان ذلك في درب إرمز قبل أن ننتقل إلى العباسية. فقد كانت كل عائلة تفتح أبواب المنذرة لكل من يريد أن يدخل ليستمع إلى تلاوة القرآن كما يريد، فلم يكن هناك راديو ولا إذاعة في ذلك الوقت. وأجمل لحظة كانت حين يأتي وقت أذان المغرب، فقد كان يقف كل من هؤلاء المقرئين أمام الدار ليؤذن في انسجام وانتظام مع باقي المقرئين، وكأن كلاً منهم يرد على الآخر في سيمفونية متناغمة.

قلت: كم يبدو هذا مغايراً لما نراه الآن من مكبرات الصوت المزعجة التي لا يهدف كل منها إلا للتغطية على صوت مكبر الصوت الآخر، في ضوضاء لا تشبه السيمفونية في شيء، فصمت الأستاذ ولم يرد.

وأسأل الأستاذ نجيب محفوظ عن مأكولاته المفضلة في رمضان، فيقول على الفور: «ودي عايزة كلام؟» القول طبعًا.

ثم يضيف: الحقيقة أن الأكل في رمضان منذ الصغر كان مشكلة بالنسبة لي، ومشكلته الأساسية كانت الفول، فأنا من عشاق الفول، وحتى يومنا هذا وعشائي يوميًا هو المدمس. وفي رمضان كان الفول يقدّم بثتى الطرق التي يتفننون فيها، لذلك لم أكن ساعة الإفطار أرغب في أكل شيء آخر غيره، حتى إن والدي أصدر أمرًا عسكريًا بأن يكون الفول هو الطبق الأخير في الإفطار حتى أضطر إلى تناول المأكولات الأخرى أيضًا. وكنت بالفعل أتناول أشياء أخرى في البداية، لكنني أتعمد أن أترك مكانًا كافيًا للفول الذي لم تكن عيني ترتفع من عليه طوال تناولي للأطباق الأخرى. والفول ليس خاصًا بـرمضان فقط، فقد كنت أتأوله طوال أيام السنة، لكن فول رمضان شيء آخر، فهو ليس مجرد فول، وإنما فول رمضان. كذلك من المأكولات التي كانت محببة لي في شهر رمضان الحلويات مثل القطايف والبقلاوة والبسبوسة، خاصة الكنافة التي كانت لها دائمًا «شنة ورنة» في رمضان، وقد كنا نصنعها بالمنزل. وقد تعجب إذا قلت لك إنني منذ أصبت بمرض السكر عام ١٩٦٠ لم أتناول أي سكريات حتى يومنا هذا، رغم أنني كنت أعشقها بكل أنواعها، سواء الحلويات الشرقية أو الأفرنجية مثل الجاتوه والتورته وخلافه.

وأسأل: ألا تتناول «تورته» عيد ميلادك أو عيد ميلاد أيّ من أفراد الأسرة أو الأصدقاء؟ فيقول: أبدًا، ودائمًا ما يقولون لي في أعياد الميلاد تناول ولو قطعة، لكنني لا أفعل ذلك، تنفيذًا لتعليمات الأطباء سامحهم الله.

ويواصل الأستاذ حديثه عن رمضان، فيقول: وعلى الجانب الآخر من التعبد والتأمل والشفافية التي كنت أشعر بها في رمضان، كان هناك بالطبع الجانب الترفيهي، فما إن ننتهي من الإفطار حتى يبدأ السهر الذي كان متميزًا ويختلف كثيرًا عن سهرات بقية أيام السنة. فهناك دائمًا بهجة خاصة، بل طعم خاص لسهرات رمضان قل أن يوجد في السهرات الأخرى، وإن وُجد فليس طوال أيام الشهر، مثلما هي الحال في رمضان.

ثم يقول: كانت ليالي رمضان منذ الطفولة تفوق في متعتها وجمالها جميع الليالي حتى الأعياد، لقد كانت ليالي رمضان أمتع عندي من العيد الصغير أو العيد الكبير. فأول حرية ذقتها كانت في رمضان، حين أصبح يُسمح لي لأول مرة بأن أخرج مع الأصدقاء، وأن أسهر معهم في الحي، فنلعب ونلهو بعد أن كنا جميعًا مكبلين طوال أيام السنة حتى إننا إذا لعبنا تحت البيت كانوا يراقبوننا من الشبابيك. أما في رمضان، فقد أعطونا الحرية كاملة، فكنا ننزل بالفوانيس، فنلف وندور في ميدان بيت القاضي والحسين، ونسهر إلى حد لم يكن مسموحًا به من قبل. أما في سني الكبيرة فقد كانت السهرة بقهوة الفيشاوي مع الأصدقاء لا تدانيها أي متعة أخرى، لقد كنا نذهب بعد الإفطار ونظل بالفيشاوي حتى السحور لنتناول سحورنا هناك ونعود مشيًا على الأقدام إلى العباسية، حيث كنا نسكن عن طريق الجبل. فكان ذلك يحضرنى نفسيًا للصيام والتأمل في اليوم التالي، فلم يكن هناك في هذا الطريق إلا المقابر والخلاء. في ذلك الوقت لم يكن هناك تلفزيون ولا فوازير ولا مسلسلات وكانت متعتنا في قهوة الفيشاوي، حيث كان البعض يلقي آخر النكات والبعض الآخر يدخلون لبعضهم قافية، وكل ذلك في جو من الود والصدقة والبهجة والسرور يستمر حتى الصباح.

قلت للأستاذ نجيب محفوظ: كيف كانت عاداتك الشخصية في رمضان فيما يتعلق بالقراءة والكتابة؟ فقال: إنني منذ الصغر لم أكن أذكر على الإطلاق خلال شهر رمضان، وإن كان رمضان هو أكثر شهر كنت أقرأ فيه، لكنها كانت دائماً قراءات خارجية. لقد كان هذا هو شهر القراءات الحرة التي كنت أستمتع بها خلال ساعات الصيام أكثر مما كنت أستمتع بالقراءة في أي فترة أخرى من السنة، ذلك أنني أثناء الصيام كنت أشعر بقدر كبير من الشفافية التي كنت أدخرها لقراءاتي الحرة، وليس المواد الدراسية. وقد استمر معي هذا التقليد في الكبر، وبعد انتهاء سنوات الدراسة، فحين بدأت أكتب كنت دائماً أمتنع عن الكتابة في رمضان. وظلت عادتي أن أتوقف تماماً في الصيف وفي رمضان، وحين كان رمضان يأتي في الصيف كان ذلك يعطيني شهراً إضافياً في السنة أكتب فيه، أما في الشتاء فكانت أضحى بالكتابة في هذا الشهر وأجعله شهراً للمتعة الروحية الخالصة في أشمل معانيها. ولقد قرأت كتباً كثيرة خلال شهر رمضان، ففي سنة من السنين - وكنت ما زلت طالباً - قرأت القرآن الكريم بالكامل وكانت قراءته خاصة جداً غير قراءتي له في الأيام العادية. وفي سنة أخرى قرأت أحاديث ابن هشام، كما أذكر كتاب «المنتخب في أدب العرب» الذي وضعه د. طه حسين والشيخ السكندري وعلي الجارم، وكان يضم نماذج من أشعار ونثر العرب من الجاهلية إلى العصر الحديث. كما قرأت «تاريخ الأدب العربي» للزيات، هذا بالإضافة إلى كتاب كنت أعتز به كثيراً يحوي نبذة عن تاريخ كل من شيوخ الصوفية، ومختارات من كتاباتهم. كما أذكر أنني في بداية سنوات الجامعة قرأت مسرحيات برنارد شو وأشعار ت. س. إليوت، فضلاً عن أنني كنت أتابع الإصدارات الجديدة لكل من العقاد وطه حسين والمازني مثل: «إسلاميات العقاد» التي قرأتها كلها في رمضان، و«على هامش السيرة» لطه حسين، لقد كنت دائماً أنتقي ما يتفق مع روح التأمل الديني والنظرة الفلسفية. وكان وقت القراءة بالنسبة لي يومياً هو بعد عودتي ظهراً من العمل أو الدراسة وحتى موعد الإفطار.

وأسأل الأستاذ نجيب محفوظ عن العيد في حياته، فيقول: العيد كان في الطفولة والصبأ، حين كانت احتفالاته تبدأ منذ الفجر مع صلاة العيد وذبح الخروف والإفطار الخاص. ومن المشاهد المتكررة في طفولتي من عام إلى عام رجائي المستمر للوالد بالألا يذبحوا الخروف هذا العام، فالخروف كان يأتي إلى بيتنا قبل أسبوع أو اثنين من العيد، وكنت خلال هذه الفترة أكون قد تعودت على وجوده معنا فوق سطح البيت، وفي بعض الأحيان كنت أقوم بإطعامه بنفسي أو أركب فوق ظهره مثل رعاة البقر، حتى إننا كنا نصير أصحابًا. لذلك كنت دائمًا أتمنى أن يحدث شيء في آخر لحظة يحول دون ذبحه، ثم حين تأتي اللحظة المنتظرة ولا تتحقق الأمنية أترجى والذي أن يعتق الخروف هذه المرة لوجه الله. ثم بعد ذلك يجيء إفطار اللحم المشوي الذي لم يكن يُمثل إحدى عاداتنا خلال بقية أيام السنة، وبعد الإفطار يأتي اللعب في الشوارع والحواري بملابس العيد الجديدة مع أبناء الجيران، وكان كل ذلك يستمر لمدة ثلاثة أو أربعة أيام. ومن بين فُسح العيد أيضًا في هذه السن المبكرة كانت السينما، خاصة سينما كوزمو التي لم تكن نذهب إليها هذه المرة بالترامواي وإنما كنا لأننا في العيد نركب حنطورًا. أما في المساء، فإذا كان هناك حفل غنائي لأحد كبار المطربين مثل صالح عبد الحي أو عبد الوهاب أو أم كلثوم، فكنا نذهب إليه حتى نستفيد بكل لحظة من لحظات أيام العيد، فنشغل يومنا من طلعة الشمس وحتى آخر ساعات الليل. أما العيد في الكبر، فهو يوم فسحة عادي يفتقر إلى كل الاحتفالات التي كانت في الطفولة، فمثلًا كنت آخذ زوجتي وكريمتي ونذهب إلى الإسكندرية أو نذهب إلى إحدى الحدائق. لكني كنت في جميع الأحوال أتجنب زحام العيد، كنت أنظر إلى الزحام من بعيد وأذهب إلى الأماكن التي تكون أقل تكديسًا بالناس. ومن الأماكن المفضلة بالنسبة لنا كان مطعم «خريستو» بالهرم الذي حين كنا نخرج منه كنا نفاجأ بالأفواج اللا نهائية من البشر التي تذهب لزيارة الأهرامات، والتي لم تكن تضاهيها إلا الأفواج التي كانت تذهب إلى حديقة الحيوان.

سألت الأستاذ نجيب محفوظ إن كان يذكر أول عيدية تلقاها، فقال: بالطبع، فقد كانت جنيهاً ذهبياً، كنا نفرح به أشد فرح، رغم أنه كان يساوي أقل من الجنيه الورقي به تعريفه، فقد كان الجنيه الذهبي لا يساوي إلا ٩٧.٥ قرش، بينما الجنيه الورقي كان جنيهاً بالتمام والكمال.

ثم سألتني: كم يساوي الجنيه الذهبي الآن؟ لقد سمعت أنه وصل إلى حوالي ٣٠٠ جنيه، كم تغيرت الدنيا! إن تلك العيدية الذهبية لم تكن مقصورة على الوالد وحده، وإنما كان الأعمام أيضاً وبعض الأقارب الآخرين يعطوننا عيدية مماثلة.

فسألت: وماذا كنت تفعل بكل هذه الثروة؟

قال: كنت أحاول الاحتفاظ بها أطول مدة ممكنة، ولو كنت أعلم آنذاك أن قيمة ذلك الجنيه الذهبي ستزداد إلى هذا الحد ما فرطت فيه أبداً، لكن الحقيقة أن العيد لم يكن يمضي إلا ويكون الجنيه قد مضى معه. فقد كنا ننزل إلى حي سيدنا الحسين «نمرم»، فنشتري الملبس التركي أبو قشطة، والكسكي والتفاح المسكر وغير ذلك مما لذ وطاب. وكنا بالطبع لا ننزل إلا بالملابس الجديدة التي كانت تأتينا قبل العيد وتنام في حضننا ليلة العيد لنستمع برائحتها، فالملابس الجديدة لها رائحة خاصة، وقد كنا نلبس في كل عيد بدلة وحذاء جديدين. وأذكر بدلة معينة بينطلون قصير جاءتني وأنا في سن العاشرة أو الثانية عشرة على الأكثر، وقد كانت لها ذكريات جميلة جداً، فاحتفظت بها لسنوات طوال، إلى أن بُليت وتنسل نسيجها.

ثم يضيف: وقد كان لي صديق عزيز في الطفولة هو عبد الحي الألفي - رحمه الله، وكنت أذهب معه إلى سينما إيديال أو أولمبيا راكبين الترام. أما في العيد، فقد قررنا ذات مرة أن نذهب إلى سينما كوزموجراف التي كان يذهب إليها الخواجات والتي عُرفت فيما بعد باسم سينما كوزمو، ولم نركب الترام، وإنما أخذنا ركوبة، أي عربة حنطور، لكن من سوء حظنا أن الحنطور صدم طفلاً صغيراً وأمضينا العيد في قسم الشرطة.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: تألمت ألمًا شديدًا للهجوم الذي وقع على كنيسة مارجرس بأبي قرقاص، الذي ألم المصريين ألمًا شديدًا، وكان من الأشياء القليلة التي حدث فيها إجماع في المشاعر لم يشذ عنه أحد، فالهجوم على دار للعبادة مرفوض إسلاميًا وأخلاقيًا وإنسانيًا، وعلى جميع المستويات. ولقد أثلج صدري موقف شيخ الأزهر من هذه المأساة، وكذلك ما قيل في بعض خطب الجمعة بالمساجد في هذا الموضوع، والذي حاول أن يبرد الجرح الذي أصابنا جميعًا. لقد اتصلت بعدد من أصدقائي الأقباط أقدم لهم التعازي في هذا المصاب الأليم، فوجدت أنهم يدركون جيدًا أبعاد الموقف، ويعرفون أن الإرهاب لا يفرق بين مسلم وقبطي. والحقيقة أن ضحايا العمليات الإرهابية من المسلمين حتى الآن هو أضعاف أعداد الأقباط، لأنه متى وُجد الإرهاب فإننا جميعًا ضحايا.

ثم يقول: إن هذا العمل المشين دخيل على طبيعة الشعب المصري، وعلينا أن نتخذ منه قوة لتشديد الرابطة التي بين عصري الأمة، اللذين لم تقم لنا نهضة إلا باتحادهما. ويخفض الأستاذ بصره ويتوقف عن الحديث، وكأنه في لحظة حداد، ثم يعود ليقول: إن تلك الحوادث غريبة حقًا علينا، وإني لا أستبعد أن تكون هناك علاقة بينها وبين زيارة الرئيس القادمة إلى الولايات المتحدة. فقد كان هذا الموضوع قد نُسي تمامًا وانتهى منذ فترة مسلسل الاعتداء على دور العبادة، كما أن العمليات الإرهابية نفسها كادت تختفي، فلماذا العودة الآن إلى هذه الممارسة القبيحة؟ ولماذا في هذا التوقيت بالذات؟ هل المقصود هو إثارة بعض الغبار في الجو أثناء الزيارة؟ هل المطلوب وضعنا في موقف دفاعي خلال الزيارة؟ إن ذلك الغبار لن يكون له أي تأثير. ثم يختتم الأستاذ حديثه قائلاً: إنني أعتقد أن مثل هذه الأعمال مسيئة إلى مصر وجميع أبنائها، ولن يكون لها تأثير على طبيعة الشعب المصري الذي كان تاريخه كله خير شاهد على تقديسه للأديان جميعًا.

وتهيم نظرات الأستاذ وهو يعود بذاكرته إلى الوراء، ليقول: إن الجيل الذي أنتمي إليه نشأ دون ذرة تعصب، لم يكن هناك قبطي ومسلم، بل كنا جميعاً مصريين، وكان هذا هو الشعور السائد على جميع المستويات، حتى إن الوزارة التي لم يكن عدد وزرائها آنذاك يزيد كثيراً على أصابع اليدين، كان بها وزيران مثلاً من الأقباط. والجميل أن ذلك كان يتم بشكل تلقائي ودون أن يكون مقصوداً، ولمدة طويلة كان رئيس مجلس النواب قبطياً وهو ويصا واصف باشا، محطم السلاسل، الذي حطم السلاسل التي أُفقلت بها أبواب البرلمان بعد أن قرر صدقي باشا رئيس الوزراء إغلاقها في وجه النواب، وقد كان ويصا واصف بطلاً قومياً في ذلك الوقت.

ثم يضيف: لقد كنت تجد في الانتخابات أن داعية إسلامياً كبيراً يمكن أن يفوز في دائرة قبطية. وأذكر أن إبراهيم باشا فرج حكى لي أن الوفد رشح أحد الأقباط في دائرة بالوجه البحري، فطلب المرشح من النحاس باشا زعيم الحزب، أن ينقله إلى دائرة أخرى يكون بها تعداد قبطي كبير حتى تكون فرصته أفضل. لكن النحاس قال له إنه رشحه لهذه الدائرة عن عمد، لأننا نُربي الناس سياسياً، وهذا أهم من الفوز في الانتخابات، ولقد خاض المرشح الانتخابات ونجح فيها، رغم أن الدائرة لم تكن دائرة قبطية.

ثم يقول الأستاذ: لقد نشأت لا أعرف الفرق بين المسلم والمسيحي، وحتى سن متأخرة لم أكن أعرف من أصدقائي من المسلم ومن المسيحي. وفي بعض الأحيان كنت أكتشف دين أحد أفراد شلتنا حين يُتوفى له قريب، فنذهب إلى الكنيسة لتقديم العزاء. وأذكر أن العادات في الوفاة كانت متقاربة، فقد كان الأقباط المُتوفون تُسيّر لهم الجنازات، والبعض كان يقيم سرادقاً أيضاً مثل المسلمين، بل إنني كنت أجد في بعض ما يقوله القس في القديس المقام على روح المُتوفى ما هو مأخوذ عن القرآن، كأن يقول إن الموت حق على الجميع «ولو كنتم في بروج مشيدة». لذلك فإن جيلنا هو أكثر من يتألم مما يقال في بعض الأحيان عن التعصب الذي هو دخيل على مجتمعنا المصري، وأي شيء يمس الإخوة الأقباط هو بالنسبة لنا من الكبائر التي لا تُغتفر.

وتحدث الأستاذ عن القدس، فقال: إن القدس في قلب جميع الأديان وكل دين سماوي يؤمن أتباعه بأن لهم في القدس نصيباً، والقدس حين خضعت للفتح الإسلامي كانت تُعامل على هذا الأساس الجميل. وأظن قصة عمر ما زالت في الذاكرة، حين رفض الصلاة في الكنيسة حتى لا يُصبح ذلك تقليدًا يحرم المسيحيين من مكان صلاتهم المقدس.

ثم يضيف الأستاذ نجيب محفوظ: أما إذا أخذنا القدس على أساس سياسي فإن كل شيء قابل للمفاوضة، والقدس بالذات تتطلب مفاوضة ليس فقط مع العرب، وإنما مع كل المسلمين، حتى لا تصبح شوكة في الجنب تؤذي السلام على مدى الدهور. فحتى لو وافق العرب - فرضًا - على أن تصبح القدس عاصمة لإسرائيل، فإن الأماكن الدينية لا تخضع لهذا الاتفاق، وينبغي أن يكون لها وضع خاص، واستقلالها الذاتي وإدارتها التابعة لكل دين، دون ذلك سيظل هناك جرح في قلب كل مسلم، وهو جرح لا يستقيم معه أمن ولا يقوم عليه سلام. وسنعود مرة أخرى إلى مشكلة القدس، حين استأثر بها المسيحيون في الحروب الصليبية، وظلت هدفًا للمسلمين طوال أكثر من مائتي عام إلى أن تمكنوا في النهاية من تحريرها، وحين حرروها لم يكن ذلك للإسلام، وإنما لجميع الأديان.

ثم يقول: إذا كنت حقيقة تريد السلام، فلا تغرز رايتك في قلب من تريد أن تقيم معه هذا السلام. إن من يحاولون ضم القدس إلى إسرائيل عليهم أن يعلموا أنه ليس هناك مسلم صادق سيرتاح لمثل هذا الحل الذي يؤكد ويكرس العداء التقليدي مع اليهود، والذي نرجو أن يحل محله السلام، فتتغير الظروف والمعاملات والدنيا.

وأقول للأستاذ: إن إسرائيل تقول إنها تفصل بين الجانب السياسي والجانب الديني، فهي تضم القدس سياسيًا، لكن جميع الأديان سيظل من حقها الوصول إلى أماكنها المقدسة داخل المدينة!

فيقول على الفور: للأسف، إن السياسة لا تترك مكانًا للدين، وحين أغلقت إسرائيل حدودها في الأشهر الأخيرة على الفلسطينيين لأسباب سياسية لم يتمكن هؤلاء من العبور إلى القدس، حيث أماكن العبادة وأقدس الأقداس الذي كان قبلة المسلمين في يوم من الأيام قبل أن يتحولوا إلى الحرم المكي. إنني أرى أن السلام لن يكون خالصًا، والمعاملة لن تكون سليمة بهذه الطريقة، وستظل شوكة القدس في قلوب المسلمين، وكأنسان محب للسلام وللعلاقات الإنسانية الشريفة أنصح بأن تكون القدس بعد الانتهاء من التسوية السياسية موضع محادثات جدية بين الديانات السماوية الثلاث.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: إن قضية القدس لا يختلف عليها اثنان من العرب، وما يحدث الآن من بناء مستعمرات يهودية بها هو استهزاء بالسلام وإغلاق الطريق تمامًا على محاولات التسوية. إن من يفعل ذلك إنما يركل السلام بقدميه، والتحدي هنا ليس فقط للعرب، وإنما للعالم أجمع، فالعالم لم يعترف حتى الآن باحتلال إسرائيل للقدس الشرقية التي هي أرض عربية لا جدال. حتى إن الدولة الوحيدة التي قررت نقل سفارتها إلى القدس، وهي الولايات المتحدة، أكدت أن ذلك لا يتعارض مع وضع القدس، وأنه ليس في ذلك اعتراف ضمني بسيطرة إسرائيل على القدس الشرقية، فكيف يمكن لإسرائيل أن تقول هكذا للعالم كله: اذهبوا إلى الجحيم؟! لقد كان الموقف الدائم لإسرائيل هو أن القدس تحتاج إلى مفاوضات مستقلة، والموقف الحالي يمثل تغيرًا سلبيًا عن مواقف الحكومات الإسرائيلية السابقة، والوثوب على القدس الآن هو تحدٍ لقضية السلام كلها، وتحدٍ للعاطفة الدينية لشعوب العالم التي تتبع الأديان السماوية. والغريب في الأمر أن مجلس الوزراء الإسرائيلي وافق على هذا الوضع وعمدة القدس يوجه التهديدات إلى الفلسطينيين، وذلك وضع لا يُطمئن، هل تتصور إسرائيل أنها تملّي شروط الحرب؟! إن هناك نوعين من السلام، أحدهما يتحقق بالتراضي، وهذا يُكتب له الدوام، والثاني يعتمد على الإذعان، وهذا حتى إن تحقق فهو بطبيعته اتفاق مؤقت، مثلما فرض على ألمانيا وعلى فرنسا وقت بسمارك، وهذا ليس من السلم في شيء، بل هو تمهيد لحرب قادمة، فهل هذا هو الأمن الذي يتحدث عنه نتنياهو؟! إن من يبحث حقيقة عن الأمن يجب أن يوجه سياسته إلى إقرار حقوق من في مقدورهم أن يهددوا هذا الأمن، لا أن يستعديهم.

قلت للأستاذ نجيب محفوظ: وصلني خطاب من نيويورك من الأستاذ ماهر البطوطي، المترجم بالأمم المتحدة، يطلب معرفة «مقطوعات الموسيقى الكلاسيكية التي أحبها أستاذنا الكبير وأثرت فيه، وكذلك اللوحات التي أعجب بها، وذلك لبحث أقوم بإعداده عن ارتباط الفنانين الكبار بمثل تلك الأعمال».

فقال: لقد كان لبيتهوفن بشكل خاص مكانة خاصة لديّ، خاصة سيمفونية «الكوراليه رقم ٩»، كما أنني من هواة سوناتا «في ضوء القمر» التي كنت أسمعها في منزل مدحت عاصم، حين كان يعزفها بنفسه على البيانو، كما أحب السيمفونية رقم ٣ التي أهداها لذكرى نابليون. وفيما يتعلق بالموسيقى العربية، فقد نشأت على الموسيقى الكلاسيكية منها، وأول ما سمعت من الموسيقى المصرية كان في الأسطوانات التي كانت لدينا، مثل أعمال إبراهيم عثمان وعبد الحامولي، وما زلت أذكر على سبيل المثال أغنية «قدك أمير الأغصان» و«بستان جمالك من حسنه» و«كلني الهوى وصبحت عليل» و«ياما أنت واحشني» و«أمانة يا رايح يمه تبوسلي الحلو من فمه» و«حلاي بلالي وفاني الحبيب» لعبد الحي حلمي، التي دخل بها في مناظرة مع اليهود، فأخذوا يردون عليه في أغانٍ أخرى، أعتقد أنها كانت لزكي مراد والد الفنانة ليلي مراد، وبعد ذلك جاءت أغاني سيد درويش وأم كلثوم وعبد الوهاب وكنت أعشقها جميعاً. أما من حيث الفن التشكيلي، فأذكر لوحة معينة لفان جوخ، أعتقد أن اسمها «ساعة الراحة» وكانت تمثل فناء سجن كبير، والمسجونون يدورون فيه في طابور وقت راحتهم، وقد تأثرت بهذه اللوحة بشكل خاص. والحقيقة أن كل روائع الفن التشكيلي العالمي من أيام الإغريق وحتى العصر الحديث كانت عندي على شكل كروت في مجلدات تحمل عنوان «Outline of the Art of the World» وكنت كثيراً ما أفتح أي صفحة من الكتاب الضخم لأتأمل إحدى صورته، سواء كانت من عصر النهضة أو من العصر الحديث، وأتذكر الكثير من لوحات بيكاسو مثلاً. وأذكر أنه كان هناك معرض سنوي للفن التشكيلي المصري، كنت أداوم عليه، وكان يقام في شارع إبراهيم باشا، ويشترك فيه جميع فنانينا في ذلك الوقت، ولقد تعرفت من خلاله على أعمال محمود سعيد ومحمد ناجي، وراغب عياد، وما زالت صورهم ناضرة في مخيلتي حتى الآن. وأتذكر جيداً لوحة «سيدات الإسكندرية» لسعيد و«العودة» لراغب عياد، واللوحات الحبشية لناجي، وقد كان من بين هؤلاء فنان جديد كان لا يزال صغير السن، هو صلاح طاهر، وكان يرسم البورتريه الواقعي.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: لقد أصبت بخيبة أمل لا حد لها من استخدام الولايات المتحدة الفيتو للمرة الثانية، لوقف قرار في مجلس الأمن يُطالب إسرائيل بوقف بناء المستوطنات في القدس الشرقية. إن استخدام الولايات المتحدة للفيتو ليس شيئاً جديداً، فخلال ما يقرب من عشرين عاماً لم تستخدم أمريكا الفيتو إلا فيما يتعلق بالشرق الأوسط فقط، بالإضافة إلى موضوع الدكتور بطرس غالي، الذي يمكن اعتباره هو الآخر متصلًا بالشرق الأوسط. إذن فقد تعودنا على هذا الفيتو الأمريكي في كل ما يتعلق بإسرائيل، ولكن سبب خيبة الأمل هذه المرة هو أنه حين استخدمت واشنطن الفيتو ضد القرار الأول الذي كان يُدين إسرائيل لسماحها للمستوطنين بالبناء في أرض ما زالت موضع مفاوضات، فإن الرئيس الأمريكي أعلن صراحة أن الفيتو لا يعني أن واشنطن توافق على بناء المستوطنة. ولذلك فقد تم تغيير مشروع القرار بمجلس الأمن، ونُزعت منه كل إدانة أو لوم لإسرائيل ولم يبقَ به إلا شيء واحد فقط، وهو المطالبة بوقف بناء المستوطنة، أي أن القرار كان في الواقع مطابقاً لمنطوق كلام الرئيس الأمريكي، ومع ذلك فقد استخدمت واشنطن الفيتو للمرة الثانية، وأوقفت القرار الثاني أيضاً. إن هذا في رأيي هو أخطر فيتو اتخذته الولايات المتحدة حتى الآن، لأنه يضرب مصداقيتها لدى شعوب المنطقة في الصميم، وكأنه جاء ليؤكد أن أمريكا ليست الحكم العادل والمحايد الذي تدعيه، وأنها تسمح لإسرائيل أن تفعل ما تريد حتى لو كان في ذلك خرق للقوانين والاتفاقيات، بينما هي تقف لمن يفعل ذلك من العرب بالمرصاد، والمقارنة هنا بين العراق وليبيا من جانب، وإسرائيل من جانب آخر تثير أكثر من مجرد خيبة أمل.

قلت للأستاذ نجيب محفوظ: لك يا أستاذ نجيب قصة قصيرة بعنوان «قسمتي ونصيبي» تحكي عن سيدة رُزقت بمولود بجسم واحد ورأسين، فسمت أحدهما «قسمتي» والآخر «نصيبي» امتثالاً لقدرها، وتلك القصة تذكرنا بالوضع في فلسطين، حيث يشترك كل من الفلسطينيين والإسرائيليين في الأرض نفسها، بحيث لم يعد من الممكن فصل أحدهما عن الآخر، ولم يعد من الممكن - كما هو في قصتك - أن يستأثر أحدهما ببقية الجسم دون الآخر، فكيف الخلاص؟

قال: في القصة حدثت مشادات ومشاحنات لا نهاية لها بين «قسمتي» و«نصيبي» إلى أن تعلمنا أن على كل منهما أن يقبل الآخر ويتعايش معه، فهذا هو قدرهما أن يكونا اثنين مشتركين في جسد واحد، وقد كان «قسمتي» في القصة هو الداعي إلى هذا التعايش السلمي، أما «نصيبي» فكان أكثر عدائية وأقل استعداداً لقبول شريكه الآخر. وهذا الوضع قد يشابه ما يحدث في فلسطين، حيث نجد الإسرائيليين الآن أقل استعداداً من الفلسطينيين على قبول الآخر والتعايش معه على أرض واحدة.

ثم يضيف: إن ما تحاول الحكومة الإسرائيلية الحالية تحقيقه هو أن تستأثر بكل ما تريده، وأن ترغم الفلسطينيين على قبول ذلك والإذعان له، وهذا ليس من السلام في شيء، فالسلام القائم على الاستسلام هو هدنة مؤقتة وليس سلاماً دائماً. والتاريخ يعلمنا ذلك منذ الأزل، فقد كان من الممكن أن يتجنب العالم ويلات الحرب العالمية الثانية لو لم تكن اتفاقية فرساي قد فرضت على ألمانيا الاستسلام الكامل، لأن مثل هذه الاتفاقيات في الحقيقة دعوة إلى الثورة والتمرد، ونحن نسعى إلى السلام والتعايش في أمان.

قلت: في قصتك يموت أحد التوأمين في النهاية، فما المعنى من ذلك؟

قال: المعنى ليس أن أحدهما يجب أن يموت، وإنما في أنه حتى بعد أن مات واحد، فقد ظل الثاني يحمله معه بعد أن قال الأطباء إنه لا يمكن استئصاله. لذلك فإنه لا بد من التعايش، فهذا هو ما يمكن أن تنتج عنه حياة طبيعية للطرفين، يُتبادل فيها التعاون، ويُنسى الماضي فيما ينتجه الحاضر من فوائد للجانبين.

وتحدث الأستاذ نجيب محفوظ عن ظاهرة الاستنساخ، فقال: في الحقيقة إنني ضد من يُعارضون الاستنساخ، ليس في مصر وحدها وإنما في الدول المتقدمة نفسها، فالعلم لا يُعامل أبدًا بهذه الطريقة، ولا يجب أبدًا أن نخشى من بعض النتائج السيئة لأي اكتشاف علمي، وإنما واجبنا أن نترك للعلماء الحرية الكاملة لأن يعملوا ويكتشفوا، وهذا لا يخيف في شيء. وإن كانت مثل هذه التجارب جائزة في المحاصيل والنباتات التي خلقها الله، فلماذا لا تكون جائزة في الحيوان أيضًا وفي الإنسان؟ فقد تكون نتيجة ذلك ليس فقط أن نستنسخ مخلوقًا يحمل نفس صفات مخلوق آخر، وإنما قد يكون خاليًا أيضًا من عيوبه، وهذا تقدم علمي لا ينبغي الحجر عليه، فليس فيه شيء ضد الدين على الإطلاق.

فقلت: إن من يُعارضون ذلك يقولون إن الخلق من صفات الله وحده. فقال الأستاذ: والعدل أيضًا من الصفات الإلهية والرحمة والكرم، فهل يعني هذا ألا يكون الإنسان عادلاً أو رحيماً أو كريماً؟ إن هذه الصفات عند الله شيء، وعند الإنسان هي شيء آخر. ويضيف: ثم إن المسألة ليس فيها خلق ولا يحزنون، فهي عبارة عن تلقيح بويضة مفرغة من خصائصها الوراثية بخلية بشرية تحمل صفات إنسان معين، ثم يتم وضع هذه البويضة في رحم امرأة إلى أن تتحول إلى جنين بالطريقة المعتادة، فالعملية إذن هي أقرب إلى التلقيح الصناعي الذي يُمارس الآن في كل العالم وليس فيها خلق على الإطلاق. إنها في الحقيقة محاولة للتحكم في الصفات الوراثية للجنين من أجل الحصول على ذرية أفضل، تمامًا كما يحدث في عمليات التهجين المعتادة، ولكن بطريقة أكثر تقدمًا. إنني لا أرى في ذلك شيئاً ضد الدين، لأن من يقوم بالاستنساخ هو مخلوق من الله، وفي علم الله سبحانه أن الإنسان يستطيع أن يقوم باستنساخ إنسان، وقد خلقه الله على هذا الأساس. إذن فاستنساخ الإنسان ليس ضد الإرادة الإلهية، ولا هو تحداها.

ويواصل الأستاذ نجيب محفوظ حديثه عن الاستنساخ، فيقول: إنني لا أقول إن الاستنساخ خير أو شر، كل ما أقوله هو أنه تجربة علمية جديدة ويجب ألا نقف أمامها، لأن الوقوف في طريق البحث العلمي خطيئة، والتاريخ شاهد على ذلك، ففي كل مرة تصدى فيها الإنسان للاكتشافات الجديدة كان مخطئاً من جاليليو إلى الآن.

قلت: قد يكون سبب التخوف من التجربة هو إساءة استخدام هذا الاكتشاف؟
فقال: إن الخوف من مضار التقدم هو مسألة أخلاقية وليست علمية، فالذي جعل الذرة وسيلة لإبادة مئات الآلاف في هيروشيما وناجازاكي هو الأخلاق وليس العلم، لأن الذرة لها فائدة كبيرة في العلم والطب والزراعة، ويجب ألا نوقف سير الحقيقة بسبب انحرافات في أخلاق الإنسان، وإنما علينا أن نُهذب الإنسان. ثم إن الاستنساخ ليس مجرد مسألة خلايا، أي إنك إذا استنسخت إنساناً من خلايا هتلر فإنه لن يتسبب في حرب عالمية قادمة كما فعل هتلر، لأن هناك أيضاً البيئة، فلنفرض أن هناك هتلر جديداً نشأ في ألمانيا اليوم وبه كل صفات هتلر القديم، فماذا سيفعل؟ ربما أصبح فناناً يعبر من خلال الفرشاة والألوان عن عالمه الجديد الذي يسعى لتحقيقه، وبدلاً من أن يُحطم العالم قد يُحطم الواقعية، إن الإنسان في الحقيقة ابن البيئة وليس فقط ابن الخلايا. وهتلر لم يكن مجرد خلايا وطباع، وإنما هو في الأساس ابن معاهدة فرساي وابن ألمانيا المذلولة التي كان يجب أن تثور وتتمرد.

قلت: يُقال إن العبث بطريقة تكوين الإنسان هو ضد ناموس الحياة، كما خلقه الرب.
قال: وأخذ شريان من رجل إنسان ووضعه في قلبه هو أيضاً ضد الناموس، وزرع كبد حيوان في جسم إنسان هو أيضاً ضد الناموس، والطيران فوق السحاب هو أيضاً ضد الناموس، والغوص في أعماق البحار هو أيضاً ضد الناموس. إن الله قد خلق للإنسان عقلاً ومكَّنه من أن يفعل كل ذلك خدمة للبشرية والتقدم، فيجب ألا نعترض ذلك.

سألت الأستاذ نجيب محفوظ: ماذا كانت تمثل لك القهوة التي عُرفت دائماً بارتياها طوال حياتك؟ فقال: هي المكان الذي كنت ألتقي فيه بأصدقائي الخصوصيين، وهي بعد ذلك مكان التقاء المثقفين والأدباء، بعد أن اشتغلت بالأدب، وهي أيضاً المكان الذي قد أجلس فيه وحدي لأتأمل من يمرون في الشارع أمامي. وهي في بعض الأحيان المكان الذي كنت أرتاده لكي أدخن الشيشة التي لا أستطيع تدخينها بالمنزل، وقد كان بإمكانني أن أمكث مع الشيشة يوماً بأكمله. ففي الحالة الأولى كان رفيقي في القهوة هم الأصدقاء، وفي الحالة الثانية كان الأدباء، وفي الحالة الثالثة كان المارة في الشارع، وفي الحالة الرابعة كانت الشيشة، وفي بعض الأحيان كانوا يجتمعون جميعاً في جلسة واحدة. ولقد تنقلت خلال حياتي في الكثير من القهاوي، ففي سنوات الدراسة الأولى كنت أجلس مع والدي على قهوة الكلوب المصري حيث كان يجالس أصدقاءه، وكان يحضر لي «الكوم» أو جيلاتي. وحين بدأت بعد ذلك ارتياد القهاوي أثناء الدراسة الثانوية، ذهبت مع أصدقائي إلى قهوة قشتمر، وكنا ننتقل بينها وبين قهوة مقابلة لها اسمها إيزيس لم تعد موجودة الآن. ثم تجرأنا بعد ذلك وجلسنا في قهوة عرابي التي كان يرتادها الكثير من الأكابر في ذلك العصر، ثم نزلنا بعد ذلك إلى سيدنا الحسين، فكانت قهوة الفيشاوي، ثم في النهاية تلك القهوة التي سموها باسمي، وقد كانت في الأصل خرابة تابعة لهيئة الآثار، وحولها أحد المهندسين بعد حصولي على جائزة نوبل إلى تلك القهوة الأنيقة الموجودة الآن.

ويواصل الأستاذ نجيب محفوظ حديثه عن القهوة في حياته، فيقول: بخلاف مقاهي قشتمر وعرابي والفيشاوي التي كنت أرتادها لملاقة الأصدقاء، كانت هناك القهاوي التي كنت أذهب إليها لألتقي بالكتب والمثقفين. وكان أول منتدى أدبي لي هو كازينو أوبرا، ثم بعد ذلك جاءت قهوة ريش ثم علي بابا وأخيراً كازينو قصر النيل الذي ظللت أذهب إليه إلى أن وقعت لي الحادثة، فمنعوني عن الذهاب إليه. ومع ذلك، ففي حياتي الكثير من القهاوي، فقد جلست مثلاً على قهوة البوديجا التي كانت تقع في عماد الدين، وكانت واحدة من أفخم القهاوي. كما جلست أيضاً على قهوة أم كلثوم بميدان عرابي، وفي الصيف كنت أتمشى إلى كافيتيريا فندق شهر زاد القريبة من مسكني، لأتناول بها شاي الصباح، وأقرأ الصحف.

وأقول للأستاذ نجيب محفوظ: لقد عرفت أنواعاً كثيرة من القهاوي، فكيف كانت تختلف القهاوي البلدي في الحسين مثلاً، عن قهاوي وسط البلد الأنيقة؟
فيجيب: أول اختلاف هو أنك على القهوة البلدي لست بحاجة لأن تذهب إليها مع صديق، بمجرد أن تجلس يمكن أن تصادق، أما في القهاوي الأخرى، فإذا ذهبت وحدك فقد تتركها في معظم الأحيان وحدك أيضاً. وقد كانت قهاوي وسط البلد بالنسبة لي أنا وأصدقائي هي محطة اللقاء، قبل أن نذهب إلى السينما أو المسرح مثلاً.

وأسأل: هل كتبت أيّاً من أعمالك في القهوة؟

فيقول: كتبت بعض السيناريوهات، وكان أحدها لفيلم من إخراج صلاح أبو سيف بقهوة التريانون بالإسكندرية، كما كتبت سيناريو فيلم «ريا وسكينة» في جليمونوبولو. أما أعمال الأدبية فلا أستطيع كتابتها إلا على مكتبي، لكنني كنت أتوصل إلى بعض أفكارها أثناء جلوسي على القهوة، وكنت أنتظر حتى عودتي إلى المنزل لأدونها، وأكثر قهوة استلهمت فيها أفكار وأحداث رواياتي كانت الفيشاوي.

رغم أن قهوة الفيشاوي بالحسين ارتبطت أكثر من غيرها باسم نجيب محفوظ، فإنها ليست القهوة الوحيدة التي كان يتردد عليها كاتبنا الكبير، فمن بين القهاوي المحببة إلى نفسه كانت هناك أيضًا قهوة عرابي التي كانت تقع في نهاية شارع الجيش بالعباسية، والتي لم يعد لها الآن وجود.

وفي ذلك يقول الأستاذ: قهوة عرابي هذه كان مالکها هو المعلم العرابي الذي كان قبل ذلك فتوة الحسينية، وبعد أن سُجن وخرج من السجن فتح هذه القهوة التي كان يأتي إليها الكثير من أعيان ذلك الزمان الذين لا بد كان المعلم عرابي قد أسدى لهم خدمات مختلفة. فكانت ترى في القهوة من الأسماء المشهورة مثلًا الشواربي باشا وعلي ماهر باشا وحسن حسيب باشا، فالفتوات كانوا يؤدون خدمات كثيرة، خاصة في فترة الانتخابات، لأن جميع فتوات المنطقة كانوا يتبعون كبيرهم، الذي إذا وعد أحد المرشحين بصوته، فإن ذلك يعني عدد أصوات كل الفتوات وعائلاتهم، وكل من تصل إليه سطوتهم. وكانت قهوة عرابي تدار على أفضل نظام، فكانت نظيفة نظافة غير عادية، وكانت للقهوة تقاليد معينة، فكنا إذا دخلنا إليها توجهنا أولاً إلى المعلم عرابي نفسه، نُلقِي عليه التحية، وقد كان رجلًا مهيبًا، فيقول لنا: أهلاً وسهلاً، تفضلوا. ودون هذا الإذن بالدخول لا يمكن أن يجلس أحد بالقهوة، ولا أن يجد من يُحضر له طلبًا، أما الباشوات الكبار فكانوا يأتون إليه في العيد ويُخرجون جنيهاً الذهب ويعطونها لأولاده الذين كانوا ما زالوا صغارًا، وكأنهم يعطونها للمعلم نفسه. فقد كان الأولاد يلمون لمة كبيرة في المناسبات، وفي صباح يوم العيد أيضًا كنا نجد المعلم عرابي يتناول إفطاره من الشوربة والفتة، ويقول لنا اتفضلوا يا أفندية! فنقول له: شكرًا يا معلم، ونمضي نحن إلى طبق الفول والشيشة.

ويتحدث الأستاذ نجيب محفوظ عن المعلم عرابي صاحب القهوة الشهيرة التي كانت تحمل اسمه إلى أن باعها أولاده بعد رحيله، فيقول: كان المعلم عرابي قد سُجن لحادثة شهيرة جداً، فقد عمل خناقة كبيرة بالظاهر حين امتطى جوادًا ووراءه بقية فتوات الحسينية، فهاجموا فتوات الحي وقاموا بإغلاق الحي كله. ويقال إن المعلم عرابي أخرج بيديه عيني كبير فتوات الظاهر. وتدخلت قوات الأمن وحاصرت المكان وفضت الخناقة، وحوكم المعلم عرابي وصدر ضده حكم بعشرين سنة سجنًا، وقد أقيمت بعد ذلك نقطة بوليس خاصة في الحسينية، وصُودر نظام الفتوات بسبب هذه الحادثة. وقد كان قبل ذلك نظامًا شبه معترف به، حيث كانت قوات الأمن كثيرًا ما تلجأ إلى الفتوات لحل ألغاز بعض جرائم القتل أو السرقة، لكن ذلك كله انتهى، وقد كان المعلم عرابي هو آخر فتوة، فتحول إلى صاحب قهوة مراقب، وأي مخالفة كان يمكن أن تعيده مرة أخرى إلى السجن دون محاكمة.

وأسأل: هل استلهمت شخصية المعلم عرابي بالذات في أيّ من رواياتك؟
فيقول: إن كل الفتوات الذين في رواياتي كانوا صورًا مختلفة عن المعلم عرابي الذي سمعت عنه عشرات القصص، حين كان كبير الفتوات، والذي لم أعرفه إلا رجلًا ساكنًا وإن كان مهيبًا يجلس في قهوته دون أن يثير المشاكل.

ثم يقول: لقد راعني الفارق المذهل بين ما كان يتردد عن المعلم عرابي، قصص أشبه بالحواديت وبين شخصيته التي عرفتھا بعد خروجه من السجن، فقد ظلت أتردد عليه في قهوته إلى أن تُوفي. ولقد حاول أولاده بعد ذلك إدارة القهوة، كما كان يديرها والدهم، لكنهم فشلوا، فباعوا نصف القهوة، ثم ما لبثوا أن باعوها بالكامل، وتحولت على ما أذكر إلى معرض أثاث، فطوت تاريخًا بأكمله.

سألت الأستاذ نجيب محفوظ: لقد كنت من رواد قهواي الإسكندرية أيضاً، فهل عرفت فيها التنوع نفسه الذي عرفته في القاهرة ما بين القهوة البلدي وقهواي وسط البلد الأنيقة والقهاوي الأدبية؟ فقال: لا، القهاوي بالنسبة لي في الإسكندرية كانت قهاوي تصييف، فكنت أرتادها لمقابلة الأصدقاء، ولقد جلست كثيراً مع مجموعة توفيق الحكيم بكازينو بترو، وكانت تلك هي القهوة الأدبية الوحيدة التي ارتدتها في الإسكندرية، أما جلستي المعتادة، فكانت بكازينو سان استيفانو وكازينو جليم من قبله. وأذكر أن منطقة السلسلة كانت كلها قهاوي تمتد بطول الكورنيش، وكانت على البحر مباشرة، وكل منها مشهورة بالشيشة الخاصة التي كانت تقدمها، وقد كانت للشيشة في الإسكندرية ميزة خاصة، لأن رطوبة الجو كانت تجعل الدخان رطباً دائماً، بينما في القاهرة كان النادل يأخذها بين الحين والحين يبللها ويعيدها ثانية حتى لا تحمى. ولقد كنت أجلس أيضاً على قهوة ديانا وقهوة اللوفر التي كان قد اشتراها المرحوم عبد الحميد الوكيل بعد الثورة، ولقد ذهبت إليها حيناً إلى الوفد، لأنها كان يرتادها الوفديون القدامى من معارف عبد الحميد بك، وكنت أشعر براحة كبيرة، حين كنت أراهم. ولقد اشتهرت قهوة اللوفر بأنها كانت تقدم أفضل قهوة بالإسكندرية، أما الطعام، فقد أحضر عبد الحميد بك الطباخ الخاص به من أيام العز وجعله يعمل بالقهوة، فكان يقدم الوجبات الفاخرة التي لم يكن لها مثيل إلا في بيوت الذوات. وأذكر أنني كنت أذهب مع صديقي المرحوم عمر طوسون وصديقي عصام الإناء، أطال الله في عمره، وكنا نرى الوزراء القدامى، وكنا نجلس بالقهوة حتى الساعة العاشرة مساءً لنتفرج كل يوم على سيارة النحاس باشا التي كانت تمر على الكورنيش، وهو جالس في مؤخرتها ليشم الهواء، فلم يكن يستطيع الخروج من بيته أثناء النهار، وكانت السيارة تسير به حتى الميناء الشرقي ثم تعود به ثانية. وذات مرة كنت جالساً وحدي في القهوة ويدي على خدي فتعرّف عليّ عبد الحميد بك، وكنت في ذلك الوقت أكتب في «الأهرام» وأنتمي إلى جيل الثورة، فجاء وقال لي: طيب وأنت حاطط إيدك على خدك ليه؟ فقلت له في عقل بالي: ما أنا منكم وأنتم لا تعلمون!

قلت للأستاذ نجيب محفوظ: يصادف اليوم ذكرى حرب يونيو ٦٧، كيف أثرت عليك هذه الحرب ككاتب؟

قال: لقد تحولت كتاباتي بالكامل بعد ٥ يونيو، وكتبت ما لم أكن أكتبه من قبل، فمثلاً مدرسة العبث التي كنت أقرأها وأستمع بها في السابق، أصبحت بعد ذلك هي الرؤية التي تقوم عليها رواياتي وأسلوب صياغتها هو الأسلوب الذي أتبعه، وقد كنت قبل ذلك حين أقرأها وأعجب بها أتصور أنها بعيدة تمامًا عني. أما بعد ٥ يونيو فقد وجدت نفسي أكتب العبث بتلقائية، وبإخلاص، تمامًا مثلما كنت أكتب الواقعية في رواياتي السابقة، وهكذا جاءت مجموعة «تحت المظلة» و«شهر العسل» و«خمارة القط الأسود». كذلك وجدت نفسي لأول مرة أكتب المسرح في مسرحيات الفصل الواحد الخمس التي نشرتها في ذلك الوقت، ذلك أن الحوار كان هو سمة هذه الفترة، حوار الإنسان مع ما يحيط به، لمحاولة فهم ما يجري من حوله، وكيف جرى ما جرى، وحوار الإنسان مع نفسه يحاول الغوص في أعماقه، لعله يجد الحقيقة في بحثه عن نفسه، لذلك كان المسرح هو الصيغة المثلى لهذا الحوار. ويمكن أن يُقال إن البحث عن الحقيقة هو القيمة التي سرت في كل ما كتبت بعد ٥ يونيو ١٩٦٧، سواء في الكتابات الروائية أو في المسرح. وقد كنت أعلم طوال الوقت أن هناك شيئاً ناقصاً، وأن ما أبحث عنه غير موجود، والسؤال الذي أطره يظل بلا جواب إلى أن تكاملت مع نفسي وعادت إليّ الروح مرة أخرى في «ملحمة الحرافيش» التي كتبتها بعد نصر أكتوبر ٧٣، لأنه إذا كان يوم ٥ يونيو ٦٧ هو أسوأ يوم في حياتي، فإن ٦ أكتوبر ٧٣ هو أسعد يوم في حياتي، وإنه من لطف الله أنني عرفت اليومين، ولم أعرف اليوم الأول فقط، كما حدث لمن رحلوا عن هذه الحياة قبل أكتوبر ١٩٧٣.

قلت للأستاذ نجيب: إن كتاباتك الفلسفية التي كتبتها بعد ٥ يونيو تعتبر من أجمل ما كتبت من أدب، وهي في رأي البعض تعلو على الروايات الأولى الواقعية.

قلت للأستاذ نجيب محفوظ: مرت الرواية بتطورات كثيرة خلال القرن العشرين، حيث اتجه البعض إلى إلغاء القصة فيها أو الحكمة، وظهرت في فرنسا الرواية الضد، ثم وجدنا في السنوات الأخيرة ما يمكن أن يكون عودة مرة أخرى إلى الرواية التقليدية، فما تعريف الرواية عندك؟

قال: الرواية في تعريفها التقليدي هي حدث يُروى نثرًا ويُجسد في شخصيات لنساء ورجال من أجل أثر فني معين يريد الكاتب تحقيقه، وكانت الرواية في الماضي كلما كثرت أحداثها ازدادت تشويقًا وإثارة، لذلك كانت الرواية طويلة وكثيرًا ما كانت تصدر في أجزاء، كانت هذه هي الحال مع تولستوي ودوستوفسكي وتوماس مان وجولز وورثي. على أن الثورة على الحكمة التقليدية، والثورة على «الحدوتة» في الرواية، والتي انتشرت حول أواسط هذا القرن بدأت في الحقيقة منذ بداية القرن، وقد كان أحد روادها الكاتب البريطاني الكبير ألدوس هكسلي الذي يصفون روايته بأنها رواية دون قصة (Novel Without A Story)، فقد كانت عبارة عن مواقف أو حالات معينة يتعمقها المؤلف. ثم جاءت مدرسة تيار الوعي التي أكدت هذا النوع من الكتابة الروائية، مثل أعمال جيمس جويس، وبلغ هذا التطور قمته في الرواية الحديثة أو الرواية الضد، والتي في رأيي لم تلغ فقط الحدوتة وإنما ألغت أيضًا المعنى المفهوم، فأصبحت الرواية شيئًا غامضًا على الإنسان العادي الذي تعود على الأدب التقليدي.

وأسأل: وأي من هذه المدارس أقرب إلى نفسك؟

فيقول الأستاذ: لقد استخدمت جميع هذه الأساليب في رواياتي، ولكن دون أن أغرق في واحد منها وأنتسب إلى مدرسة محددة، فأنا لم أقتنع مثلاً بأن أكتب رواية قائمة كلها على تيار الوعي، لكني استخدمت هذا الأسلوب في الكثير من رواياتي، حين وجدت له ضرورة، كما كتبت قصصًا وروايات دون حدوتة. أما الالتزام الوحيد الذي كان يربط كل أعمالي، فهو التراث، ولقد أطلعني أحد الأصدقاء أخيرًا على رسالة دكتوراه قدمها باحث أردني تثبت ذلك.

سألت الأستاذ نجيب محفوظ بعد أن تسلم وسام الفنون والآداب الفرنسي بدرجة «قائد»: كم عدد الأوسمة والجوائز التي حصلت عليها؟

قال: إن كل وسام أحصل عليه يبدو لي كأنه الأول، فكل منها فرحة جديدة، تؤكد مرة أخرى أن هناك أناسًا يقدرونك ويقدرون إنتاجك.

ثم يضيف: ومع ذلك فأنا سيئ الحظ مع الجوائز والأوسمة، أذكر مثلاً أن أول جائزة حصلت عليها بعد ثورة يوليو كانت جائزة الدولة، وكانت قيمتها ألف جنيه. وقررت أن أدفع هذا المبلغ كمقدم لقطعة أرض على النيل، لكنني كنت في ذلك ضحية مجموعة من النصابين، كانوا يقبضون هذه المبالغ ليشتروا بها أراضي جديدة يبيعونها لآخرين، وحين يقبضون منهم ثمنها يردون لك ما دفعته، ولا يسلمونك أرضاً، لكن في حالتي بعد أن قبضوا مني المبلغ انقلبت بهم سيارتهم. فلم أتسلم أرضاً ولا عادت لي نقودي.

ويواصل الأستاذ: أما الجائزة الثانية فكانت جائزة الدولة التقديرية، وقد ظلت أرشح لها من جهات مختلفة سبع سنوات متتالية، دون أن أحصل عليها، وحين حصلت عليها في النهاية كانت مناصفة، لكن الدكتور طه حسين طلب إلى الوزير في ذلك الوقت كمال الدين حسين أن يحصل كل مرشح على قيمة الجائزة كاملة، فوافق لكن تلك السنة كانت السنة نفسها التي فاز فيها عبد الرزاق السنهوري بالجائزة نفسها، ونظرًا لموقف السنهوري من الثورة، فقد تردد أن الرئيس عبد الناصر قد يلغي الجائزة.

ثم يقول ضاحكاً: لكن يبدو أن الرئيس عبد الناصر رأف بحالي، ربما عسى أن يحدث لي شيء إذا أُلغيت الجائزة في العام الذي حصلت عليها فيه، بعد سبع سنوات عجاف، فلم يُلغها.

وأسأل الأستاذ عن قيمة الجائزة في ذلك الوقت وبما فعله بها؟

فيقول: كانت قيمتها ٢٥٠٠ جنيه، ولقد ذهبت كلها إلى الضرائب بعد أن ثبت أن قرار إعفاء الفنانين من الضرائب الذي كان ساريًا حينذاك، لا ينطبق على الكتاب، وهكذا طالبنتي الضرائب بما يزيد على مبلغ الجائزة التي أخذتها من الدولة بيد، لأعيدها لها باليد الأخرى.

وعن أكبر فرحة بجائزة، يقول الأستاذ: كانت تلك أول جائزة أحصل عليها، كان ذلك عام ١٩٤٠ وكانت قيمتها ٤٠ جنيهًا، وتبرعت بها قوت القلوب الدمرداشية، وسبب فرحتي بها أنها جاءت في وقت كنا لا نعرف فيه بعد إن كنا كُتَّابًا حقًا أم لا، فجاءت الجائزة لتؤكد أن ما نكتبه له قيمة، فقد كانت لجنة الاختيار مكونة من طه حسين وأحمد أمين، ومن هم على نفس مستوييهما.

وأقول للأستاذ: وماذا عن نوبل؟

فيقول: هذه في جانب وحدها، لأنها لم تكن متوقعة، وقد ظلمت أقول لزوجتي التي أخبرتني بنبيها

أن تكف عن هذا المزاح إلى أن فُتِح باب المنزل ودخل عليّ خواجه ضخم، قلت له: من أنت؟ فقال:
أنا سفير السويد. عندئذ أدركت أنها حقيقة.

سألت الأستاذ نجيب محفوظ: هل تذكر أول جائزة حصلت عليها في حياتك؟
قال: بالطبع، لقد كانت جائزة السيدة قوت القلوب الدمرداشية، فقد كنت في بداية حياتي الأدبية، ولا تتخيل كيف شجعتني هذه الجائزة على مواصلة الطريق، لأنها كانت أول مرة أحصل فيها على شهادة من كبار النقاد في ذلك الوقت على صحة الطريق الذي اخترته لنفسى. ولقد كانت قيمة الجائزة أربعين جنيهاً تم تقسيمها ما بينى وبين علي أحمد باكثير، أنا عن رواية «رادوبيس» وهو عن «سلامة» التي تحولت إلى فيلم سينمائي بعد ذلك مثلته أم كلثوم، لكن العشرين جنيهاً التي حصلت عليها أحست بها العباسية كلها، فقد أنفقت منها على احتفالات وسهرات كثيرة لأبناء الحي، وكان هذه الجنيهاً العشرين لا تنتهي. وبعد ذلك في كل مرة كان أصدقائي يرونني مرتدياً حذاءً جديداً مثلاً، كانوا يشيرون إليه ويقولون: «رادوبيس»، أو إذا اشتريت ساندوتش جبن، قالوا: «رادوبيس»!

وأسأل: وهل قابلت السيدة قوت القلوب؟

فيقول: لا، لقد عهدت صاحبة الجائزة بذلك إلى لجنة من أكبر الأسماء، ضمت مثلاً د. طه حسين وأحمد أمين وغيرهما، وقد تسلمتها منها، لكني رأيت أن أذهب بعد ذلك إلى منزل السيدة قوت القلوب لأترك عبارة شكر. ومن الأشياء التي لا يمكن أن أنساها أن اللجنة حين قررت منحي الجائزة طلبني أولاً الأستاذ أحمد أمين لسؤالي في شيء، وقد كنت في عملي بالأوقاف، وقالوا لي إن أحمد أمين يطلبك على التلفون، فذهبت أرد عليه وأنا أرتجف، لكنه كان رقيقاً معي، وقال لي: بما أنك قد كتبت رواية تاريخية ألم تدرس أولاً التاريخ المصري القديم الذي تجري فيه أحداث روايتك؟ فقلت: بلى درست علم المصريات جيداً. قال: إذن لماذا جعلت فرعون يركب عربة تجرها الخيل؟ ألا تعلم أن الخيل لم تدخل مصر إلا مع الهكسوس بعد ذلك بعصور؟ قلت: بلى أعرف، لكني أردت أن أحيط فرعون بأكثر درجة من الأبهة. ولقد طمأن أحمد أمين بقية أعضاء اللجنة من خلال هذا التحقيق السريع الذي أجراه معي، إلى أنني فعلت ما فعلت ليس جهلاً بالتاريخ، وإنما لضرورة فنية، فمنحوني الجائزة.

بمناسبة حلول ذكرى قيام ثورة يوليو تحدث الأستاذ نجيب محفوظ عن تأثير الثورة على الثقافة، فقال: إنه قبل الثورة كان المجال مفتوحًا في الثقافة لكل من يريد أن يأتي بشيء، فمن يريد أن يكتب يكتب، ومن يريد أن يصدر مجلة يصدرها، ومن يريد أن ينتج فيلمًا سينمائيًا ينتجه. أما ثورة يوليو فقد أتت بالثقافة المنظمة، وبدأت بإنشاء المجلس الأعلى للفنون والآداب، ثم جاء نادي القصة وقطاع المسرح وهيئة الكتاب ومؤسسة السينما، وكان أهم من ذلك كله إنشاء وزارة الثقافة نفسها. وقد خصت الثورة ميزانيات لهذه الهيئات، فأنتجت كل منها إنتاجًا غزيرًا بعد أن خضع للتخطيط، فكانت هناك لكل من هذه الهيئات خطة سنوية، عليها أن تنجزها.

ثم يضيف: ولكن ككل شيء منظم، فإن الإنتاج الثقافي كان موجّهًا إلى حدّ ما، وأصبح الفن فنًا موجّهًا إلى حدّ ما.

قلت: لكننا وجدنا في تلك الفترة أعمالًا كثيرة لم تكن نتاجًا لأي توجيه، بل كانت هناك أيضًا بعض الأعمال التي كانت تقدم نقدًا كان في بعض الأحيان لاذعًا لبعض الأوضاع السياسية.

قال: هذا صحيح، لذلك قلت إن الثقافة كانت موجّهة إلى حدّ ما، ولم أقل إنها كانت موجّهة تمامًا، على أنني أعتقد أنه من أعظم إنجازات الثورة في الثقافة كان إقامة مدينة الفنون التي جمعت فيما بعد في أكاديمية الفنون، بما حوته من معاهد فنية متخصصة، فقام الفن لأول مرة على أساس علمي من الدراسة والتدريب، كما انتشرت أيضًا المجالات الثقافية المتخصصة بشكل لم يكن له مثيل.

قلت للأستاذ نجيب محفوظ بمناسبة ظاهرة البلطجة التي انتشرت في الآونة الأخيرة، لقد صورت شخصية البلطجي في الكثير من رواياتك، خاصة في مرحلتك الواقعية، فمن البلطجي؟ وما أصل البلطجة؟

قال: البلطجي هو الذي يعيش ويتعامل مع الناس ليس بعقله أو خلقه ومبادئه وإنما بقوته، ولذلك فهو لا تردعه إلا القوة التي هي أكبر منه. أما أصل الكلمة فهي من «البلطة» فقد كان الجيش التركي على ما يبدو قبل أن يدخل منطقة يُرسل من يحملون البُلط ليقوموا بتقطيع الأشجار، ليُهدوا الطريق للجيش، ومن هنا جاءت كلمة «بلطجي».

ثم يقول: وأود أن أشير إلى شيء مهم للغاية، وهو أن الدولة معناها في الأساس هو الأمن قبل كل شيء، بل إن الدولة ربما لم توجد في التاريخ إلا لتوفير الأمن. وإذا نظرنا كيف تكونت الحكومة في مصر القديمة، فسنجد أن النيل كان يفيض، فتبدأ المشاجرات بين السكان، فوجدت الدولة لكي تنظم ذلك، وحتى توفر الأمان للناس. إذن فأساس فكرة الدولة قائم على الأمن والأمان، لذلك فقد تنازل المصري القديم عن قدر كبير من حريته ومجهوده في سبيل الأمن، حتى تتوافر له مياه الري وحتى لا يحدث بعد أن يزرع أرضه أن يأتي أحدهم لينهبها، إذن فالأمن هو أهم شيء في الدولة، وإذا لم يوجد فلا توجد دولة، ولذلك فأنا مع مواجهة هذه الظاهرة بكل حزم. فليس الإرهاب وحده هو الذي يهدد أمن المواطنين، وإنما أيضًا البلطجة، فإذا حدث إطلاق نار في الطريق وأصيب المواطنون الأبرياء، فلا يعني كثيرًا إن كان من أطلق النار يلبس جلبابًا أو يرتدي البلو جينز، فيجب أن نحافظ على أمن الشارع المصري.

ويواصل الأستاذ نجيب محفوظ حديثه عن ظاهرة البلطجة، فيقول: إن البلطجة موجودة منذ القدم، وقد كانت محتملة ما دامت تحت طائلة القانون، فحين كنا أطفالاً كنا كثيراً ما نشاهد في الأحياء الشعبية بعض الخناقات بين فريقين من الناس، لكن ما إن يوجد العسكري حتى ينتهي الأمر على الفور، ويقول الناس: الحكومة وصلت. وكثيراً ما كنا نشاهد العسكري النحيف الآتي من الريف المصري الفقير يسوق أمامه الفتوات ذوي الأجساد العملاقة، كمن يسوق الغنم، والذين لا يملكون أن يخالفوا عصا الراعي. ولقد حضرت آخر عهد الفتوات، وكنت أشاهد البلطجية الذين كان منظرهم مثيراً للربح في هذه الخناقات، ثم يدخل العسكري وسط الخناقة، ويقول لهم: أمامي على قسم الوايلي، وبهذا تكون الخناقة قد انتهت، لأن هذا العسكري الأعزل كانت له مهابة لا تتصورها، وهذه المهابة هي التي كانت تجعلنا نمشي آخر الليل في شارع العباسية مثلاً، وقد كان في ذلك الوقت خاليًا وكذلك شارع رضوان شكري، حتى أدخل بيتي. أما أن أسمع أن رجال الأمن يجري الاعتداء عليهم، فإن هذا غير مقبول في أي دولة في العالم، والحقيقة أن نظام الفتونة هذا الذي كان سائدًا في الماضي قد أُغني بسبب واقعة مشهورة تم الاعتداء فيها على البوليس.

ثم يقول: وإن كنت مع التصدي الحازم لظاهرة البلطجة نفس التصدي الذي حدث لظاهرة الإرهاب، فإني أود أن أقول إنه مع هذا التصدي ينبغي أيضاً تطوير النظام القضائي، لأن طول إجراءات التقاضي قد يدفع في بعض الأحيان إلى اليأس، فيلجأ البعض إلى طرق أخرى للحصول على ما يتصورون أنه حقهم، فإذا كان الحكم في بعض الأحيان يصدر ولا يُنفذ فإن البلطجي يقدم نظير مبلغ من المال حكماً مشمولاً بالنفاد.

ويواصل الأستاذ حديثه عن الهوية المصرية، فيقول: نحن مصريون وطناً، لكننا عرب إقليمياً، فرغم أصولنا الفرعونية فإننا لا نعيش في جزيرة منعزلة، فقد تفاعلنا مع ما يحيط بنا، فأثرنا فيه وتأثرنا به، لذلك فإن مستقبلنا مع العرب، لأن هذا هو مجالنا الحيوي، وهم أيضاً مستقبلهم معنا. إذن ليس هناك هذا التناقض المفتعل بين المصرية والعروبة، فالعروبة هي مجموع المصرية والبابلية والفينيقية وغيرها من الثقافات والحضارات التي أسهمت في تشكيل الحضارة العربية التي ننتمي إليها جميعاً، بل إن الحضارة التي نعيشها اليوم في المنطقة العربية هي حضارة فرعونية يونانية رومانية عربية مشتركة، أسهمنا فيها بما لا يمكن إنكاره، أما عن النقاء العرقي، فذلك وهم، كان آخر المتشبهين به هم النازيين. فليس هناك في العالم عرق نقي ١٠٠٪ حتى بريطانيا التي تُعتبر جزيرة منعزلة لم يكن بها غير بعض الرعاة إلى أن استقرت بها بعض القبائل من ألمانيا ومن الدنمارك، ثم جاءها وليام الفاتح، وكل ذلك صب في الدماء البريطانية، فالوطن مكون دائماً من تفاعل عدة أجناس، وقد كان هذا هو الوضع حتى بالنسبة للفراعنة الذين تكونوا جنوباً من الزنوج وشمالاً من جزر البحر الأبيض المتوسط، وغرباً من ليبيا، وشرقاً من فلسطين. إن كل هؤلاء هم الذين كونوا الشعب المصري، ومن ثم فإن هوية مصر وانتماءها لا يمكن أن ينفصلا عن محيطها الطبيعي.

تحدث الأستاذ نجيب محفوظ عن الهوية الوطنية لمصر، والتي كثيرًا ما يُثار حولها الجدل ما بين قائل إننا فراعنة لا علاقة لنا بجيش الفاتحين العرب، أو إننا شماليون لا علاقة لنا بالجنس الأفريقي، أو إننا ننتمي إلى حضارة البحر المتوسط لا علاقة لنا بالأجناس الآسيوية، لكن الأستاذ له رأي آخر، فهو يقول: في رأيي أن الوطن هو منبع الهوية لا علاقة له بالجنس، فالمصريون يمثلون حضارة واحدة متكاملة، وإن كانت قد تدخلت في تكوينها أجناس متعددة ذات حضارات متعددة، ففينا العربي والسوداني والتركي والمغربي إلى جانب المصري القديم، والجامع الوحيد لكل ذلك هو أرض الوطن التي تجعل منا وحدة واحدة، مهما تعددت الأجناس والحضارات التي انصهرت جميعًا في هوية وطنية وحضارية واحدة. لقد كنا حضارة فرعونية، ثم انضمت إليها الإغريقية، فأصبحت فرعونية إغريقية ثم انضمت إليها الرومانية، فأصبحت فرعونية إغريقية رومانية، ثم كانت فترة الحضارة القبطية، إلى أن جاء الفتح العربي الإسلامي، فكيف نفصل كلاً من هذه المكونات الحضارية عن بعضها البعض بعدما تفاعلت معًا على مدى القرون واتحدت في وحدة وطنية واحدة؟ إن الوطن هو الذي يُعطي الإنسان إحساسه بهويته وبالحضارة التي قامت على أرض هذا الوطن. لذلك يجب ألا نعيد تجزئة هذه الهوية ونحيلها إلى مكوناتها الأصلية، وإلا تفككت وزال تماسكها تمامًا كمن يحاول إعادة الماء إلى أوكسجين وهيدروجين، فهو بذلك يقضي تمامًا على الماء، ولا يبقى له إلا غازات هلامية سريعًا ما تتلاشى في الهواء.

اعترض الأستاذ نجيب محفوظ على أن يُصدر الكونجرس الأمريكي تقريرًا يتحدث فيه عن مشكلة للأقباط في مصر قائلًا: إن الاهتمام بحقوق الإنسان يجب ألا يخضع للأهواء السياسية، وإلا فلماذا لم يتحدث التقرير نفسه عن مشكلة الفلسطينيين الذين يحملون الجنسية الإسرائيلية، والكثير منهم مسيحيون مثل الأقباط تمامًا، وهم موضع اضطهاد لا يخفى على أحد؟ فلماذا لم يتحدث الكونجرس عن حقوق الإنسان في هذه الحالة؟

ثم يضيف: ومع ذلك فدعني أقل إن ذلك لا يمنع من أن نعيد النظر في الأمور عندنا ونبحث بأنفسنا ودون حاجة إلى أي جهة أجنبية إن كان هناك سبب للشكوى على المستوى الشعبي والحكومي، وكيف يكون العلاج، ويجب في هذه الحالة أن يكون علاجنا نحن سابقًا على أي تدخل أجنبي. فلا يكفي أن نقول إن مشاكلنا الداخلية ليس من حق أحد أن يتدخل فيها، ولكن يجب أن تكون لدينا أيضًا الشجاعة لكي نواجه هذه المشاكل بالعلاج السليم، والشجاعة هنا مطلوبة من الفريقين، ويجب أن يكون النموذج الذي نحتذي به هو ما كان سائدًا في فترة ثورة ١٩١٩ حين لم نكن نعرف من المسلم ومن المسيحي. فقد كنا جميعًا مصريين نحارب معركة واحدة في مواجهة عدو واحد من أجل حرية وطن واحد، وكثيرًا ما يُقال إنه في هذه الفترة كان هناك توحيد كامل بين عنصرى الأمة من أقباط ومسلمين، لكن الحقيقة أن مصر ليس بها عنصران، فنحن عنصر واحد، نحن جميعًا من نسل الأقباط، لكن بعضنا دخل الدين الإسلامي والبعض ظل على دينه المسيحي، وكثيرًا ما كان يتزوج هؤلاء من هؤلاء، وكنا في جيلي نُسمى أنفسنا جميعًا أقباطًا وطنًا ومسلمين أو مسيحيين دينًا.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: أكتوبر هذا مهم جدًا في حياتنا، فقد أثبت أن العرب يجب أن يُعمل حسابهم ليس فقط بالنسبة للعالم، وإنما أثبت ذلك بالنسبة للعرب أنفسهم، فلا تؤاخذني إذا قلت لك إنه كان هناك الكثيرون من بيننا من وصلوا إلى مرحلة من اليأس الكامل، لكن أكتوبر جاء بعظمته ليرد فينا جميعًا الروح.

قلت: كيف تُفسر يا أستاذ ما لم يستطع أحد تفسيره حتى الآن، وهو أن أكتوبر بكل أمجاده لم يتم التعبير عنه حتى الآن فنيًا كما يجب؟ صحيح أن ثمة بضعة أفلام تحدثت عن حرب أكتوبر، ومثلها بعض القصص القصيرة والأشعار، لكنها جميعًا ليست بحجم هذا الانتصار غير المسبوق في تاريخنا الحديث، فأين الأعمال الأدبية العظيمة من هذا الانتصار؟

فقال الأستاذ: أولاً مثل هذه الأحداث الكبرى تحتاج من الأديب إلى فترات من الوقت، والحقيقة أنه ما إن انتهت الحرب العسكرية بكل تداعياتها السياسية حتى دخلنا في مسائل خلافية كبيرة حالت بيننا وبين هذا الحدث الكبير، ومنها مثلاً سياسة الانفتاح التي كان لها في البداية تأثيرات سلبية على الرأي العام، ثم تلتها سياسة السلام التي أثارت في البداية الكثير من التوجس والقلق. أما الآن وبعد مرور ربع قرن تقريباً على كل ذلك، فأعتقد أنه أن الأوان لأن ننظر إلى أكتوبر، ليس في سياق سياسات أخرى قد نتفق معها أو نختلف، وإنما كحدث قائم بذاته. ويحضرني مثال جان دارك التي لم يكن من الممكن أن يكتب عنها الأدباء الإنجليز وهي التي أحرقتها الإنجليز أنفسهم، لكن بعد مرور سنوات طويلة وجدنا مثلاً الكاتب البريطاني الكبير برنارد شو يكتب عنها مسرحية «القديسة جان»، كما قُدمت عن حياتها أفلام متعددة، ولقد حضر السفير الإنجليزي الحفل الأول لأحد هذه الأفلام. الشيء الثاني هو أن أكتوبر قُدمت للناس على أنها نهاية كل الصعاب، وبعدها سيعم الرخاء والسعادة، وهذا بالطبع لم يحدث، لأن أكتوبر في حقيقة الأمر كان بداية ولم يكن نهاية، وتلك هي عظيمته، فهو بداية طريق الإصلاح الطويل الذي بدأنا الآن فقط نجني بعض ثماره.

وأسال: أين تضع أكتوبر في سجل أعمال أنور السادات؟

فيقول: هي بلا شك رقم واحد، يليها بعد ذلك السلام، ثم الديمقراطية.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: إن الهند التي زارنا رئيس وزرائها هذا الأسبوع تربطنا بها علاقات وثيقة منذ زمن طويل تعود إلى وقت غاندي وإلى العلاقات التي كانت تربط بين حزب المؤتمر وحزب الوفد، وكانت هناك علاقات تربط بين نهرو والنحاس ثم امتدت العلاقات، وازدادت قوة بين نهرو وعبد الناصر. لكن قبل ذلك كله وبعده، فإن الهند تضرب المثل الأعلى لجميع بلدان العالم الثالث في الديمقراطية، فهي البلد الوحيد الذي حافظ على الديمقراطية تحت جميع أنظمة الحكم التي عرفها، ولم يحد عنها لا يميناً ولا يساراً. ولقد حقق النظام الديمقراطي للهند إنجازات كبيرة، حتى في مجال الاقتصاد، حيث تم التوصل إلى الاكتفاء الذاتي في معظم الأغذية، رغم تعدادها الذي يُعتبر أكبر تعداد في العالم بعد الصين. كذلك حقق النظام الديمقراطي التقدم النووي الذي جعلها أول دولة في العالم الثالث تصل إلى العصر النووي، وهكذا أصبحت الهند مثلاً في السياسة والاقتصاد والتقدم العلمي، رغم مشاكلها التي لا حصر لها. والحقيقة أنه لولا الديمقراطية لتفككت الهند منذ زمن طويل، فعدد الأجناس بها، وعدد الأديان وعدد اللغات بكل ما يتضمنه ذلك من تباين واختلاف في العادات والتقاليد كان يمكن أن يهدد وحدة الهند، كدولة واحدة. ومثلما انفصلت عنها باكستان، كان يمكن أن تنفصل أيضاً دويلات أخرى حسب كل دين وكل لغة، لكن الديمقراطية هي التي وحدت البلاد، واليوم لا يمكن أن تُحكم الهند إلا من خلال نظام ديمقراطي. إن الرسالة التي تبعث بها الهند إلى كل دول العالم الثالث هي أن الديمقراطية هي الحل، كما تُثبت عدم صحة المقولة بأن الديمقراطية لا تصلح في غير الدول المتقدمة، فالهند مثل سائر الدول النامية بها أمية وفقير وتخلف، وبها أكثر من بعض الدول الأخرى، لكنها بالديمقراطية تماسكت وتقدمت فأهلاً بالهند وبجربتها العظيمة.

قلت للأستاذ نجيب محفوظ وجدت مقالات نقدية موقعة باسم نجيب محفوظ في مجلة «المعرفة»، فهل هو أنت؟ وما قصتك مع النقد الأدبي؟

قال على استحياء: نعم هو أنا، أما قصتي مع النقد، فهي أنني كنت أبحث عن أي شيء أكتبه حتى أحقق حلمي في النشر، فقد كنت ما زلت طالبًا في ذلك الوقت، وكانت الكتابة بأي شكل من أشكالها تستهويني، حتى إنني إذا لم أكن أكتب القصة كنت أكتب المقال. فقد كنت أقدم بعض المسرحيات العالمية للقراء على طريقة د. طه حسين، حين كان يقدم كل أسبوع نصًا مسرحيًا فرنسيًا، فيحكي أحداثه فصلًا بفصل، ويقدم كاتبه ومكانة هذا العمل في سياق الإنتاج الأدبي لصاحبه. وقد قدمت أنا مسرحيات برنارد شو وهنريك أبسن وأنطون تشيكوف الذين كانوا يعبرون عن المسرح الحديث في ذلك الوقت، كذلك كنت أكتب في الفن التشكيلي، حيث كنت أزور المعارض وأكتب عنها، ثم كنت أنشر كل ذلك في المجلات الأدبية، مثل: «المجلة الجديدة» و«الحديث» و«الشباب» و«المعرفة» لصاحبها الأستاذ عبد العزيز الإسلامبولي.

أسأل: وكيف وصلت إلى هذه المجلات التي كانت أهم المجلات الأدبية في ذلك الوقت، بينما أنت ما زلت طالبًا؟

فيقول الأستاذ: بقلمه وحده، فقد كنت أرسل مقالاتي بالبريد، وفي يوم من الأيام أرسل لي رئيس تحرير «المجلة الجديدة» سلامة موسى، يطلب مقابلي، فذهبت إليه وكانت بداية معرفة طويلة. وفيما يتعلق بمجلة «المعرفة» كنت أيضًا أرسل مقالاتي ثم أتابع أعداد المجلة، فأجدها منشورة بها، ولم أكن في البداية أعرف صاحبها ورئيس تحريرها، لكننا بعد ذلك بسنوات تعارفنا في الفيشاوي وصرنا أصدقاء، وقد كان عبد العزيز الإسلامبولي، رحمه الله، رجل أدب وثقافة وكان يكتب القصة القصيرة.

قلت: سمعت من نجل الأستاذ عبد العزيز الإسلامبولي، وهو عصام الإسلامبولي المحامي، أنه يسعى لإحياء مجلة والده كمجلة أدبية ثقافية متميزة.

فتنهل وجه الأستاذ نجيب محفوظ، وهو يقول: أتمنى أن يُوفق في ذلك، فما أشد حاجتنا اليوم إلى مثل تلك المجلات الأدبية الجادة، لقد كانت «المعرفة» مجلة أدبية فلسفية، وكانت تكتب بها أحسن الأقلام، مثل الشيخ مصطفى عبد الرزاق ومنصور فهمي، كما كانت تنشر الأحاديث مع لطفي السيد وغيرهم، وإن هذا الدور التنويري مطلوب الآن أكثر من أي وقت مضى.

سألت الأستاذ نجيب محفوظ عن دور رأس المال الخاص في دعم وتمويل العمل العام بمناسبة تلك التبرعات الفلكية التي نسمع عنها في الخارج التي كان آخرها تبرع تدتييرنر صاحب محطة «سي إن إن» الأمريكية بأكثر مبلغ تم التبرع به في التاريخ، وهو مليار دولار وهبها للأنشطة الإنسانية للأمم المتحدة، على مدى السنوات العشر القادمة، فقال: إن التبرع للناس هو من السمات المتأصلة في مجتمعنا منذ قديم الزمن، إلى درجة أن أنشئت لذلك وزارة خاصة من بين وزارات الدولة هي وزارة الأوقاف، التي كانت في الماضي من الوزارات المهمة. فإن هذه الوزارة التي عملت بها في بداية حياتي إنما تقوم على الأموال التي أوقفها أصحابها لمساعدة المحتاجين، وقد قامت بدور إنساني واجتماعي كبير في هذا الصدد، إلى درجة أن أصبحت أموالها مطمئناً للبعض. وأذكر أنني حين كنت أعمل سكرتيراً بالوزارة للمرحوم علي عبد الرازق باشا وزير الأوقاف الأسبق، أن كان هناك وقف هو عبارة عن ضيعة شاسعة تزيد على العشرين ألف فدان، وتقع بعد القناطر الخيرية، وقد طمع جلالة الملك نفسه في إيرادها، فطلب أن تؤول إليه إدارتها، باعتباره الولي على الجميع، لكن عبد الرازق باشا طلب من مندوب السراي الانتظار حتى العام القادم، إذ إن الميزانية الحالية تم إعدادها متضمنة إيراد هذا الوقف. فما كان من الملك إلا أنه أصدر أمراً بضم الوقف على الفور، وحين توفيت زوجة علي عبد الرازق لم يرسل إليه الملك أي تعزية كما كانت العادة، ولقد اعتبر الوزير ذلك إهانة له، وعزم على الاستقالة، لكن رئيس الوزراء النقراشي باشا تدخل وأقنعه بالعدول عن ذلك حتى لا تسقط الوزارة. إذن فإن مسألة أن لرأس المال الخاص دوراً اجتماعياً، فهذا مفروغ منه وقد تم تحويله إلى نظام أساسي في الدولة، لكن هذا الدور من خلال الأوقاف ينصب أساساً على الجانب الإنساني، أما باقي المجتمع الحديث فإن دور رأس المال الخاص يتطرق إلى مجال الأنشطة العلمية والثقافية والتعليمية، ولذلك حديث آخر.

ويواصل الأستاذ نجيب محفوظ حديثه عن دور رأس المال الخاص في العمل العام، فيقول: في مجتمعنا الحديث فإن دور رأس المال الخاص يزيد كثيرًا على مجرد مساعدة المحتاجين، ليصبح موردًا أساسيًا من موارد عملية التنمية الشاملة للمجتمع، خاصة إذا كنا قد اخترنا طريق الاقتصاد الحر الذي لا تحتكر الحكومة فيه كل الأنشطة. في هذا الإطار فإن على رأس المال الخاص أن يعاون في تمويل البحث العلمي مثلًا، وفي إنعاش الأنشطة الفنية والثقافية، إلى جانب الرعاية الصحية، مثل إقامة المستشفيات وخلافه.

ثم يضيف: إن علينا أن نتذكر أن رأس المال الخاص في مصر مهما بلغ من ثراء، فهو يعتبر نسبيًا حديث العهد، ولا يمكن مقارنته برأس المال الأمريكي أو الأوروبي، لذلك فهو أقل إقدامًا على مثل هذه الأعمال المهمة التي تؤكد الدور الاجتماعي لرأس المال. والسبب في ذلك هو أن رأس المال الخاص كان إلى عهد قريب لا يثق كثيرًا في مستقبل الوضع الاقتصادي ومن لا يشعر بالاطمئنان يميل إلى اكتناز المال، وليس إلى التبرع به. أما السبب الثاني فهو أن الكثير من أصحاب رأس المال الجديد من حديثي العهد بالمال، لذلك فليس لديهم تصور بأن دورهم الاجتماعي على درجة كبيرة من الأهمية، وهو دور لا نقاش فيه في الأنظمة الرأسمالية التي تأصلت على مدى عشرات السنين، أما عندنا فإن بعض من يقدمون على التبرع يفعلون ذلك بدافع الشفقة على بعض المحتاجين، وليس عن اقتناع بدور رأس المال في تنمية مختلف جوانب المجتمع. ثم يختتم حديثه قائلًا: لكنني أعتقد أن رأس المال عندنا صار له حوالي ربع قرن الآن في الساحة، وقد آن الأوان أن يتأصل دوره الاجتماعي بما يتفق مع حجمه المتزايد، وعلى كل مؤسسة مالية أن تضع في ميزانيتها بندًا ثابتًا للمصلحة العامة يتم الإنفاق منه في أوجه النشاط الاجتماعي المختلفة.

تحدث الأستاذ نجيب محفوظ عن المحاكمة التي تُجرى الآن للمفكر الفرنسي المسلم رجاء جارودي، فقال: إن ما أدهشني في ذلك هو أن يكون في فرنسا بلد الحريات، قانون يجرم التشكيك في محارق اليهود أثناء الحرب العالمية الأخيرة، ففي فرنسا يستطيع المفكر أن يُشكك في وجود الذات الإلهية، كما فعل جان بول سارتر بنظريته الوجودية، وكما فعل غيره قبله وبعده. كما يستطيع المؤرخ أن يشكك في الأحداث المرتبطة بحياة الأنبياء، كما فعل البعض أيضًا، لكنك وفق هذا القانون لا تستطيع أن تشكك في عدد اليهود ضحايا النازية. كيف يمكن لحادثة تاريخية أن تحاط بهذه القدسية التي لا يتمتع بها الأنبياء ذاتهم؟! إننا مع احترامنا للديانة اليهودية ورفضنا لمعاداة السامية، فنحن العرب ساميون أيضًا، إلا أننا نرى أن مثل هذا القانون من المتناقضات التي لا نعقلها. فالفواع الإنسانية مهما كانت بشاعتها فهي حادثة تاريخية يمكن دراستها أو إعادة دراستها مرات ومرات، ولا ينبغي أن يكون هناك حجر على البحث والدراسة، ولا يمكن أن يجازى من يقوم بهذه الدراسة ويقدم للمحاكمة.

ثم يختتم الأستاذ حديثه قائلاً: إننا في العالم العربي نرجو أن تكون فرنسا لا تزال البلد الذي عهدناه، والذي كان دائماً نموذجاً لنا في الدفاع عن الحرية، وأود أن يُدرك من يحاكمون جارودي أننا جميعاً ننظر إلى هذه المحاكمة بكثير من الترقب، لنعرف ما إذا كانت فرنسا هي بالفعل ذلك البلد أم لا، وكلنا أمل أن يكون صدور هذا القانون شيئاً استثنائياً في ثوب الحرية الأبيض الذي لم تخلعه فرنسا منذ الثورة الفرنسية.

قلت للأستاذ نجيب محفوظ: قال لي الأستاذ محمد حسنين هيكل إنه ظل يطارذك سنوات لكي يضمك إلى «الأهرام»، وإن ذلك كان بتوصية من توفيق الحكيم، الذي رشحك للانضمام إلى زمرة كبار الكُتَّاب بـ«الأهرام»، فما قصة انضمامك إلى «الأهرام»؟

قال: في عام ١٩٥٧ كنا ذات مساء في منزل إحسان عبد القدوس، حيث أقام لي إحسان - رحمه الله - حفلاً للاحتفال بفوزي بجائزة الدولة القديمة قبل إنشاء المجلس الأعلى للثقافة، فأرسل لي الأستاذ محمد حسنين هيكل، وكان قد تولى حديثاً رئاسة تحرير «الأهرام»، الأستاذ علي حمدي الجمال - رحمه الله، الذي قال لي إنني أتحدث إليك باسم الأستاذ هيكل، وهو يقول لك إن عمك الروائي القادم يجب أن تنشره بـ«الأهرام». وفي ذلك الوقت كنت متوقفاً عن الكتابة، لكن إزاء هذا العرض الكريم اكتفيت بالموافقة والشكر، وقلت له: أعددك أن أول عمل سأكتبه سأعطيه لك يا علي بيه. وقد جاء ذلك العمل بعد حوالي ثلاث سنوات، وكان رواية «أولاد حارتنا». وحين تركت مؤسسة السينما وعيني وزير الثقافة الدكتور ثروت عكاشة مستشاراً له اتصل بي الأستاذ هيكل نفسه، وقال لي: مكتبك جاهز في «الأهرام». فقلت له: أخشى أن يتصور الدكتور عكاشة أنني أنتقل إلى «الأهرام» احتجاجاً، وظللت بالوزارة إلى أن تمت إحالتي إلى المعاش، فشعرت بأنني قد أصبحت حراً أن أختار لنفسى الموقع الذي أريده. فتوجهت في نفس اليوم إلى الأستاذ الجمال بـ«الأهرام»، وما إن أخبر الأستاذ هيكل بوجودي حتى طلبني، وكان المكتب الذي وعدني به قد تم شغله بالطبع، حيث أقام هيكل وحدة دراسات جديدة، كان القائمون عليها آنذاك الأستاذ حاتم صادق وزوجته الدكتورة هدى عبد الناصر، لذلك فقد اقترح عليّ الأستاذ هيكل أن أجلس في غرفة أخرى، كان يجلس بها كل من د. حسين فوزي ود. عائشة عبد الرحمن، وهي الغرفة الملاصقة لغرفة توفيق الحكيم، وكان ذلك في الدور السادس الشهير الذي جمع فيه هيكل أكبر كُتَّاب ومفكري البلد في ذلك الوقت، والذي كان يضم أيضاً د. زكي نجيب محمود وصلاح طاهر وآخرين. والحقيقة أن الأستاذ هيكل كان يعتني بالكُتَّاب أشد اعتناء، وكان يكن لهم تقديراً واحتراماً كبيرين، حيث كان وهو في عز هيلمانه إذا أراد التحدث إلى أحد منا كان يأتي إلينا بنفسه، ولم يحدث أن استدعى أحداً منا إلى مكتبه، وقد كان قادراً أن يستدعي الوزراء وكبار المسؤولين فيأتونه سعداء، ولم نشهد من هيكل طوال فترة عملنا معه إلا كل رقة وذوق وإنسانية.

قلت: ثم دارت الأيام ورحل توفيق الحكيم، ورأى «الأهرام» أن غرفته الشهيرة يجب أن تكون لك، فانتقلت إليها، لكن لم أرك قطُ جالساً على المكتب الذي بها.

فقال: كان هذا هو مكتب توفيق الحكيم، ولم أكن أتصور أن يجلس عليه أحد غيره، لذلك ظللت أجلس على الأريكة التي اعتدت الجلوس عليها كلما زرت توفيق الحكيم.

يوصل الأستاذ نجيب محفوظ حديثه عن «الأهرام»، فيقول: إن ارتباطي بـ«الأهرام» يمثل نقلة مهمة جدًا في حياتي، فقبل ذلك كان تعاملي مقصورًا على عالم الكتب والمكتبات، أما بعد أن انضمت إلى «الأهرام» فقد أصبح اتصالي مباشرة بالجماهير. فحين أنتهي من رواية بدلًا من أن أبعث بها إلى الناشر لتصدر في كتاب، كنت أعطيها لـ«الأهرام»، كان يهتم برواياتي أكبر اهتمام، وذلك بتوجيه خاص من الأستاذ هيكل، فكان ينوه عنها قبل النشر بفترة، وكان يفرد لها المساحات اللازمة لإبرازها، والحقيقة أنني مدين لـ«الأهرام» بالكثير من جماهيريتي لما قدمه لي من فرصة للانتشار بين قطاع كبير من القراء لا يشترون الكتب. ولقد كنت أنشر قصة قصيرة جديدة كل شهر ورواية كل سنة، واستمرت على هذا المنوال إلى أن حدث بعض الاضطراب في النشر بعد حرب يونيو ١٩٦٧، ثم عدت بعد ذلك إلى النظام نفسه، إلى أن جاءت جائزة نوبل كالزوال، فاضطرب كل شيء، ثم تلت ذلك توابع نوبل بمحاولة الاغتيال منذ أكثر من ثلاث سنوات، فتغير نظام حياتي تمامًا. بعد نوبل نشرت روايتين، الأولى هي «قشتمر» التي كنت قد بدأت نشرها وقت فوزي بالجائزة، ثم «أصدقاء السيرة الذاتية» بالإضافة إلى القصص القصيرة جدًا، التي تنشرها حاليًا مجلة «نصف الدنيا». أما أول رواية نُشرت لي في «الأهرام» فكانت «أولاد حارتنا» عام ١٩٥٩ والتي كانت أول عمل لي لا أبعث به إلى الناشر، وإنما قدمته لـ«الأهرام» حسب اتفاقي مع الأستاذ هيكل، الآن حين أنظر إلى ما أصابني من هذه الرواية ومن سوء الفهم الذي اكتنفها، أقول ربما كانت تلك هي الرواية التي كان يجب أن أكتفي بإصدارها في كتاب، ولا تُنشر مسلسلة على الجماهير. لكنني لم أكن أتصور من قريب أو بعيد ما ستأتي به لي هذه الرواية من متاعب، وذلك دليل على حسن نيتي، فقد دُهِشت في البداية حين قُوبلت الرواية بضجة أثناء نشرها على حلقات بـ«الأهرام»، لكن يُذكر للأستاذ هيكل أنه أصر على استمرار النشر كاملاً، رغم كل شيء، إلى أن اكتملت الرواية.

سأل مندوب الإذاعة الألمانية الأستاذ نجيب محفوظ إن كان يشعر بعد كل هذا العمر بأنه حقق الرسالة التي كان يريد لها.

فقال: أعتقد أنني حققت ما أستطيعه، فقط أشعر في بعض الأحيان بأنني كنت أريد تحقيق الأكثر بكتابة أعمال جديدة لم أتمكن منها، وبالوصول بفن الرواية إلى آفاق جديدة لم يتيسر لي بلوغها رغم تصوري الفكري لها. لكني لم أشعر أبدًا أنني قصرت في عملي، بالقياس إلى ما كان مستطاعًا لي من حيث إيجاد الوقت اللازم للكتابة، ومن حيث الالتزام بالعمل الأدبي قبل أي عمل آخر، ومن حيث القدرة العملية على الكتابة. أما النتائج فأكبر من أن يحققها كاتب وحده أو مجموعة كتاب مجتمعين، لذلك فأنا إن كنت دائمًا أرى أنه كان بالإمكان أن أنجز أكثر، فإنني إلى حد كبير راضٍ عن أنني فعلت ما كان باستطاعتي.

فسأله مندوب الإذاعة: كيف ترى واقع ومستقبل الأدب العربي، وقد كنت أنت الذي شكلته خلال نصف القرن الأخير؟

فقال: للأسف فإن الأدب العربي الآن واقع بين شقّي الرحي، ففي الكثير من الدول العربية يعاني الكُتّاب من الرقابة المفروضة عليهم من قبل بعض الأنظمة السياسية، التي تُحد من قدرتهم على التعبير الحر، أما في الدول العربية الأخرى فإن الاتجاه إلى التطرف الديني يشكل قيدًا آخر على الأدباء لا يقل خطورة عن الرقابة السياسية، وذلك بلا شك يفرض على الأدب العربي قيودًا تحد من انطلاقه. ولذلك فقد وجدت في بعض ما اطلعت عليه من الأعمال الأدبية الحديثة اتجاهًا نحو الانسحاب من الحياة العامة الاجتماعية والسياسية والانغلاق على النفس، بالتعبير عن موقف الشخص من الجنس أو الدين أو خلافه، هذا فضلًا عن أن الأدب ككل، قد اهتزت مكانته لمنافسة التلفزيون له.

فسأله المندوب: وهل ترى أن هذا الوضع الأدبي سيتغير قريبًا؟

فقال له الأستاذ: صحة السؤال هي: هل سيتغير المجتمع العربي قريبًا؟

قال الأستاذ نجيب محفوظ: أعجب من هذا الهدوء الغريب الذي تمر فيه الذكرى المئوية للراحل الكبير توفيق الحكيم. إن للحكيم مكانة فريدة في الأدب العربي، فقد وُلد الحكيم في حياتنا الأدبية عملاقًا من اللحظة الأولى، فكانت أول مسرحية يُعرف بها هي «أهل الكهف» إحدى الروائع الخالدة في المسرح العربي، لقد كانت بمثابة قنبلة أدبية انفجرت في حياتنا الثقافية محدثة دويًا هائلًا. وما لفت نظري إليها هو أن بعض من لم يكونوا كثيري الثناء على الأعمال الجديدة قد امتدحوها مدحًا شديدًا، مثل عملاق الأدب العربي عباس محمود العقاد، كما أن آخرين من خارج مجال النقد الأدبي انفعلوا بها ونقدوها بجمال فائق عملاق مثل المغفور له الشيخ مصطفى عبد الرازق. أما أنا شخصيًا فقد بُهرت بها حين قرأتها وعرفت من خلالها أن فنًا جديدًا وفنًا جديدًا قد دخل فجأة الحياة الأدبية العربية، ومنذ ذلك الحين بدأت أتتبع توفيق الحكيم في كل ما يكتبه، فلم يخذلني أبدًا. كانت كل أعماله على نفس درجة توقعاتنا، من فنان مثله، فقد حدث هذا مع روايته الرائعة «عودة الروح» ومع الكثير من قصصه القصيرة أيضًا.

ويختتم الأستاذ حديثه قائلاً: إنني دائماً ما أمثل توفيق الحكيم ببخيرة عملاقة مثل بحيرة فيكتوريا، خرجت منها جداولنا الأدبية، وتفرعت عنها روافد كثيرة في المسرح والرواية والقصة القصيرة، كما كان صاحب فكر عميق أثر في جيل كامل من القراء، فهل يُعقل أن تمر الذكرى المئوية الأولى له بهذه الطريقة المخجلة؟!!

قال الأستاذ نجيب محفوظ: في مثل هذه الأيام من كل عام كان توفيق الحكيم ينتقل إلى الإسكندرية لقضاء أشهر الصيف، وكانت جلساته في كازينو بترو من أمتع الجلسات، فقد كان يتحدث فيها في أمور كثيرة، شخصية وعامة، فتعرفت من خلالها على آرائه في الحياة والفن، كما عرفت تفاصيل حياته الشخصية، وكيف كانت علاقته بوالده الذي أرسله إلى فرنسا للحصول على الدكتوراه في القانون، فهوى المسرح والفن وعاد دون الرسالة. ولقد كان الحكيم ينطلق في هذه الجلسات على سجيته، فكان من أمتع المتحدثين، ولم يكن يدانيه في حديثه الشيق إلا الموسيقار الراحل زكريا أحمد. ولقد تعرفت من خلال هذه الجلسات على الكثيرين من أدباء الإسكندرية من الشباب الذين كانوا يحرسون على حضور مجلس الحكيم، كما تعرفت أيضاً على مجموعة من أصدقائه القدامى، الذين كانوا ينتمون إلى ما كان يُعرف وقتها بالعهد البائد، مثل إبراهيم باشا فرج وبرهان باشا نور وشمس الدين باشا عبد الغفار وغيرهم. وفي البداية كان هؤلاء الباشوات متخوفين مني، فقد كانت قصصي تُنشر في ذلك الوقت بـ«الأهرام» الذي كان معروفاً بارتباطه بالسلطة في ظل رئاسة الأستاذ محمد حسنين هيكل، فكانوا حذرين في حديثهم أمامي، لكن الحكيم أخذ لهم مني الأمان، بعد أن قال لهم إنني «عهدته» الشخصية!

ثم يتحدث نجيب محفوظ عن علاقته الشخصية بتوفيق الحكيم، فيقول: إن علاقتي بتوفيق الحكيم بدأت بـ«زقاق المدق». فقد كان لنا صديق مشترك هو محمد متولي الذي كان مديرًا لدار الأوبرا، وفي يوم قال للحكيم: سأهديك رواية لشاب جديد، وقد فوجئ متولي بعد ذلك بأن الحكيم قرأ الرواية كاملة، وطلب منه أن يرسل له كاتبها لمقابلته، وقد ذهبت إليه بالفعل في مقهى كان يقع أمام مبنى البنك المركزي الحالي فوجدته جالسًا مع صديق له وهو الدكتور محمود دسوقي أستاذ اللغة الألمانية، وكان أول ما قاله لي الحكيم هو: سأعزم عليك بقهوة فتقول متشكر، فألح عليك، ثم يأتي الحساب فأصمم على دفعه وتصمم أنت بدورك، فبدلاً من كل ذلك فليطلب كل منا ما يريد ويدفع حسابه! وبعد أن اطمأن إلى تسوية هذا الموضوع بدأ يحدثني عن روايتي وعن الأدب بشكل عام، وفي نهاية الجلسة كنا قد تقاربنا والتقت أفكارنا، وانتظر الحكيم حتى جاء الحساب فوجدني أدفع حسابي كما اتفقنا فزاده ذلك اطمئنانًا، وكنا على مشارف فصل الصيف فدعاني إلى الانضمام إلى جلسته الأسبوعية في مقهاه المعتاد بالإسكندرية. وقد كنت أنا الذي اقترحت عليه مقهى بترو، ففي طريقي إلى المقهى الذي كان قد حدده لي رأيت مقهى بترو على الكورنيش فقلت له إنه أفضل من المقهى الذي يجلس فيه، وحين رآه توفيق الحكيم أعجب به ونقل جلسته إلى هذا المقهى الذي ارتبط باسمه لسنوات طويلة قبل أن يُزال وتُبنى مكانه عمارة سكنية عملاقة.

قال الباحث الإندونيسي الذي يُعد رسالة الدكتوراه عن نجيب محفوظ في جامعة روما: سيدي إن إندونيسيا دولة يصل تعدادها إلى حوالي ٢٠٧ ملايين نسمة، ورغم أن بها خمسة أديان مختلفة فإن ٨٧٪ من سكانها يدينون بالإسلام، ومعظم من يحدثوننا عن الإسلام في إندونيسيا قد درسوه في الأزهر، وهم يقدمون لنا رؤية تقليدية جامدة لهذا الدين الفريد المتميز، لكنني وجدت في أعمالك بعداً دينياً مهماً يقدم الإسلام بشكل متقدم كثيراً عن المدرسة الأزهرية!

فقال الأستاذ: إن الدين يمثل بعداً أصيلاً ومهماً في الشخصية المصرية، وأعمال الروائية تقدم شخصيات من واقعنا، ولذلك فهي لا يمكن أن تتجاهل هذا المكون الأساسي للشخصية المصرية منذ عهد الفراعنة وإلى الآن.

ثم استطرد الأستاذ: وأنا لا أقصد هنا الدين حين يتحول إلى حركة سياسية تلجأ إلى العنف أحياناً لتحقيق أهدافها في الوصول إلى الحكم، لكنني أتحدث عن الدين كعقيدة سامية تدفع الإنسان من ناحية إلى التحلي بالفضيلة والقيم الأخلاقية، ومن ناحية أخرى إلى الرُّقي والتقدم بما تقوم عليه من إيمان بالخالق الأعظم واتصال مباشر مع الذات الكبرى، مما يعين الإنسان على خوض هذه الحياة التي كثيراً ما تكون بها المصاعب والمشاق صعبة الاجتياز.

فقال الباحث الإندونيسي: لقد لاحظنا في «الثلاثية» أنكم سميت إحدى الشخصيات التي كانت تبحث عن المعرفة الدينية الحقيقية كمال، فهل كنت تريد بذلك أن تقول إن مثل هذا البحث يوصل إلى الكمال؟

فقال الأستاذ: لست أعرف، فبعض ما يكتبه الأديب يتم بشكل غير واعٍ ويخرج مباشرة من عقله الباطن.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: لقد حزنت حزناً كبيراً على وفاة الشاعر العظيم نزار قباني.

قلت: من نزار قباني من وجهة نظرك؟

قال: هو رجل غنى على معشوقتين: المرأة والقومية العربية، وقد تغنى بهما بأسلوب سهل ممتنع وصل إلى قلوب الجماهير، ولقد جعل نزار من الشعر الذي هو عادة مغترب بعض الشيء أغنية الجماهير وهتافاتهما، وذلك أروع ما يمكن أن يصل إليه أي فن من الفنون. وقد كان لبعض اليساريين موقف منه، لكنني كنت دائماً أعارض ذلك وأدافع عن شعر نزار باعتباره شعراً جميلاً يجب أن يُقدّر، فليس من الضروري أن يكون كل الشعر عن العمال! إن الشعر عن المرأة قد يكون أجمل.

قلت: كيف كانت علاقتك به؟

قال: علاقتي به العامة كانت أكثر من الخاصة، فخلال حياتي كلها قابلته مرة واحدة فقط، وذلك حين كان في مصر وأراد أن يزور الحرافيش، فجاء وسهر معنا ليلة، وكان غاية في اللطف وقد أخذ يتغنى ببعض أشعاره وأشعار غيره، فكانت السهرة ممتعة، وكان بها من السياسة قدر ما كان بها من الفن، لكن روحه كانت جميلة جداً وتركنا جميعاً سعداء بمقابلته ومحبين له. وقد ظلت العلاقة قائمة بيننا وطيبة، ولكن عن بُعد، فقد قرأت كل دواوينه، وكان مكانه دائماً في القلب مني، وأذكر أنني حين حصلت على جائزة نوبل، أنه من أجمل ما كُتِبَ آنذاك كان مقالاً له نُشر هنا في القاهرة، وقد عرج فيه أيضاً على المرأة، فقال إنه إذا كان نجيب محفوظ قد أصدر ٥٠ رواية، فإن علينا أن نكافئ المرأة التي تحملت تأليف ٥٠ رواية.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: إن الغالبية العظمى من كُتَّابنا الكبار، الذين تعلمنا على أيديهم تربوا على الأدب الفرنسي والثقافة الفرنسية، مثل طه حسين، وهيكل، وتوفيق الحكيم، ويحيى حقي وغيرهم، ويوجد كُتَّاب كبار لم تكن ثقافتهم فرنسية، لكنهم كانوا يقدرّون الثقافة الفرنسية وأدائها مثل عباس العقاد، الذي كتب كثيرًا يعرفنا بكبار الأدباء الفرنسيين، وعن طريق هؤلاء جميعًا تأثرنا بالمنهج الأدبي الفرنسي وبالرؤية الفرنسية للفن والحياة والأدب. فقد كان هؤلاء الأدباء الرواد هم سبيلنا إلى الأدباء الفرنسيين، وذلك عن طريق الترجمة أو عن طريق الكتابة المباشرة، فعن طريقهم عرفنا أناتول فرانس، وأندريه جيد، وموروا، وجي دي موباسان، الذي نشأت له مدرسة في القصة القصيرة عندنا كان شيخها هو المرحوم محمود تيمور.

وسألته: ومَن من الأدباء الفرنسيين أثر فيك بشكل خاص؟

قال: لقد تأثرت بالكثيرين مثل فلوبيير في رائعته الشهيرة «مدام بوفاري»، وناهيك عن بلزاك الذي قرأت أهم شوامخه عن طريق الترجمة، أما إميل زولا فقد قرأت له بالفرنسية رواية «نانا». ثم يقول الأستاذ: إن الأدب الفرنسي كانت له تأثيرات متعددة على أدبنا العربي، قل أن تجدها في الآداب الأخرى التي عرفناها.

يوصل الأستاذ حديثه عن تأثير الثقافة الفرنسية والأدب على ثقافتنا الحديثة، فيقول: إن تأثير الثقافة الفرنسية لم يكن مقصوراً على الأدب وحده، فأنا أذكر مثلاً أن أحد كبار أساتذة الفلسفة في العشرينيات والثلاثينيات في العالم كان لا لاند الفرنسي صاحب القاموس الشهير الذي يحمل اسمه، وهذا الأستاذ كان يدرس لنا بالجامعة. فقد كان قسم الفلسفة بكلية الآداب قسمًا فرنسيًا، وكانت فرنسا قد أهدت مصر هذا الأستاذ الكبير ضمن أساتذة آخرين أثناء زيارة الملك فؤاد إلى أوروبا عام ١٩٢٥، لقد كان هؤلاء الأساتذة لا يتقاضون من الحكومة المصرية إلا بدل الإقامة فقط، أما مرتباتهم فكانت تأتيهم من السوربون بباريس.

وأسأل: وما أكثر كتاب فرنسي أثر في نفسك؟

فيقول: في الأدب كان لرائعة مارسيل بروست الضخمة «البحث عن الزمن الضائع» تأثير كبير عليّ، لقد كان يقال إنه بعد صدورها أصبح أدباء العالم يصنّفون على أنهم بروستيون أو معادون للبروستية. وهذه الرواية في الحقيقة تُقدم عالمًا جميلًا وعميقًا، لكنها بحاجة إلى صبر وجلد كبيرين، لانتهاء من صفحاتها التي يبلغ عددها ٥ آلاف صفحة، والغريب أنها في نهايتها تتضمن دعوة لإعادة قراءتها، ففي الكلمة الأخيرة تجد أخيرًا مفتاح أحداثها، لكن للأسف لم أقدم على ذلك لأن العمر قصير.

قال المسرحي والصحفي اللبناني الشاب خالد المجذوب للأستاذ نجيب محفوظ: قلت في كتابك «وطني مصر» إن الإسلام هو دين عقل ومعرفة وعلم، وإنه استخلص من كل الحضارات أحسن ما فيها، حيث إنه لم يُفرق بين الأسود والأصفر والأبيض، ولا بين الغني والفقير، ولا بين الحاكم والمحكوم، فكيف تنظر إلى الإسلام في ضوء ما يحدث في العالم الإسلامي اليوم؟ وأين أصبحت العقيدة الإسلامية التي تحدثت عنها بهذا الإعجاب والتقدير؟

فقال الأستاذ: بالطبع في حديثنا عن الإسلام لا نستطيع أن نتجاهل الأفكار المتطرفة التي أفرزت العنف والإرهاب، وكل فكر أو فلسفة في العالم به دائماً الوسط واليمين واليسار، أي أن به جانباً متطرفاً. ونفس الآراء المتطرفة الرائجة اليوم قد سمعتها في الماضي وأنا صبي، لكن كنا نضحك عليها ولا نأخذها مأخذ الجد، لأن المناخ السائد آنذاك لم يكن يسمح لمثل هذه الأفكار بالازدهار. لكني لا أنكر أن تلك الأفكار قد أصبح لها الآن وجود في حياتنا وتأثير على بعض الناس، على أن الإسلام الحقيقي موجود في قلوب المسلمين الحقيقيين، ويجب أن يعلو صوته على صوت تلك النزعات غير المعبرة عن حقيقة هذا الدين الحنيف.

ثم سأله: وما السبب في أن ما كنت تسخر منه كطفل قد أصبح اليوم هذا الصوت العالي؟ فأجاب الأستاذ بمثال رمزي يحمل من الردود ما يعجز عنه الشرح المفصل، حيث قال: هناك نوع من الحشرات شكله يُلفت النظر ويُصدر صوتاً جميلاً ولا يؤذي، لذلك فهو يُستخدم للتسلية. وفي تجربة معملية تم تغيير البيئة الطبيعية لهذه الحشرات، فقللوا كمية الغذاء المتاحة لها وزادوا درجة الحرارة، فانقلبت هذه الحشرات إلى كائنات متوحشة تتصارع فيما بينها، وإذا طالت يدك تجربتها على الفور، بل تصيبك بقدر من التسمم رغم أنها في الأصل لم تكن سامة! ثم صمت الأستاذ، فلم يزد سائله حرفاً.

وتحدث الأستاذ نجيب محفوظ عن مكانة الأقباط في المجتمع المصري بمناسبة ما يُثار بشكل شبه دوري في الولايات المتحدة حول دعوى اضطهادهم، والتي وراها بالطبع جماعة الضغط اليهودية المعادية لمصر، فقال: إنني لا أتذكر أبداً منذ بداية وعيي على الحياة، أنه كان للأقباط أسباب للشكوى من اضطهاد أو تفرقة، فلم يكن هناك فرق بين المصريين ما بين مسلم أو مسيحي. وأذكر في المرحلة الليبرالية السابقة على الثورة أن كان الكثير من الوظائف الكبرى في الدولة يشغله الأقباط، وفي ذلك الوقت كان أهم شيء تظهر به التفرقة في المعاملة هو الوظائف. فقد كان الحزب الحاكم يغير ويبدل في الوظائف الكبرى كما يشاء، وفي فترات حكم الوفد بشكل خاص كان بعض معارفي من الأقباط يقولون لي: نحن الآن في العصر الذهبي للمساواة. ذلك أن الاضطهاد الذي كان سائداً آنذاك هو الاضطهاد السياسي وليس الديني، وكان ضحية ذلك هم المسلمين والمسيحيين معاً، فإذا كان الإنسان وفدياً كانت تأتي فترات يُفرق في المعاملة ضده ويُضطهد لأنه وفدي، وبصرف النظر عن ديانته، فيتم رفعتهم وتنحيتهم إلى أن يعود الوفد إلى الحكم مرة أخرى، فيعودون. وأذكر على سبيل المثال أنه في هذه الفترة حين لم يكن عدد الوزراء يزيد على ١٥ وزيراً، أن كان هناك وزيران من الأقباط، وأن رئيس مجلس النواب كان قبطياً، وأكاد أقول إنه كان هناك تمييز للأقباط في ذلك الوقت. على أنني أريد أن ألفت النظر إلى نقطة مهمة، وهي أنه إذا كان هناك تغيير طراً في هذا الصدد، فذلك ليس مرجعه تغييراً في طبيعة الشعب المصري، وإنما مرجعه هو الإرهاب وأفكاره التي انتشرت في الآونة الأخيرة، والتي لا تفرق ضد الأقباط وحدهم، وإنما ضد المسلمين أيضاً، ممن لا يسايرون اتجاهاتهم المتطرفة.

رجع الأستاذ نجيب بذاكرته إلى الورا، ليسترجع ذكريات المولد النبوي الذي حل هذا الأسبوع، فقال: أذكر أن مولد النبي كانت له مقدمة تستمر أيامًا طويلة، وكان عندنا في العباسية القديمة يُعتبر بدء الاحتفال به من أبهج المواسم في حياتنا، وكانت الاحتفالات تُجرى في منطقة خلاء شرق العباسية كانت ما زالت صحراء، نسميها أرض مولد النبي. وقد كنا في الأيام العادية نلعب بها الكرة، وقد كنت في بعض الأحيان أذهب إليها في ساعة الغروب لأستمع بمشهد مغيب الشمس، وقد أخذ معي كتابًا في الشعر أقرأه. أما مع حلول موعد المولد النبوي، فكان المكان يتحول إلى دائرة كبيرة محيطها يتكون من مجموعة سرادقات، وكان كل منها يتبع وزارة من الوزارات أو هيئة من الهيئات أو طريقة من الطرق الصوفية. وكانت هذه السرادقات تقدم التواشيح وقصائد المديح الخاصة بالرسول - صلى الله عليه وسلم، وكنا في طفولتنا نطوف على جميع هذه السرادقات لنستمع بكل منها على حدة، فهناك من يُنشد وهناك من يُلقي الخطب والمواعظ، ومن يتحدث عن حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم، وكان ذلك بمثابة مهرجان ثقافي فني متكامل. وقد لا تصدقني إن قلت لك إنني استمعت إلى محمد عبد الوهاب في أحد هذه السرادقات، فقد كان في زيارة إلى أحد السرادقات التي كانت لمشايخ إحدى الطرق التي كان ينتمي إليها والده، وكان هذا السرادق يقدم ذكرًا، وأذكر أن عبد الوهاب ليلتها قاد الذكر، فظل يغني وهم يذكرون، وفي النهاية أنشد أغنيته الشهيرة «أحب أشوفك كل يوم» تحية للرسول - صلى الله عليه وسلم، وكان ذلك ما بين سنوات العشرينيات والثلاثينيات. أما في الليلة الكبيرة، فكانت تُطلق الصواريخ في السماء، ولم أكن أعرف من أين كان يتم إطلاقها، لكننا كنا نشاهدها في العباسية تملأ سماء الدنيا كلها. وكنا ونحن أطفال ينتظر كل منا بخته في هذه الصواريخ، فكنا نقول مثلًا الطلقة القادمة هي لي: فتأتي كبيرة كالثرثرا تفترش السماء، وتحيل الليل نهارًا، وقد يخيب ظننا فلا تنفجر على الإطلاق. وبعد انتهاء الاحتفالات كان يتم إخلاء أرض المولد، فنشعر باكتئاب شديد، أما الآن فقد تحولت هذه الأرض إلى عمارات شاهقة، ولم أعد أسمع عن مثل هذه الاحتفالات.

سألت الأستاذ نجيب محفوظ عن رؤيته لأدب الاعتراف الذي يُعتبر جزءًا أساسيًا من الآداب العالمية، وإن كان عندنا يعتبره البعض تجاوزًا غير لائق، وذلك بمناسبة ما أثير حول بعض اعترافاته الشخصية للناقد الكبير رجاء النقاش في كتابه الأخير «نجيب محفوظ: صفحات من مذكراته»، فقال: إن أدب الاعتراف عندنا أيضًا جزء أصيل من التراث القديم والحديث، ففي تراثنا القديم هناك اعترافات الغزالي مثلًا، وفي تراثنا الحديث فإن من الأشياء التي جعلتني أزيد إعجابًا على إعجاب بسعد زغلول حين قرأت ما تيسرت لي قراءته من مذكراته. فوجدت كيف كان هذا الرجل العظيم يعترف بكل نقاط الضعف التي به، وكيف كان يبیت الليل يلعن نفسه حين كان يلعب القمار ويخسر، وهذا الذي نتحدث عنه هو زعيم سياسي كبير لا يُستهان به ولا بمكانته التاريخية، وحين يصارح العالم هكذا ويكشف عن كل دقائق حياته، فتلك شجاعة تستوجب الاحترام. وأنا معك أن ذلك نادر عندنا، فقليل جدًا من لديهم الجرأة أن يقولوا في مذكراتهم من أنا؟ ماذا كانت ظروف حياتي الخاصة؟ ما نقاط ضعفي؟ كيف تعاملت معها؟ كيف تجاوزتها؟ فنحن في العادة نحرص على أن نبدو أمام الناس وكأننا مثال للكمال، بينما في حياتنا الخاصة قد نكون غير ذلك.

قلت: لقد عالجت هذه الازدواجية كثيرًا في أدبك، وشخصية سي السيد الذي كانت حياته داخل أسرته شيئًا وفي الخارج شيئًا آخر هي خير مثال على ذلك.

فقال: في حالة سي السيد فإن ذلك كان في أمور تتعلق بمتعته الشخصية، لكن الازدواجية يمكن أن تكون على أكثر من مستوى بما في ذلك المستوى السياسي، وقد عرفنا في عصر سي السيد من كان يبدو غيورًا على وطنه فيُلقي الخطب العصماء، لكنه في الحقيقة عميل للإنجليز.

ويواصل الأستاذ حديثه عن أدب الاعتراف، فيقول: إن القيمة الحقيقية لهذه الاعترافات التي تأتي على لسان شخصيات لها مكانتها، هي أنها تبعث الأمل في الناس، فإذا كانت هذه الشخصيات العظيمة قد عانت من نقاط ضعف في حياتها، فإننا نحن أيضاً نستطيع أن نحقق الكثير في حياتنا رغم نقاط ضعفنا. وقيمة أدب الاعتراف تكمن في أنه يقول إن الإنسان رغم أي نواقص فهو قادر بإرادته على تغيير نفسه وعلى تحقيق ذاته، كما فعل مثلاً جان جاك روسو أو القديس أوجستين. إن من ليست لديه الشجاعة على أن يفعل ذلك فليترك كتابة المذكرات جانباً، لأن المذكرات ليس المقصود منها الدفاع عن النفس وتبرير مسلك الإنسان ومواقفه.

فسألت: وإلى أي مدى التزمت بذلك في كتابك الأخير مع رجاء النقاش؟

إلى أقصى مدى، فقد قلت الحقيقة كاملة في حدود الأسئلة التي وُجّهت لي، وحاولت أن أكون صادقاً مع نفسي سياسياً واجتماعياً. وقد كنت أعرف أن البعض سيعتبر بعض ما قلته عن حياتي الشخصية جريئاً، وما قلته عن آرائي السياسية مؤلماً، وأنا أتقدم بأسفي لكل هؤلاء، لكنني لم أكن أملك غير أن أقول الحقيقة.

في تصورك ما سبب عدم قدرة البعض على تقبل ذلك؟

ربما لأن بعض الناس حين يحكمون على هذا النوع من الكتابة فإنهم لا يفعلون ذلك وفق معايير أدبية، وإنما تسيطر عليهم مفاهيم اجتماعية زائفة.

عرضنا على الأستاذ نجيب محفوظ خطابًا وصلنا من الأستاذ عبد الله نوفل المحامي، يعترض فيه على إغفال مئوية الموسيقى الكبير الراحل زكريا أحمد، التي مرت مرور الكرام منذ سنتين، ويطلب سماع رأي الأستاذ نجيب في زكريا وفي الجلسات التي شاركه فيها على مدى سنين. فقال الأستاذ على الفور: لقد كان واجبًا على كل محب للموسيقى العربية أن يحتفل بالذكرى المئوية لميلاد الشيخ زكريا أحمد، لأنه كان صاحب أسلوب موسيقي مميز، وهو ما زال يعيش في وجدان الملايين، فقد أثر كثيرًا في الموسيقى العربية. وأنا أتساءل: أين معهد الموسيقى العربية من زكريا، هذا الموسيقى الكبير وتراثه؟ وأين المجلس الأعلى للثقافة؟!

ثم يضيف الأستاذ: إن زكريا أحمد يمثل تراثًا موسيقيًا فريدًا، إن هذا العملاق الموسيقي الذي رحل عنا في بداية الستينيات بدأ مبكرًا جدًا، فقد اكتشفت مثلًا أن أغنية «ارخي الستارة اللي في ريحنا» هي من تلحينه، كما لحن لمنيرة المهدية، كما لحن أغنيات دينية للشيخ علي محمود، ثم لحن لصالح عبد الحى، إلى أن وصل إلى أم كلثوم، أي أنه عاصر الموسيقى العربية الحديثة منذ بداياتها وحتى وصل إلى قمته. إن زكريا أحمد ملحن مصري صميم، وقد كان أقل الملحنين تأثيرًا بالموسيقى الغربية وأكثر أصالة، وإنني أشبهه دائمًا بـ«التقليية»، فكما أن «التقليية» في الطهي غير موجودة إلا في المطبخ الشرقي، فإن موسيقى زكريا أحمد هي الأخرى لها خصوصية معينة هي التي تعطي الموسيقى الشرقية مذاقها المميز.

قلت للأستاذ نجيب محفوظ: صوروك على أنك تحمل قدرًا كبيرًا من الكراهية الشخصية لجمال عبد الناصر كـبعض من نالهم الأذى في أثناء عهده، فصار هناك ثأر شخصي بينهم وبين كل ما يمت إليه من صلة.

فابتسم وقال: كل يقول من كلامي ما يروق له، والبعض يقول نصف قولي فقط ويخفي النصف الثاني، أما أنا فرأيي في جمال عبد الناصر معروف، فهو واحد من أكبر الزعماء السياسيين في تاريخنا الحديث، وقد كان ذلك هو رأيي في أثناء حكمه وهو رأيي الآن. وأنا في الحقيقة لم أصل إلى هذا الرأي إلا بعد تأميم القناة، فقبل ذلك لم أكن مرتاحًا لوثوب ضباط الجيش على الحكم وقد كنت أتصور بانتمائي للوفد أن عليهم أن يسلموا الحكم للوفد، وقد زاد توجسي خلال أزمة مارس ٥٤، لكنني مع تأميم القناة وجدت نفسي أمام زعيم حقيقي يسعى لاستقلال الأمة وتحرير قرارها السياسي، فكانت له مكانة كبيرة في نفسي، ثم ازدادت هذه المكانة حين سعى بعد ذلك لتحقيق العدالة الاجتماعية، وقد كان الاستقلال والعدالة الاجتماعية هدفين لكل وطني مصري، وقد جسدهما حزب الوفد في مرحلة ما قبل الثورة، ولقد كان رحيل عبد الناصر المفاجئ والذي تحل ذكراه هذا الأسبوع صدمة قوية بالنسبة لي شلت حركتي تمامًا حين سمعت بها، ولا أحد يستطيع أن ينكر التغيير الهائل الذي أحدثته الثورة في المجتمع العربي كله وليس في مصر وحدها.

ثم يضيف الأستاذ: لكن ذلك لا يعني أنني لم تكن لدي انتقادات على سياسات الثورة أعلنت عنها في حينها، فأنا الذي كتبت «ميرامار» و«ثرثرة فوق النيل» و«سائق القطار» و«الخوف»، وقد كتبت ونشرت جميعًا في أثناء حكم عبد الناصر، لكن هذه الانتقادات لم تهز مكانته عندي كزعيم كبير أحدث تغييرًا لا يمكن إنكاره، ووضع أسسًا جديدة للمجتمع. وعلى سبيل المثال إذا كنا اليوم جمهورية عصرية ولسنا ملكية متخلفة فالفضل في ذلك للثورة، وإذا كنا قد رفضنا عن أنفسنا النظام الطبقي القديم، فذلك أيضًا بفضل الثورة، أما إذا أراد البعض أن ينشر انتقاداتي وحدها، فذلك يعبر عن رأي الذي ينشر أكثر مما يعبر عن رأيي أنا.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: إن كتاب عباس محمود العقاد عن سعد زغلول واحد من أهم الكتب التي كتبها العقاد، وهو عمل مهم في المكتبة الوطنية العربية، ولست أعرف لماذا لا يتم تداوله الآن، فهو كتاب يحث على الوطنية ويحدد أصولها، كما أن به حديثاً كبيراً ومهمًا عن الشخصية المصرية وطبيعتها، ولقد كتب العقاد هذا الكتاب بعد أن اختلف مع حزب الوفد وخرج عليه مع السعديين. وكنت في ذلك الوقت من أشد المعجبين بالعقاد وكان انتمائي السياسي كله للوفد، لكني كنت مع العقاد وأؤيد أن تكون له وجهة نظر مختلفة عما كان يراه الحزب في ذلك الوقت، والحقيقة أنني كنت شابًا يغلب عليه الحماس ولم أكن أدرك أهمية مبدأ الالتزام الحزبي. وأذكر أن من شدة حماسي لكتاب العقاد أنني كتبت عنه مقالاً بجريدة «الأهرام» في ذلك الوقت، وما إن نُشر المقال حتى وجدت الأديب العلامة سلامة موسى الذي كانت تربطني به علاقة صداقة يرسل في طلبي، فذهبت إليه. فقال إنه قرأ مقالي في «الأهرام» عن كتاب العقاد، ونبهني بشكل أبوي إلى أنني موظف حكومي، وأن المسائل السياسية هذه أكبر مما يحتمله موقعي المتواضع، وأنه في هذه المعارك السياسية فإن مثلي يضيع كالحصى الصغير دون أن يدري به أحد، ونصحني بأن أنتبه لمستقبلي. لكني كان يجب أن أكتب عن هذا الكتاب، أولاً لأنه كان عن سعد زغلول الذي كان بطلنا جميعاً، ثم لأنه كتاب للعقاد الذي لم يكن لأحد في ذلك الوقت تأثير على فكري مثله. ويختتم الأستاذ حديثه قائلاً: إنني أناشد الدكتور سمير سرحان المسؤول عن مشروع مكتبة الأسرة إعادة طبع هذا الكتاب الذي سيفيد الشباب كثيرًا والذي سيملاهم وطنية.

سألت الأستاذ نجيب محفوظ: كيف تنظر إلى السنوات العشر الأخيرة التي مضت عليك منذ حصلت على أكبر جائزة عالمية في الأدب، وهي جائزة نوبل عام ١٩٨٨؟

فقال: لقد كانت الأعوام العشرة الأخيرة هي فترة دفع فاتورة الحساب، فقد كانت فرحة نوبل كبيرة جدًا من حيث قيمتها الأدبية بالنسبة لي وللأدب العربي عامة، كما أنها أحدثت نقلة مادية لا بأس بهاطمأنتني على مستقبل أسرتي الصغيرة، ولكن لأنني حصلت عليها في سن متأخرة، فقد تلتها مباشرة أمراض الشيخوخة والضعف العام. فكانت أولًا العملية التي اضطررت إلى إجرائها بلندن في القلب عام ١٩٩٠ وقد كانت تجربة شديدة ثم تلتها عملية الاعتداء عليّ عام ١٩٩٣ التي تطلبت هي الأخرى عملية جراحية لا تقل مشقة عن عملية لندن. ولأن سمعي وبصري كانا قد بدأ يضعفان، فقد نزل كل منهما بعد ذلك إلى المستوى الأدنى، حتى إنني الآن لا أستطيع الإبصار إلى أبعد من حوالي شبر واحد فقط، أما السمع فإن المتحدثين معي - وأنت أولهم - يعرفون المشقة التي أكبدهم إياها حتى يُسمعونني ما يقولون. أما ما لم أكن أتوقع أنني أستطيع العيش معه فهو الحرمان من منابع الثقافة التي عشت أستمتع بها طوال حياتي، مثل القراءة ومتابعة وسائل الإعلام من التلفزيون والإذاعة والاستماع إلى الموسيقى، وقد كانت هذه الأشياء هي متعة حياتي، كما أنه قد فاتني أيضًا بسبب ذلك الوهن الذي أنا فيه الآن أن أدخل العالم الحديث بالتعامل مع الكمبيوتر والإنترنت، وما إلى ذلك.

ثم يختم حديثه قائلاً: لكنني أقول لك في النهاية إنني أحمد الله على كل شيء، فإن طول العمر الذي عشته وما وهبه لي الله فيه من نعم يجعلني شاكراً دائماً، وقد كان عليّ في النهاية أن أدفع الثمن، فقد عشت حوالي عام بعد نوبل في فرحة الفوز، ثم بدأ بعد ذلك دفع فاتورة الحساب.

قال لي الأستاذ نجيب محفوظ: حزنت حزناً شديداً على احتراق «المسافرخانة» ففي كل مرة يحترق أثر من آثار مصر يكون جزء من تاريخنا الحي أيضاً قد احترق، لأن هذه الآثار ليست قطعاً متحفية صماء، وإنما هي أماكن حية ما زالت تنبض بالحياة. وأنا ما زلت أذكر روعة هذا المكان الذي ولد به الخديو إسماعيل، وأشعر وكأن جزءاً مني هو الذي احترق. وأنا ما زلت حتى الآن لا أفهم ما حدث، إنني أعرف هذه المنطقة جيداً، فقد أمضيت فيها طفولتي وصباي، وحتى بعد أن كبرت لم أنقطع عن زيارتها، وكما تعرف فقد كانت المسافرخانة تقع في منطقة الطبلية الملاصقة لقصر الشوق الذي اتخذت منه اسماً لإحدى رواياتي. وأنا أعرف أن هناك مركز مطافئ كبيراً متصلًا بقسم الجمالية، فكيف لم تتم السيطرة على النيران التي يقال إنها استمرت ثلاثة أيام؟ لقد قيل إن عربات المطافئ لم تتمكن من الوصول إلى النيران بسبب ضيق الحواري والأزقة، فكيف ذلك؟! إذا كانت عربات المطافئ لم تستطع الدخول، فكيف لم تدخل خرطوم المياه؟ هل كانت الشوارع أضيق من خرطوم المياه؟! إن هذه المسألة في حاجة إلى تحقيق كبير، لأن الكثير من الآثار الإسلامية تقع في أماكن شبيهة بهذا الموقع، فهل سنتركها تتحول إلى رماد على مشهد من عربات المطافئ العاجزة؟!!

ثم يضيف: إن المخيف في الأمر هو أن المسألة ليست مقصورة على الآثار وحدها، فماذا عن السكان الذين يسكنون هذه المنطقة في «حواري» وأزقة لا تتسع لمرور عربات المطافئ؟ إن القول إن المطافئ لا تستطيع دخول هذه الأماكن إنما يعني أن جميع هؤلاء مهددون لأنه إذا نشبت أي حرائق - لا قدر الله - في منازلهم، فإننا لن نستطيع أن نفعل لهم شيئاً، فهل هذا معقول؟!!

بمناسبة حلول الذكرى الخامسة والعشرين لرحيل عميد الأدب العربي د. طه حسين، سألت الأستاذ نجيب محفوظ عن ذكرياته عنه، فقال: الحقيقة إنني أول ما سمعت بطه حسين كنت طالبًا بالمرحلة الثانوية، وكان في ذلك الوقت كالأسطورة، فالجميع كانوا يتحدثون عن طه حسين بسبب الأفكار الجديدة التي كان يطرحها. فتأثيره في نفسي سبق تأثيري به عن طريق القراءة، وقراءتي له كانت قراءة أدبية في الأساس لأنني لم أكن أحب أن أقرأ مقالاته السياسية التي كان يكتب فيها ضد الوفد، فكنت مثلًا أتابع قراءة «حديث الأربعاء». وقرأت له «على هامش السيرة» و«الأيام»، وكان لهذه الأخيرة تأثير كبير جدًا في نفسي، والحقيقة إن طه حسين أثر في جيلي بشيئين: أولاً بالثورة الفكرية التي أحدثها، ثم برواية «الأيام» التي كانت تحفة أدبية غير مسبوقه. فرغم أن الرواية كقالب فني كانت على هامش حياته، فإنه قدم عدة أشكال جديدة للرواية العربية، فمثلما قدم الرواية المعتمدة على الترجمة الذاتية في الأيام، فقد قدم أيضًا الرواية الموضوعية الرومانسية في «دعاء الكروان»، وقدم رواية اليوميات «Chrdnical novel» في «شجرة البؤس»، وكنت لأول مرة أقرأ هذا النوع من الرواية. وقد أعجبنى للغاية فتابعته في روايات جولز وورثي البريطاني وتولستوي الروسي وتوماس مان الألماني، وربما جاءتني الفكرة والنية أن أكتب الثلاثية أثناء قراءتي لـ«شجرة البؤس»، فقد فتنت بفكرة تتالي الأجيال وما تكشف عنها من تناقضات وما ترويه من تاريخ وما تقدمه من مشاعر وعواطف. فرغم أن «شجرة البؤس» رواية قصيرة فإنها كان لها أبعاد الأثر في نفسي، وقد أعطى لنا طه حسين هذه الأشكال المتعددة للرواية وكأنه كاتب روائي متخصص.

قلت للأستاذ نجيب محفوظ: تحدثت في الأسبوع الماضي عن تأثير طه حسين على جيلك وعلى تكوينك كروائي، فماذا عن علاقتك الشخصية به؟

قال: أول اتصال شخصي بيننا كان حين تم إنشاء نادي القصة، فقد دعاه يوسف السباعي في ذلك الوقت ليشغل منصب الرئيس الشرفي للنادي، فذهبنا إلى النادي لتتعرّف وجهًا لوجه لأول مرة بـطه حسين الذي طالما أعجبنا به عن بعد أشد الإعجاب، وتأثرنا تأثرًا بالغًا بما قدمه من ثورة فكرية وبما ألفه من روايات مميزة، لكن طه حسين كان قد كتب عنا كجيل قبل ذلك دون أن يعرفنا. وقد فزت أنا شخصيًا بمقالين كانا من العوامل المؤثرة جدًا في حياتي، فمن الأشياء التي أعتز بها أكثر من جوائز كثيرة ذلك المقال الذي كتبه طه حسين عن «زقاق المدق»، كما أن مقاله عن «بين القصرين» لا يُنسى، وكان كل منهما مفاجأة كبيرة لي. ولقد دعاني بعد ذلك د. طه حسين أن أزوره بقصره الذي تحول الآن إلى متحف، وقد أصبحت أذهب إليه في زيارات دورية، إما وحدي أو مع ثروت أباظة الذي كان صديقًا له، وكانت جلساتنا أدبية تدور حول الأدباء والجيل الجديد، وأذكر أنه رحمه الله كان منزعًا جدًا من استخدام العامية في الأدب، كما كان يأخذ على الجيل الجديد أنه لا يولي الاعتبار اللازم للغة. والحقيقة إننا لا نستطيع أن نتحدث عن طه حسين دون أن نتحدث عن أسلوبه الأدبي، فقد كان له أسلوبه الخاص وموسيقيته الخاصة، والغريب في الأمر أنه برغم انتقاداته القاسية للمنفلوطي، فأنا أعتقد أنه تأثر بجماليات أسلوب المنفلوطي تأثرًا كبيرًا، وقد كان أسلوب طه حسين له نغم ربما بسبب أنه كان يملي ما يكتبه، لذلك كان يسمع جرس اللغة ونغمها وهو يؤلف كتبه.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: تابعت أخبار القمة الأفريقية التي انعقدت في باريس والدور البارز الذي كان لمصر فيها، لأنني كنت دائماً من المؤمنين بالروابط القوية التي تربطنا بالقارة منذ التاريخ القديم، والتي دعت البعض إلى القول بأن الحضارة المصرية القديمة هي حضارة زنجية. وحتى إن لم يكن هذا هو رأينا، فإننا لا يمكن أن ننكر الاتصال الوثيق الذي كان لمصر القديمة بالجنوب، ونهر النيل الذي هو شريان الحياة في مصر قادم إلينا من قلب أفريقيا، وهو يربط بصلة الرحم بين تسع دول أفريقية. لذلك فقد كانت علاقات مصر بأفريقيا سمة مميزة للسياسة المصرية على مر العصور، وفي العصر الحديث ظهر ذلك بشكل واضح من عصر محمد علي، ثم في عصر إسماعيل من بعده. وكان أكبر اتصال لنا بقرتنا الأفريقية في عهد جمال عبد الناصر، حين كانت مصر نصيراً لكل دولة أفريقية تسعى إلى التحرر من الاستعمار والعبودية، وقد وقفت مصر مع كل هذه الدول كما وقفت هذه الدول مع مصر والعرب، فكانت دائماً سنداً في المحافل الدولية كلما طُرحت قضية الشرق الأوسط على مائدة البحث، حتى إن الدول الأفريقية اعتبرت القضية الفلسطينية قضيتها. وأنا أرى أن علينا في المرحلة القادمة أن نزيد من هذه الروابط، فنحن نواجه مرحلة العولمة التي لا مكان فيها للكيانات الفردية، وإعطاء أفريقيا القوة التي تستحقها على الساحة الدولية لن يتحقق إلا إذا ازدادت الروابط بين دولها، بل إنني أدعو إلى إيجاد صيغة ما تجعل بقية العرب جزءاً من هذه المنظومة السياسية، فالعالم العربي الجزء الأكبر من سكانه من الأفارقة. لذلك فلا يجوز هنا أن يكون التقسيم جغرافياً، لأن العرب أمة واحدة يقع جزء منها في آسيا والجزء الآخر في أفريقيا، لذلك فإنني لم أكن سعيداً باستبعاد دولتين أفريقيتين عربيتين هما ليبيا والسودان من قمة باريس، فقد كان من المفيد إشراكهما في هذا التجمع الدولي للأسباب نفسها التي استبعدنا من أجلها.

سألت الأستاذ عن حقيقة موقفه من الوحدة العربية، فقال: كان رأيي دائماً، وما زال، أن الوحدة العربية من الناحية السياسية يجب أن نتركها للزمن، ولا أقصد أن نستبعدّها، وإنما أن نترك التطور الطبيعي في النظم السياسية العربية يقرب مع الزمن بين مختلف الدول العربية بما يسمح لها إذا أرادت أن تحقق الوحدة. أما الوحدة الثقافية فهي وحدة متحققة بالفعل بين أفراد الشعب العربي في أي قطر من الأقطار، فالمتنبي كان دائماً هو شاعر العرب، وأحمد شوقي هو أمير الشعراء، وأم كلثوم وعبد الوهاب هما مطربا العرب. وهكذا، فكُتِّب العرب هم كُتِّبنا وشعراؤنا هم شعراؤهم، وهذه الوحدة هي بحاجة إلى قدر من التنظيم الإداري بما يمنع التزوير ويضمن حقوق المؤلف مثلاً. أما الوحدة التي في يدنا تحقيقها إذا أردنا، بل هي تلح علينا مع كل يوم جديد، فهي الوحدة الاقتصادية، والغريب أن تلك هي مادة مهمة جداً في ميثاق جامعة الدول العربية، لكن لم يحدث بها شيء حتى الآن، وربما كان ذلك بسبب عدم تمكن الجامعة من التوصل إلى اتفاق اقتصادي يضم جميع الدول الأعضاء. لكن هناك طريقاً آخر وهو أن يوضع الاتفاق بين مجموعة الدول القابلة له وتعتبر هذه الدول هي نواة للاتفاق الشامل الذي يضم الكل. لهذا السبب فأنا أرحب دائماً بهذه الاتفاقيات الاقتصادية التي تعقدها مصر مع أشقائها العرب لتحقيق قدر من التكامل الاقتصادي والتجاري فيما بينها، مثل اتفاقيتنا مع الأردن والمغرب وليبيا وتونس وسوريا وغيرها. وأنا أنظر دائماً إلى هذه الاتفاقيات على أنها اللبنة الأولى للوحدة العربية الشاملة.

قلت للأستاذ نجيب محفوظ: لم أشأ أن أتطرق في حواراتنا إلى روايتك الشهيرة «أولاد حارتنا» إلى أن تهدأ العاصفة التي أثارها البعض حولها بعد حادث الاعتداء الأثم عليك، لكن الآن قد مضى وقت كافٍ يسمح لنا بأن ننظر إلى الرواية نظرة موضوعية، ونتحدث عنها بصراحة، فاسمح لي أن أحدثك بلا حرج وأعيد عليك النقطة التي أثارها البعض من ضيقي الأفق، وهي موت الجبلوي في النهاية، والذي صوروه على أنه رمز للذات الإلهية!

فأدركني الأستاذ بسرعة قائلاً: لماذا نفترض أنه رمز للذات الإلهية، إن المقصود بالجبلوي هو قوة التدين أو الإيمان في النفس البشرية، ثم إن موت الجبلوي هذا لم يره أحد في الرواية، ولا حتى من أذاع الخبر. ولعل في هذا إشارة إلى فترة ما في تاريخ البشرية أنكر فيها العلم وجود الدين، وكان يزهو بنفسه، فقد وجد عرفة في الرواية أنه قد سقط تحت سيطرة الحاكم ناظر الوقف، بعد أن قيل إن الجبلوي قد مات. فعاد هو نفسه يقول لا بد من إحياء الجبلوي مرة أخرى، فما معنى ذلك؟ معناه أنه إذا كانت قد مرت عليه فترة شك أراد أن يتخلص من أي قوة أخرى عدا قوة علمه، وألا يثق بأي شيء إلا بنفسه، فقد أدرك بعد ذلك أنه بحاجة إلى المبادئ يقيم عليها علمه، ويكون في ذلك خير حارته والناس والخلاص من الشر. إذن لو تأملت لوجدت أن «أولاد حارتنا» كانت أول من قال تعبيراً شاع فيما بعد هو «العلم والإيمان»، فقد عرف عرفة أن علمه لا قيمة له إلا بمبادئ الجبلوي ولذلك طالب بضرورة إحيائه. وهو طبعاً لم يُمتَه ولم يُحيه، لأن المسألة كلها تدخل في إطار الرمز، فقد كفر بالجبلوي ثم عاد وأمن به، هذا هو ما حدث في الرواية.

قلت: إذن فإن «أولاد حارتنا» هي في حقيقة الأمر رواية تنتهي بالإيمان؟

فقال: هي تنتهي إلى الإيمان، وقد اتهمت بالكفر، والسبب في ذلك هو أنها رواية، لكن البعض أراد أن يقرأها ككتاب، وليس كرواية، إنك حين تكتب عملاً أدبياً فإنك قد تكون لك فكرة وتكون للقارئ فكرة أخرى، وللناقد فكرة ثالثة، والله أعلم أيها الصحيح، لكن تلك هي سمة الفن. فهو يشع بالمعاني ولا يتوقف القارئ عن اكتشاف معانٍ جديدة فيه كلما قُرئ، لكن الكتب الفكرية كتب ذات معنى واحد محدد، والبعض نظر إلى «أولاد حارتنا» ككتاب فكري، وهكذا ضاعت معانيه، لأنها لم تُقرأ كرواية ولم تُفهم إلا بمعنى واحد محدد.

ثم يضيف الأستاذ: إن رواية «أولاد حارتنا» رواية إسلامية إيمانية مظلومة، وهذا ما جعلني لا أوافق على نشر الرواية في مصر إلا بعد موافقة الأزهر عليها، أي بعد اتفاق الأزهر معي في فهمي لها. ولماذا أشرت ذلك؟ لأنني لست ضد الدين، ولا ضد الأزهر، ولو كنت ضده، ولو كانت الرواية ضده، لدخلت في تحدٍ للأزهر، ولسعيت لنشر الرواية رغماً عن الأزهر، لكنني لست كذلك، فأنا لست ضد الأزهر، ولا ضد الدين، فأنا أزهرى المولد والمنشأ، إنني أزهرى مدني.

بادرني الأستاذ نجيب محفوظ بالقول: لقد حزنت حزناً شديداً على رحيل الدكتور علي الراعي، فقد فقدت الحياة الأدبية في مصر ناقداً كبيراً كان يتصف بالموضوعية وبالخلق المهني الرفيع، ولقد عرفت علي الراعي منذ دخلت الحياة الأدبية، وقبل أن أتعرف عليه شخصياً. فقد وجدت فيه كاتباً جيداً يدفعني دائماً لقراءة ما يكتب، لكنني عرفته شخصياً حين انتقلت من وزارة الأوقاف للعمل بوزارة الإرشاد للعمل مع المرحوم يحيى حقي بمصلحة الفنون، وكان ذلك وقت وزارة فتحي رضوان، الذي أعتقد أنه كان قد انتدب علي الراعي للعمل بمكتبه. فتعرفنا كل منا على الآخر وتصافحنا باليد، وكنت في ذلك الوقت أعاني من الانصراف عن الكتابة، وتحدثت إليه في أزمته هذه، فاهتم بها اهتماماً كبيراً، وقال إن من كتب «الثلاثية» يجب ألا يتوقف عن الكتابة. وكان أول من طمأنني إلى أن المسألة مجرد رد فعل طبيعي بعد الانتهاء من «الثلاثية»، فهي عمل ضخم يتطلب أن تعقبه فترة راحة، وأكد لي أنني سأعود مرة أخرى إلى الكتابة، ولكن بعد أن تحصل نفسي على القسط اللازم لها من الراحة، وقد كان.

ثم يضيف: ولقد كان علي الراعي في علاقاته الشخصية حلو المعشر، أما كناقده فقد ظهرت هذه الأخلاق في كتاباته، فرغم أن الراعي كان يسارياً فإنه لم يكن يتعصب لليساريين مثل غيره من النقاد والصحفيين. فإذا تناول عملاً أدبياً حكم عليه أدبياً بصرف النظر عن اتجاهات صاحبه، وقد كان هذا شياً نادراً في وقت من الأوقات. على أن أهم ما في علي الراعي كناقده هو أنه كان دائماً بحثاً عن الشيء الجميل وليس عن القبيح، فهناك من يخلطون بين النقد والانتقاد، أما علي الراعي فكان يعتقد أن مهمة النقد هي أن تبصرنا بمواطن الجمال في العمل الفني.

ويختتم الأستاذ حديثه قائلاً: إن التاريخ الأدبي العربي سيذكر دائماً لعلي الراعي موسوعتين فريدتين هما موسوعته عن المسرح وعن الرواية في الوطن العربي، وأنا أعلم أنه كان يفكر في إصدار موسوعة مماثلة عن القصة القصيرة، أتمنى أن يكون قد انتهى منها قبل رحيله.

ويواصل الأستاذ حديثه عن الناقد الكبير الراحل علي الراعي، فيقول: لقد كان علي الراعي ناقدًا جميلًا، ولا أذكر أنه أضر بأحد من الكُتَّاب عن طريق التهجم على عمل له، فقد كانت مهمته هي أن يبصرنا بالجمال، أما إذا وجد عملاً قبيحًا، فإنه كان يتجاهله، لأنه في تعريفه ليس عملاً فنيًا يستحق التوقف عنده، لأن العمل الفني دائمًا جميل.

ثم يقول: إن ما كتبه الدكتور علي الراعي عن «الثلاثية» سيظل من أجمل ما كُتِبَ عنها قاطبة، فقد كانت له رؤية نقدية نافذة وكان أسلوبه في معالجة العمل الفني خلاّبًا، ولقد كان علي الراعي هو أول من قال إن «الثلاثية» تفتح باب العالمية أمام الأدب العربي، وكان ذلك قبل نوبل بعشرات السنوات. لذلك كان يعجبني في علي الراعي تشجيعه للشباب، فكثيرًا ما كان يتحمس لعمل جديد كتبه أحد الشباب، فكان يفرد له المساحة، وكأنه بصدد عمل لأحد الكبار، وكان يعتقد أن العمل الفني الجيد ينبغي الاهتمام به، بصرف النظر عن صاحبه. بينما وجدنا الكثير من النقاد يتأثرون ليس بقيمة العمل وإنما باسم صاحبه، وحين يأتي ذلك في وقت يعاني فيه الشباب الإهمال وعدم التشجيع والانصراف عن الأدب والقراءة وعدم وجود فرص للنشر، فإن ما كان علي الراعي يفعله مع الشباب لا يمكن التقليل من أهميته. لهذه الأسباب كلها كانت كتابات علي الراعي تفتح النفس للكتابة، بينما نقاد آخرون كانت كتاباتهم تسد النفس.

قلت للأستاذ نجيب محفوظ: قرأت لك حديثاً في الطبعة الإنجليزية من جريدة «يومئوري شيمبون»، أنك سئلت ما الإسلام؟ فقلت إنه الحرية والعدالة والمساواة. فماذا كنت تقصد بذلك؟ قال: كان الصحفي الياباني يتحدث عن حادثة الأقصر والإرهاب الذي يُرتكب باسم الإسلام، فقلت له: إن العنف وسفك الدماء ليسا من الإسلام في شيء. فيسألني: وما الإسلام في نظرك؟ قلت: هو الحرية والعدالة والمساواة، فأنت تعرف أن الإسلام دعا إلى عبادة الله وحده لا شريك له، في زمن كان الناس يعبدون فيه الرجال، سواء كانوا ملوكاً ورؤساء قبائل أو غيرهم، لكن الإسلام جعل العبودية لله وحده، وبعد ذلك يُصبح جميع الرجال أحراراً. أي أن الإسلام نفى العبودية التي كانت موجودة في العالم بسبب تقديس الناس للملوك والحكام، ولأن الإسلام يؤمن بالحرية، فقد عرض نفسه على الناس، ولم يفرض عليهم الإسلام بالقوة، «لَسَّتْ عَلَيْهِمْ بِمُصَيَّرٍ»، لأنه يؤمن بأنه لا إكراه في الدين، وإنما يصل الإنسان إلى الإسلام بضميره وحده، وليس بالضغط أو الإكراه. أما العدالة فإن الزكاة في الإسلام هي أساس من أسسه، وهي حق للفقير عند الغني وليست تفضلاً من المقتدرين، وإنما هي واجب من واجبات كل مسلم، وتلك كانت أول محاولة لتحقيق العدالة الاجتماعية التي قامت عليها بعد ذلك بمئات السنين الأيديولوجيات السياسية الحديثة. والإسلام أيضاً جعل كل الناس سواسية، فلم يفرق بين الأسود والأبيض والأصفر إلا بالتقوى، رجالاً ونساءً، وتلك هي قمة المساواة، والإسلام أكثر من ذلك بكثير. لكن إذا أردنا استخلاص ثلاثة مبادئ قام عليها الإسلام، فتكون هي: الحرية والعدالة والمساواة، لأنها في رأيي الشخصي فيها الحلول لكثير من مشكلات العالم في العصر الحديث.

كان الأستاذ في حالة حزن شديدة وهو يقول لي: إن كل يوم جديد يأتي لي بخبر رحيل أحد الأعراء، فبعد الدكتورة بنت الشاطي جاء الدور على الدكتور علي الراعي، ثم ها هو لطفى الخولي يرحل في نفس الأسبوع مع فتحي غانم، حتى لم يعد يبقى من الجيل القديم إلا العبد لله. قلت: أنت لا تُحسب على جيل بعينه، فأنت فوق كل الأجيال، لكن قل لي كيف عرفت كلاً من الراحلين الكبيرين: لطفى الخولي وفتحي غانم؟

قال: كانت أول معرفة لي بلطفى الخولي عن طريق المخرج السينمائي الراحل صلاح أبو سيف، وكان ذلك في حدود عام ١٩٤٧، وقد جاء صلاح لزيارته في مكتبه للمحاماة، وقدمني إليه، وكان يعرفني من الروايات التي نشرتها، والتي قال لي إنه قرأ بعضها، ثم تزامننا بعد ذلك بأكثر من عشر سنوات في «الأهرام». وكثيراً ما تحاورت معه في شتى الأمور السياسية، خاصة في قضايا السلام والحقوق الفلسطينية، فقد كان دائماً صاحب حجة قوية ورؤية ثاقبة لا يمكن تجاهلها مهما اختلفت معه في الرأي. وأذكر أنه تحاور معي حواراً طويلاً مسجلاً حول موقفي المؤيد للسلام وأخذ يفنده بالحجج والبراهين قبل أن ينقلب هو إلى موقف أبعد مدى مما وصلت أنا إليه. لكن الحقيقة أن ما تعرض له لطفى الخولي من هجوم ضارٍ بسبب تغيير رأيه، رغم أن هذا من حقه تماماً لا يشابه بأي شكل من الأشكال ما قابلني به حين كان مختلفاً معي في الرأي. فبينما لم يناقشني في حوارنا إلا بالحجة والبرهان، فإن من هاجموه هو بعد ذلك من نفس موقعه القديم لم يستخدموا إلا القذف والسباب، لكن لطفى الخولي لم يكن يأبه لذلك، ما دام مقتنعاً بما يفعل وبما يقول.

ثم يختتم حديثه قائلاً: ولقد كان لطفى الخولي شخصية فذة متعددة العطاء، فإلى جانب نشاطه السياسي كانت له بصمة في الحياة الثقافية بما كتبه من أدب في المسرح وفي القصة القصيرة، وكان غزير الإنتاج.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: تعرفت لأول مرة على فتحي غانم في أوائل الخمسينيات، حين كان يجلس في كازينو أوبرا وكان آنذاك شاباً لطيف الأخلاق له نزعة أدبية حديثة، فكان يجلس معنا ويتناقش. أي إنني تعرفت على شخصه قبل أن أتعرف على أدبه، ثم بدأت أقرأ له إنتاجه الروائي الذي ظهر بعد ذلك بسنوات، فوجدت له أسلوباً مميزاً يضعه في مصاف الروائيين الكبار. قلت: أعرف أنكما شاركتما في كتابة سيناريو سينمائي، ومن الغريب أن فيلمًا يكتبه معًا اثنان من أكبر الكُتَّاب الروائيين لا يظهر إلى النور، فما السر وراء ذلك؟

فرد: كان هذا الفيلم من المفترض أن يقوم بإخراجه المسرحي الكبير زكي طليمات، وكان فتحي غانم هو الذي رشحني للمشاركة معه في كتابة السيناريو، لكن الفيلم لم يتم لأن المنتج رغم أنه كان صهر زكي طليمات، فإنه لم يكن يثق كثيرًا في أن قدرات طليمات في الإخراج السينمائي تضاهي قدراته في المسرح، فتواترت فكرة الفيلم في هدوء. ومنذ ذلك الوقت لم أقابل فتحي غانم ثانية، ذلك أنه مع السنوات الأولى للثورة اتجه فتحي غانم إلى الصحافة، وبدأ يأخذ مناصب ذات مسؤوليات شغلت وقته عن مجلسنا، لكنني كنت أتابع إنتاجه الأدبي، وكانت مكانته عندي ثابتة. وأذكر أنني أبديت احتجاجًا في أحد أحاديثي في أوائل التسعينيات لأن فتحي غانم بعد كل هذا العطاء لم يحصل على جائزة الدولة التقديرية، ثم سعدت كثيرًا أنه حصل عليها بعد ذلك عام ١٩٩٤.

ثم يضيف: ومن أهم ما كان يميز فتحي غانم أسلوبه السلس، وهو من مجموعة الكُتَّاب الذين جمعوا في أسلوبهم ما بين الصحافة والأدب، مثل إحسان عبد القدوس، فكان صاحب أسلوب روائي جذاب، أما مقالاته فكانت تدل على ثقافة واسعة كنت أتابعها هي الأخرى بشغف شديد. وأذكر أنه لكي يميزني عنمن كانوا يكتبون عن حسانوات نادي الجزيرة وغيره، كان يسميني في كتاباته النقدية «نجيب زقاق المدق محفوظ».

قلت للأستاذ نجيب محفوظ: كثيرًا ما يقدم النقاد من مختلف أنحاء العالم تفسيرات متجددة لأعمالك لم يتطرق إليها أحد من قبل، وأذكر على سبيل المثال ما قاله ماتتياهو بيليد حول الصحراء في أعمالك، فقد قال إن النيل عندك يمثل كل ما هو دنيوي وحسي، بينما الصحراء ترمز دائمًا إلى التطهر والروحانية.

فقال: نعم لقد قرأت ذلك، وهو تفسير مبتكر، على حد علمي أن أحدًا لم يصل إليه من قبل.

قلت: لقد كتبت كثيرًا عن الحارة في القاهرة القديمة، لكن ما علاقتك بالصحراء؟

قال: وقت أن كنت أسكن العباسية في صباي كانت هناك مساحة شاسعة من الصحراء تُسمى أرض العيون، وكنا نسميها صحراء مولد النبي، لأن احتفالات المولد كانت تقام كل عام في هذه الأرض الفضاء، أما بقية السنة فكانت صحراء خالية، وكثيرًا ما كنت أجلس فيها للتأمل، وفي بعض الأحيان كان يكون معي كتاب في الشعر أقرأه هناك في خلوة. كانت هذه الصحراء جوها جاف وجميل، ولم أكن أرى للرمال فيها نهاية، لكن ما إن كانت تغرب الشمس حتى كنت أسارع إلى العباسية من جديد، فقد كانت هذه المنطقة مهجورة، ولم أكن أعرف ما يعيش بها من مخلوقات بعد غروب الشمس.

ثم يضيف: وكانت هناك في هذه الصحراء منطقة ممهدة، كنا نتخذ منها ملعبًا للكرة، وكنا قد كونا فريقين يتباريان في هذا الملعب، وكان جميع أبناء العباسية يشجعونهما، تمامًا مثل الأهلي والزمالك.

قلت: وأين كانت تقع هذه الصحراء بالضبط؟

قال: ما بين العباسية الشرقية وأرض كانت بها مدافن جديدة في ذلك الوقت هي مدافن الغفير، لكن هذه الصحراء اختفت الآن تمامًا بعد أن امتلأت بالمباني وصارت الآن جزءًا من العباسية الحالية.

وواصلت الحديث مع الأستاذ نجيب محفوظ حول تفسيرات النقاد في الخارج لأعماله الروائية، وذكرت ما قاله ماتتياهو بيليد عن استمرارية الاتجاه الديني وتناميته في المستقبل، بالمقارنة للاتجاهات اليسارية.

قال الأستاذ: لقد قال بيليد إن هناك في مصر من يعتبرون محفوظ يساريًا، لكن الحقيقة أنه أقرب إلى التعاطف مع فكر الإخوان المسلمين. وكان دليل بيليد في ذلك هو أن الشيوعي في «الثلاثية» تزوج لكنه لم ينجب، ومن أنجب كان الإخواني، وقد اعتبر بيليد أن ذلك يعني أن الفكر الشيوعي لا مستقبل له في مصر، بينما المستقبل سيكون للاتجاه الديني.

قلت: لقد مر حوالي نصف قرن من الزمان يا أستاذ نجيب منذ كتبت «الثلاثية»، مات خلالها بالفعل الفكر الشيوعي في العالم كله، وليس في مصر وحدها، في الوقت الذي شهدنا فيه أن الفكر الديني رغم تطرفه في بعض الأحيان وانحرافه في أحيان أخرى ما زال يعيش بيننا، فهل كان هذا هو ما رأيته بعين الأديب في ذلك الحين؟

قال الأستاذ: لا أستطيع أن أقول لك إنني كنت واعيًا لذلك وأنا أكتب «الثلاثية»، فجزء من عملية الإبداع الفني - كما تعلم - يقوم به العقل الباطن والفنان لا يعيه، بالإضافة إلى أن هذا المعنى الذي توصل إليه بيليد لم يرد في «الثلاثية» كنسوة صريحة، وإنما هو استقراء للغة الروائية من جانب الناقد.

تحدث الأستاذ نجيب محفوظ عن ضرب قوات حلف شمال الأطلسي (الناتو) لقوات الصرب في كوسوفا، و«ما إذا كان ذلك قد تم بدافع المبادئ أم أنه لتحقيق مصالح خاصة بأمريكا وأوروبا، فقال: هناك من يقولون إن السياسة مصالح، فإذا أردنا أن نعرف لماذا تحركت قوات الناتو فإن علينا أن نبحث عن مصلحة الولايات المتحدة وأوروبا في ذلك، لكنني أعتقد أن ما يحرك التاريخ هو المبادئ أكثر من المصالح. فلا شك أن المصلحة دائماً كامنة، لكن ذلك لا ينفي الدور الأساسي للمبادئ في صنع أحداث التاريخ، الذي من دونه لا يمكن أن تتحرك الأحداث على الإطلاق.

ويضرب الأستاذ مثلاً لذلك، فيقول: إذا أخذنا مثلاً الحرب العالمية الأخيرة نجد أن هدف بريطانيا كان الحفاظ على الإمبراطورية، وكذلك فرنسا، لكن هتلر لم يكن فقط مصدر تهديد للإمبراطوريتين، وإنما أيضاً للمبادئ الديمقراطية وللقيم المسيحية. وقد وجدنا أن حملة التعبئة التي اتبعتها الحكومتان البريطانية والفرنسية لحشد الناس إلى الحرب لم تقل: «هبوا للدفاع عن المستعمرات»، لكنها اعتمدت على المبادئ الإنسانية، لذلك فالجماهير في توجيهها إلى الحرب وفي توجهاتها إلى محاربة النازية كانت مدفوعة بالمبادئ الإنسانية، وليس بالمصالح السياسية. الشيء نفسه يمكن أن يقال عن الحروب الصليبية في القرون الوسطى، لقد كانت هناك بلا شك مصالح سياسية للبابا في مواجهة أمراء أوروبا، وقد وجد أن في غزوهم للشرق حلاً للمشكلات التي كانوا يسببونها له بصراعاتهم الإقليمية في أوروبا. لكن الواقع كان غير ذلك، فالرهبان وهم يقنعون الفلاحين البسطاء بالرحلة إلى الشرق لم يكن حديثهم يدور عن مصالح الأمراء الإقطاعيين، وإنما كانت دعوتهم لتخليص قبر المسيح. والشيء نفسه حدث أيضاً بالنسبة للفتوحات الإسلامية، فإن أكبر هذه الفتوحات لم تكن في عصر الإسلام الحق، أي في عصر المبادئ الإسلامية الكبرى، وإنما كانت في عصر بني أمية الذين كان في مقدمة ما يهتمهم من الفتح هو أن تمتلئ الخزائن بالجزية، لكن الجندي المسلم الذي كان يحمل سيفه ويخوض المعارك مضحياً بحياته كان دافعه هو نشر الإسلام في العالم.

ثم ينهي الأستاذ حديثه قائلاً: إذن فإن المبادئ الإنسانية هي التي تُحرك التاريخ، والمصالح دون مبادئ تكون عاجزة تماماً عن تحريك الجماهير ودفعها إلى الأحداث التاريخية الكبرى.

سأل الصحفي البلجيكي الأستاذ نجيب محفوظ عن رؤيته للقرن الحادي والعشرين الذي سيحل في العام القادم، وهل ستستمر فيه الحروب التي شهدنا منها اثنتين عالميتين في القرن الحالي كان من شأنهما إحداث دمار لم يشهد له الإنسان مثيلاً؟

فقال الأستاذ: أتصور أن الحروب بشكلها العالمي الذي نتحدث عنه والتي هي نتاج لوجود قوتين عالميتين تتصارعان لن يكون لها وجود في القرن القادم، وإنما سنشهد بدلاً منها حروباً إقليمية متعددة ستتشب لأسباب دينية أو أسباب عرقية، والتي نشهد حالياً إحداها فيما كان يعرف باسم يوغوسلافيا.

قال له الصحفي البلجيكي: وما رأيك في مقولة أندريه مالرو الشهيرة بأن القرن القادم سيكون قرناً دينياً أو لن يكون على الإطلاق؟

فرد الأستاذ: إن هناك في حياة الإنسان ثلاث قيم كبيرة هي الحق والخير والجمال، ولقد وجدنا في القرن العشرين أن العلم في بحثه عن الحقيقة قد تغاضى عن الخير، كما وجدنا أن الفن في سعيه إلى الجمال قد تغاضى عن الأخلاق، وأن الصحة الحالية التي يشهدها العالم للنزعات الدينية هي محاولة لتحقيق الخير والأخلاق التي افتقدناها كثيراً في هذا القرن. فربما كان من هنا رأي مالرو عن المكانة التي يعتقد أن الدين سيتبوأها في القرن القادم، لكنني لست معه في ذلك، فهناك في حياة الإنسان جوانب أخرى كثيرة ستنافس الدين في القرن القادم بصرف النظر عما إذا كان ذلك في صالح الإنسان أم لا، ومنها على سبيل المثال التقدم العلمي الذي ينذر بأنه سيكون له حيز كبير جداً في حياة الإنسان، وتجارب مثل الاستنساخ ستتطور بشكل كبير في القرن القادم وتصل بنا إلى آفاق لم نكن نتخيلها. كذلك هناك ثورة الاتصالات من الكمبيوتر إلى الإنترنت، وهناك أيضاً علوم الفضاء التي لا شك أنها ستصل بالإنسان إلى كواكب أخرى في القرن القادم.

وأسأل الأستاذ نجيب محفوظ: كم سيجارة تدخن يوميًا الآن؟
فيقول: ثلاثًا.

أقول: أعلم أنك مدخن قديم، فمتى بدأت التدخين؟
فيجيب: بدأت التدخين في بداية مرحلة التعليم الثانوي، كنا في ذلك الوقت نسكن العباسية، وكنت أخفي السيجارة وأذهب إلى أرض خلاء كنا نلعب بها الكرة لأخلو إلى نفسي وأدخن.
ثم يقول ضاحكًا: أنا مدخن قديم. فلي الآن ما يقرب من سبعين سنة وأنا أدخن.
أقول: لكنك مدخن معتدل.

فيجيب: إنني أتعجب ممن يدخنون علبيتين أو ثلاثًا في اليوم، فالسيجارة عندي مزاج وأنا لا أدخن سيجارة من وراء سيجارة لأنني لا أدخن إلا إذا اشتقت للسيجارة حتى أستمتع بها، لذلك يجب أن تمضي فترة ما بين السيجارة والأخرى.
ثم يقول: هناك من لا يدخنون بل يعفرون، وهناك من يدخنونها عصبية، لكني أدخنها استمتاعًا، وقد كان بعض الأصدقاء يهزأون لذلك قائلين إنني أنظر إلى ساعتني قبل أن أشعل السيجارة حتى أتأكد أنه قد حان موعدها.

وأسأل: وأقصى ما وصلت إليه في حياتك كان كام سيجارة في اليوم الواحد؟
فيقول: علبة كاملة، لكن ذلك كان حالة استثنائية.

ثم يشعل الأستاذ سيجارة وهو يقول: لقد بدأت بالشيخة التي تعلمتها في قهوة الفيشاوي، وكنت في بعض الأحيان أذهب إلى حديقة الأزبكية وأقطع تذكرة كانت تسمح لي بطلب، فكنت أدفع فرقًا «قرش صاغ» فوق ثمن التذكرة لأدخن الشيخة، وكانت شيخة معتبرة!

قالت الزائرة الإيطالية للأستاذ نجيب محفوظ: لست كاتبة ولا صحفية، إني مجرد قارئة قرأت كل ما تمت ترجمته من أعمالك، سواء إلى الإيطالية أو الإنجليزية، وقد أعجبت كثيرًا بالمكانة المميزة التي وضعت فيها المرأة والتي تختلف كثيرًا عما آلت إليه حال المرأة والإنسان بشكل عام في الأدب الحديث في العالم. فالمرأة في أعمالك تتمتع بقدر من الاحترام وبالحب، سواء كانت الأم أو الحبيبة أو حتى الأخت التي زلت قدمها وانجرفت إلى تيار الخطيئة. فهنا نشعر أن الكاتب يؤكد نزاهتها وطيبته وتضحيتها بنفسها من أجل شقيقها الذي يبدأ حياته كضابط، وأن الظروف هي التي دفعت بها إلى هذا الطريق. أنا أشعر أنك كلما تحدثت عن امرأة فأنت تتحدث بشكل مختلف بعض الشيء عن حديثك عن الرجل، فالرجل يمكن أن يكون انتهازيًا أو متجبرًا أو بلطجيًا أو لصًا، لكنك حين تجيء إلى المرأة، فإن شعوري كقارئة هو أنك تنتقل إلى مستوى أكثر إنسانية وأكثر رُقيًا مهما كانت تلك المرأة مخطئة أو مقهورة، كما هي الحال مع أمينة مثلًا في «الثلاثية» التي أصبحت رمزًا في أدبك للمرأة مهضومة الحق. لكني أجد أنك قد أحطتها بقدر من الاحترام والتقدير داخل بيتها، بحيث يقوم أبنائها بالانحناء أمامها وتقبيل يديها. وتلك العلاقة بين الأبناء والآباء قد اختلفت هي الأخرى من آدابنا الحديثة، لأنها لم تعد موجودة في حياتنا العصرية التي تراجع منها المثل، وسيطرت عليها الماديات. لذلك فأنا حين أقارن بين ما تقدمه في رواياتك من إجلال للمرأة وبين مكانتها في آدابنا الحديثة أجد أن الإنسان أصبح يتم تصويره الآن كمخلوق دوني، يفتقر إلى المثل والأخلاق ولا يحركه إلا المال!

فقال الأستاذ: إني فيما صورته كنت أنقل واقعًا قائمًا ومعاشًا، لكن التغيير الذي حدث عندكم في العلاقات الشخصية يأخذ الآن مكانه عندنا أيضًا، وإن كان بشكل أبطأ قليلًا، فالوحدة الآن في المجتمع أصبحت في معظم الأحيان هي الفرد وليست الأسرة، والفرد أصبح في معظم الأحيان تحركه المصالح الشخصية، وفي مقدمتها الدوافع المادية، وقد بدأ هذا التغيير ينعكس بالفعل على الأعمال الأدبية الحديثة.

فردت الزائرة الإيطالية: إذن فنحن سعداء أنك كتبت في ذلك العصر الجميل الذي كان فيه الإنسان ما زال إنسانًا، لأنك بذلك، شأن جميع الأدباء العظام، قد خلدت إنسانيته ولم تخلد انحطاطه.

سألت الأستاذ نجيب محفوظ: من المرأة التي أثرت في حياتك؟

قال: الأم كان لها دور كبير في حياتي، وكذلك الزوجة، والحب بمعناه الأفلاطوني، كان له أثر كبير عليّ في سن المراهقة ثم أتى بعد ذلك الحب الناضج. أما قلبي في القاهرة من قمتها إلى أسفلها، ومن أسفلها إلى قمتها، فقد جعلني أعرف وأخبر النساء من جميع الأشكال والألوان. وأنا صغير عرفت العوالم، وكانت هناك صالات الملاهي، مثل صالة بديدة وغيرها، حيث عرفنا الراقصات والمغنيات ومشينا في شارع النساء من أوله إلى آخره، بخيره وشره.

قلت: ماذا كان دور الأم في حياتك؟

قال الأستاذ: دورها كان كبيراً، والأم في عصرنا بصفة خاصة كانت سيّدة بيت، ولم تكن موظفة، وكان الزوج يعمل خارج البيت، لذلك كانت صلة الأم بالأبناء قوية جداً، والأب عادة ما كان على الهامش، خاصة في السنوات الأولى، ولا يظهر إلا وقت الأزمات. أما الأم فهي كل شيء، وقد استفدت من أمي حناناً ما زلت أذكره وأشعر بدفته وقد تخطيت الثمانين. كذلك من الناحية المعرفية لعبت أمي في حياتي دوراً كبيراً جداً لأنها - ولا أدري الأسباب - كانت، إلى جانب زيارة الأضرحة والأولياء، مولعة بزيارة الآثار القديمة التي كانت تهتم بها اهتماماً كبيراً، رغم أنها كانت سيّدة كبيرة وأمّية ومن الجيل القديم. وأستطيع أن أؤكد لك أنني زرت معها دار الآثار المصرية «الانتكخانة» عشرات المرات والهرم وأبو الهول، وكانت تقف أمامها في انبهار، وكأنها في حالة تعبد. كذلك زرت معها جميع الآثار القبطية، ومنها كنيسة مارجرس التي ما زلت أذكر زيارتي المتكررة لها، فقد كانت أمي جوالّة ولست أعرف كيف نمت عندها هذه «الغية»، ولقد كانت تعرف شهرة هذه الأماكن، فتختارها بالتحديد، وكنت أصحابها في هذه الجولات منذ سن الرابعة أو الخامسة.

قلت: هل كونك آخر الأبناء قرب بينك وبين والدتك؟

قال: فعلاً، فحين تفتحت مداركي وجدت أن أشقائي جميعاً رجالاً ونساءً تزوجوا ولم يكن في البيت غيري مع أمي، وهذا فرض عليّ - إلى جانب ذلك - أن أتعلم كيف أعيش وحدي، حين كانت تنشغل والدتي عني.

ثم أضاف الأستاذ: كان هذا هو فضل والدتي عليّ، ثم يأتي بعد ذلك فضل الزوجة، وقد كان انشغالي بالقراءة والكتابة يأخذ كل وقتي، لكنها تفهمت الوضع، ولولا ذلك لانفجرت هذه الحياة بطريقة أو بأخرى في بعض الأحيان. يمكن أن يكون هناك أخذ على خاطر، لكن بشكل عام فإن زوجتي تفهمت طبيعة حياتي ككاتب وقبلت هذا.

قلت: وما طبيعة علاقتك بابنتيك؟

قال: لقد رببتهما على قدر كبير من الاستقلالية، رغم أنني تربيت فيما يشبه العصر العثماني، فهما متعلمتان وتعملان، وكل منهما حرة في أن تكون نفسها، لكن رغم هذه الاستقلالية التي تعودتا عليها فهما متدينتان جدًّا، تصليان وتصومان، وقد حجنا إلى بيت الله الحرام. وهما لا تنبهران كثيرًا ببريق الحياة الزائف، وحين يُطلب مني مثلًا أن تجرى معي أحاديث عائلية، فإنهما ترفضان المشاركة فيها، قائلتين إن هذا عملي فما لهما به؟ وما صفتها حتى تظهرها في الصحف أو التلفزيون؟ أما عن نفسي فأنا ليبرالي إلى أقصى درجة معهما، وقد كنت أعرض عليهما، فإذا قبلتا العرض قُبل، وإذا رفضتا رُفض، ولم أكن أضغط أبدًا في أي اتجاه، فيجب على كل إنسان أن يتخذ خياراته بنفسه.

أقول للأستاذ نجيب محفوظ: أعرف أن والدتك كانت لها منزلة خاصة في نفسك، فكيف كان رحيلها؟

فيقول: من حسن طالعي أنني تمتعت بحنان الأم إلى النهاية، فقد شاء الله أن تعمر والدتي حتى وصل بي العمر إلى ما بعد الخمسين، وهكذا تمتعت بالكامل بكل فترات العمر التي تحتاج إلى رعاية الأم وعطفها وحنانها، وأتصور أن يتيم الأم في الصغر قد فقد ثروة لا تقدر، ولا تصدق ما يقال من أن فلاناً أو فلانة كان بمثابة الأم، فهذا كلام مجازي، لأن منزلة الأم لا تشغلها إلا الأم. لكن من لطف الأقدار أنني حين توفيت والدتي كنت قد خبرت الموت والأحزان من قبل، فمثلاً تُوفي والدي وأنا في حوالي الخامسة والعشرين، وقد سبب لي ذلك صدمة قوية جداً، لأنه رغم أن علاقتي بوالدتي كانت أشد وأقوى من علاقتي بوالدي، فإن رحيل الوالد كان أول تجربة لي مع الموت في محيط الأسرة القريبة مني، ولو كانت المُتوفاة هي الوالدة لكانت صدمتي أشد بكثير، لذلك فرغم حبي الشديد لوالدتي الذي لم يكن يدانيه أي حب آخر، فإن حزني على والدي كان أشد لأنه جاء في سنوات التكوين الأولى.

وأقول: يقال إن الإنسان لا يبلغ سن الرشد إلا بموت أمه.

فيجيب: هذا صحيح، فالإنسان طوال فترة حياة أمه يعتمد عليها في أشياء كثيرة قد لا تكون بالضرورة أشياء مادية، ولكن هو يعتمد عليها عاطفياً، لكن برحيلها هو يفقد سناً عظيماً في الحياة، ويدرك أنه قد أصبح الآن وحيداً في هذا العالم، قد يكون له أصدقاء وقد يكون له أبناء وأحفاد، لكنه يعلم أن مكان الأم قد أصبح شاغراً إلى الأبد.

ثم يضيف بابتسامة رقيقة: لكن يُهيا لي أنه في الحياة الحديثة فإن تلك المقولات قد أصبحت قديمة، فالآن كثيراً ما ينفصل الشاب بعد انتهاء تعليمه عن أمه وأبيه، لذلك فحين يرحل بعد ذلك أحد الوالدين، فالابن كان مسؤولاً بالفعل عن نفسه منذ سنوات وبلغ سن الرشد بعيداً عنهما. لقد تغيرت الدنيا ولم تعد كما كانت.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: تابعت الجدل الدائر حول رواية الكاتب المغربي محمد شكري «الخبز الحافي» التي رُفعت من المقرر الدراسي بالجامعة الأمريكية لما بها من مشاهد جنسية جريئة، وأود أن أؤكد أن العمل الفني يجب أن يقاس بالمقاييس الفنية وحدها وليس بأي مقاييس أخرى أخلاقية كانت أو اجتماعية. فإذا ورد بالعمل الفني ما قد نشعر بأنه خارج عن الأخلاق فإن ذلك لا يكون إلا في إطار من الحرية التي يفرضها الفن، والتي لا تدعو الإنسان إلى الانحراف في فكره إزاءها، لأنه في هذه الحالة إنما يُنظر للعمل كأدب وليس كشيء آخر. ومع ذلك فقد اطلعت على بعض أعمال لشباب وجدت فيها الجنس مقحمًا ولا يمثل إلا ابتزازًا وإثارةً، وهذا يجب التنبيه له وعدم تشجيعه. من هنا كان اختلافي مع د. جلال أمين في هجومه على «الخبز الحافي» التي هي سيرة ذاتية واضحة، ومن ثم فقد كان من الواجب أن يُحكم عليها بمقاييس السيرة الذاتية وليس بأي مقاييس أخرى، ومقياس السيرة الذاتية هو الحقيقة والصدق. إن هذا الصدق هو الذي جعلنا نعجب بسعد زغول مثلًا حين اعترف في مذكراته بأنه كان مدمنًا للعب القمار، وهو الشيء المرفوض أخلاقيًا، لكننا نقدره في سيرة سعد ونقدر سعد أيضًا، لأن التزامه هذا ببيان الحقيقة يمثل أعلى مراتب الصدق مع النفس، وأيضًا أعلى مراتب الأخلاق، وقد رأينا نفس الشيء في اعترافات جان جاك روسو وغيره. إن قيمة مثل هذه الأعمال تتمثل في الشجاعة الأدبية التي جعلت الكاتب لا يقول إلا الصدق حتى لو تعلق هذا الصدق بما هو غير أخلاقي. أما مصادرة العمل الفني على أساس أنه هابط فنيًا فهذا أمر غير جائز على الإطلاق، لأن الاختلاف في الحكم الأدبي وارد، ولو فُتح هذا الباب لمنعنا كل عمل فني، لأنه ما من عمل إلا وهناك من قد يرى أنه سيئ فنيًا، إن تلك الأحكام نسبية ولا يجب أن تُتخذ على أساسها القرارات، وقد يكون من حقنا أن نعلن عدم تقديرنا الشخصي لها، لكنه ليس من حقنا مصادرتها على أساس هذا التقدير الشخصي.

سأل شاب الأستاذ نجيب محفوظ: كيف تجعل القلم في يدك ينبض بأمال الناس وآلامهم، بأفراحهم وأحزانهم، حتى أصبحنا نرى أنفسنا في كل ما تكتب وكأنك تعيش معنا تفاصيل حياتنا اليومية بأفراحها وأحزانها؟

قال الأستاذ في بساطة: بالمعايشة والمشاركة في الاهتمام بكل ما ينبض به المجتمع ينعكس عليّ، بحيث يسيطر عليّ، وأينما ذهبت يتخايل لعينيّ. هموم اجتماعية، هموم سياسية، هموم معيشة الحياة اليومية، هذه كلها كنت أعيشها مع الناس وأشاركهم فيها المشاعر، فكان طبيعياً حين أكتب أن ينعكس هذا على كتاباتي.

قلت للأستاذ: هل تقول بذلك إن انتماء الكاتب للمجتمع شيء أساسي لكتاباته؟

قال: إذا كان يريد لعمله أن يعبر عن هذا المجتمع.

قلت: وهل كنت أنت دائماً تريد أن يعبر عمك عن المجتمع؟

قال: دون أن أريد ودون أن أقصد وجدنتي أعيش مشاكل الناس وأفراحهم يوماً بيوم. لقد كان ذلك هو حياتي اليومية ونبض قلبي الدائم.

قلت: وبدون هذه المعايضة كيف كان سيصبح أدبك؟

قال: كان سيكون أدباً ذاتياً، أنا موضوعه وأنا المجتمع الذي يعبر عنه.

قلت: إنك بتواضعك المعهود أرجعت الفضل في ذلك إلى الناس، وليس إلى موهبتك الشخصية وحسك الأدبي المرهف، فكثيرون من يتعاشون مع الناس لكنهم لم يحصلوا على جائزة نوبل، فماذا يحدث معك بعد اهتمامك بالناس حين تختلي في النهاية بالورقة والقلم داخل غرفة مكتبك المغلقة عليك؟ ألا يكون العنصر الحاسم هنا هو موهبتك الشخصية؟

فابتسم ولم يرد، وفهم الشاب رده فابتسم هو الآخر ولم يزد في السؤال.

يسترجع الأستاذ نجيب محفوظ ذكرياته عن الكرة، فيقول إنه كان مولعًا بها في صباه، ويذكر أنه في العشرينيات كان لمصر فريق قوي جدًا حقق نتائج مبهرة دوليًا، ثم يقول: أذكر ذات مرة حين كنت صبيًا أرثدي الشورت أن مدرس اللغة الإنجليزية بالمدرسة كان إنجليزيًا متعجبًا، لكنه كان فخورًا بالفوز الذي حققه فريق الكرة المصري في ذلك الوقت في إحدى المباريات الدولية. وقد أتى لنا المدرس ببعض الصحف الإنجليزية التي كتبت تشيد بمستوى الأداء للفريق المصري، وأخذ يقرأ لنا ما كتبه هذه الصحف ونحن نشعر بفخر كبير، ولا بد أن ذلك في أواخر العشرينيات.

ثم يقول الأستاذ: وقد استمر معي ولعي بالكرة التي كانت تشغلنا كثيرًا تمامًا مثلما هي الحال الآن رغم عدم وجود تلفزيون في ذلك الوقت، لكن المدارس كانت كلها لها فرق للكرة تنبأرى طوال العام فيما بينها وتمثل معمل تفريخ للفريق القومي الذي كنا نذهب إلى النادي لنشاهد مبارياته.

ثم يضيف بعد قليل: كان ذلك منذ حوالي ٧٠ عامًا، فماذا حدث اليوم؟ ألم يكن من الطبيعي أن يصبح الفريق المصري الذي وراءه قرن كامل من التدريب واحدًا من أهم فرق الكرة في العالم؟

ثم يصمت الأستاذ ولا يجيب على سؤاله!

بمناسبة صدور الترجمة الألمانية لرواية «العائش في الحقيقة» هذا الشهر، سأل مندوب الإذاعة الألمانية الأستاذ نجيب محفوظ: لماذا كان اهتمامه في سنوات الإبداع الأولى بالتاريخ الفرعوني حتى إن رواياته الأولى كانت تدور كلها في مصر القديمة؟

فقال: أعتقد أن السبب في ذلك كان شيئين: أولاً الثورة التي اندلعت في مصر عام ١٩١٩ ضد المستعمر فأججت الشعور الوطني وجعلتني أهتم بمراحل مماثلة من تاريخ مصر القديم، كان فيها الكفاح ضد الغزاة. وثانياً اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون عام ١٩٢٢ التي أوجدت اهتماماً غير مسبق بالتاريخ المصري القديم، ليس في مصر وحدها وإنما في العالم كله. وقد حملني ذلك كله على الاطلاع على كل ما كانت تقع عليه يداي من كتب سواء بالعربية أو باللغتين الإنجليزية والفرنسية عن التاريخ المصري القديم، وقد وجدت في هذا التاريخ الأصول للكثير مما يميز الحياة المعاصرة في مصر، مثل وحدة شعبي وادي النيل، التي عبرت عن نفسها بشكل واضح في ثورة ١٩١٩. وقد كانت لديّ خطة أن أركز في رواياتي على التاريخ المصري القديم الذي فيه الكثير من أصول حياتنا كما نعرفها اليوم، وكنت كلما وقعت عيناى على جزء في كتب التاريخ القديم يصلح رواية كنت أدونه ثم أعود إليه بالكتابة. وأذكر أنه كانت لديّ كراسة تجمع لي فيها عددٌ كبيرٌ جداً من هذه الموضوعات، ثم بدأت أكتب فكانت أولاً «عبث الأقدار» ثم «رادوبيس» ثم «كفاح طيبة». والشيء الغريب أنه بعد «كفاح طيبة» زال لديّ تماماً هذا الاهتمام، وبدأت لا أهتم إلا بمصر الحديثة، فكتبت «القاهرة الجديدة»، وأعتقد أن السبب في ذلك هو أن الواقع الذي كان لا يقل إثارة عن التاريخ القديم فرض نفسه فجأة فتركت كل شيء عداه.

ثم يضيف: لكنني وجدت نفسي أعود في السبعينيات للاهتمام بالتاريخ المصري، فكتبت رواية «العائش في الحقيقة» عن إخناتون، فقد وجدت في ذلك الوقت كتباً جديدة بمكتبة «هاشيت» القديمة عن إخناتون جددت اهتمامي بهذا الفرعون الذي ليس كغيره.

سألت الأستاذ نجيب محفوظ عن الاختلاف في رأيه ما بين عملية الكتابة كما كان يمارسها في السابق وكما يمارسها الآن، حيث أصبح يتحمل بعض المشقة في الإمساك بالقلم بين أصابع يده اليمنى التي ما زالت تخضع للعلاج الطبيعي منذ تعرضه لحادث الاعتداء قبل سنوات.

قال: في الماضي كانت عملية الكتابة نفسها شيئاً أمارسه دون التفكير فيه كالمشي مثلاً، فالإنسان لا يفكر بشكل واعٍ أثناء المشي في عملية وضع قدم أمام الأخرى، وإنما هو يمشي بشكل تلقائي وبلا تفكير. وقد كانت الكتابة عندي تتم بنفس الطريقة، فقد كان فكري مشغولاً بالأفكار والكلمات وليس بالقلم الذي أمره أمامي على الورق. أما الآن فإن عملية الكتابة تأخذ مني تفكيراً في حد ذاتها حتى تخرج الكلمة في شكلها المقروء، وحتى لا تنزل الكتابة عن السطر الذي أكتب عليه.

قلت: وهل وجدت أن ذلك قد أثر في مادة الكتابة نفسها؟

قال: لقد اقتضى ذلك أن تكون كتاباتي الآن قصيرة، لأن عملية الكتابة نفسها بها بعض المشقة، ومن ثم فإن موضوعاتي الآن هي الموضوعات التي تصلح لهذه المساحة المحدودة، فأنا أكتب الآن الأقصوصة الصغيرة المركزة.

قلت: لكنك كتبت الأقصوصة من قبل.

قال: إنني أكتب الأقصوصة منذ أيام «حكايات حارتنا»، لكنها آنذاك كانت تمثل ضرورة فنية بحتة، أما الآن فما يملئها هو الفن والضرورة أيضاً، لأن يدي لا تستطيع أن تكتب أكثر من ذلك. قلت: وهل تأتيك الأفكار بسهولة أم أن مشقة الكتابة تصاحبها مشقة في الحصول على الأفكار أيضاً؟

قال: لا، الأفكار موجودة، وإن كان بالطبع بحكم السن وما كتبته في الماضي فإن المعين قل عما كان عليه في السابق، كما أن الموضوعات التي تأتيني الآن هي تلك التي لا تنبع من الحقيقة الواقعية التي انعزلت عنها قليلاً خلال السنوات الأخيرة بحكم الحالة الصحية.

قلت: إن الكثير من أعظم الأعمال الفنية التي عرفها الإنسان غير مرتبطة مباشرة بالمدرسة الواقعية ولا بكبر أو صغر العمل الفني.

وأواصل حديثي مع الأستاذ حول كتاباته الأخيرة فأقول: إن كتاباتك القصيرة في الوقت الحالي تذكر المرء بنوعية من الشعر الياباني المركز المعروف باسم «هايكو» والذي لا تزيد فيه القصيدة على ثلاثة أو أربعة أبيات، لكنها تقول ما قد تعجز عنه القصيدة الطويلة.

قال: قد يكون الشاعر الياباني حراً في اختياره لهذا القالب، أما أنا فإن مقتضيات الضرورة هي التي أصبحت تملئ عليّ هذا النوع من الأقاصيص الصغيرة التي أكتبها الآن.

قلت: كم من الوقت تمضيه في الكتابة الآن؟

قال: أنا لا أستطيع في الوقت الحالي أن أكتب لأكثر من نصف ساعة في اليوم الواحد.
قلت: وهل تكفي هذه المدة للانتهاء من قصة قصيرة مما تكتبه الآن؟
قال: بالطبع لا، لكني لا أزيد في الكتابة على نصف الساعة على أي حال حتى لا أرهق يدي، ثم أعود إلى الكتابة مرة أخرى في اليوم التالي فأكمل القصة أو أعيد كتابتها في معظم الأحيان.
ويصمت الأستاذ قليلاً ثم يقول: الحقيقة هي أن عملية الكتابة نفسها والتي لا تستغرق أكثر من نصف ساعة في الجلسة الواحدة إنما يسبقها تفكير يمتد لأيام وأيام.
قلت: لذلك فهي تشع بالمعاني والإيماءات.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: أريد أن أتحدث عن أهمية البحث العلمي في حياتنا، فالبحث العلمي هو بوابة عبورنا إلى المستقبل، لكنني لست متأكدًا أننا نوليه الاهتمام الذي يستحق، صحيح أن لدينا وزارة خاصة بالبحث العلمي وإن كانت قد أدمجت في وزارة التعليم العالي، لكنني لا أرى مردودًا واضحًا لذلك البحث في حياتنا اليومية. إن علينا أن نعتني بالبحث العلمي أكثر من ذلك، فنرصد له الميزانيات، ونشجع الباحثين فيه، ونحاول الاستفادة من علمائنا في الخارج. لقد سعدت بما حققه العالم المصري أحمد زويل، لكننا أقمنا له الاحتفالات والمهرجانات أكثر مما استفدنا منه علميًا، وأحمد زويل ليس العالم الوحيد، فقد سمعت أخيرًا عن مصري آخر في السويد توصل إلى طريقة جديدة لعلاج الفيروسات المستعصية مثل ما يصيب الكبد، وذلك عن طريق تسخين العضو المصاب إلى درجة عالية تقتل الفيروس ولا تضر بالجسم، ولقد نجحت تجاربه على القروود والخنازير، وهو يريد الآن أن يجربها على الإنسان في مصر حتى تكون التجربة قد خرجت من مصر. إن علينا أن نتبنى مثل هذه التجارب، ونوفر لها كل الإمكانيات. إن علينا أن نستطلع رأي علمائنا في الداخل والخارج، وندرس اقتراحاتهم لكي نقيم قاعدة علمية أساسية، وينطلق ويتحرك من خلالها الفكر المصري في القرن القادم. إن البحث العلمي تأثيره يمتد إلى كل نواحي الحياة من صناعة وزراعة وصحة، وخلافها، وهو يعتمد على قاعدة من التكنولوجيا يجب على الجهات المعنية أن توفرها للباحثين، وإلا فسنظل مستوردين للعلم بعد أن كنا في الماضي أحد صناعه.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: سعدت جداً بكل مظاهر التكريم التي قوبل بها العالم المصري أحمد زويل قبل وبعد فوزه بجائزة نوبل، فأنا كنت أول من تنبأ له بهذا الفوز، وفي أول زيارة له للقاهرة كتبت في هذا المكان أحبيه منذ ما يقرب من عشر سنوات، ولم أكن في ذلك الوقت أعرفه، وتصادف بعد ذلك أن كنت جالساً مع الأسرة في فندق سميراميس حين أقبل عليّ رجل في منتصف العمر يحمل وجهه المصري ابتسامة بشوشاً وعرفني بنفسه وكان أحمد زويل.

ثم يضيف الأستاذ: لكن ما أريد أن أقوله هو ماذا نحن فاعلون بعد الاحتفالات والتكريم؟ هل سينفض المولد ويعود كل شيء كما كان؟ إنني أقترح أن نحاول الاستفادة من أحمد زويل الذي أقر العالم عبقريته العلمية والذي يقول أنا مصري، بأن نطلب استشارته في كيفية وضع قاعدة علمية في مصر تهيي لأصحاب المواهب أن ينموا مواهبهم ويقدموا لمصر عطاء، وذلك بما له من خبرة في هذا المجال. فلماذا لا تكون هناك لجنة قومية علمية يشارك فيها زويل وسائر علمائنا الموجودين في الخارج، والذين برعوا في مختلف الجوانب العلمية، مثل الدكتور مجدي يعقوب في جراحة القلب، والدكتور فاروق الباز في أبحاث الذرة، وغيرهما، وذلك مع علمائنا في الداخل، على أن تكون مهمة هذه اللجنة هي وضع استراتيجية عامة للنهوض بالعلم في مصر؟ صحيح أن الأبحاث العلمية يمكن أن تصل تكاليفها اليومية إلى ملايين الدولارات كما شرح د. زويل لكن مهمة هذه اللجنة يجب أن تكون وضع الخطة التي تتفق مع إمكانياتنا. وإذا كانت الهند وباكستان بكل ما لهما من مشاكل اقتصادية قد تمكنت كل منهما من أن تصبح دولة نووية، فلا بد أنه باستطاعتنا نحن أيضاً أن نضع البلاد على أعتاب التقدم العلمي والتكنولوجي الحديث، ولا شك أن إسهام أحمد زويل وغيره من علمائنا في الخارج سيكون مفيداً للغاية.

وجدت الأستاذ نجيب محفوظ هذا الأسبوع، وقد أصيب بحالة احتقان في حلقه، بسبب سحابة الدخان الأسود المخيّم على البلاد منذ أكثر من عشرة أيام، والتي أصابت الكثيرين بالتهابات في الحلق والعيون والصدر.

فقال لي: ألم يعلنوا متى يُنتظر أن يزول هذا الدخان؟

قلت: إنهم يصرحون كل ٤٨ ساعة بأن السحابة ستزول بعد ٤٨ ساعة، ثم يعودون بعد ذلك، فيقولون إنها مستمرة لـ ٤٨ ساعة أخرى.

قال: يقولون إنها بسبب حرق قش الأرز في المحافظات القريبة من القاهرة..

قلت: لقد صرحت بعض هذه المحافظات بأنها لا تحرق شيئاً، وأن الجو بها صحو لا سحاب فيه ولا دخان، ذلك أنها لا تزرع الأرز أصلاً حسب قرارات وزارة الزراعة. ولما كان من المستحيل أن يكون كلام المسؤولين في القاهرة خطأ، لذلك فإني أعتقد يا أستاذ نجيب أنهم يقيمون هذه الحرائق سرّاً، وفي أماكن مغلقة داخل منازلهم حتى لا يراها أحد، وذلك بعد أن اكتشف الفلاح المصري لأول مرة أن الحرق وسيلة مبتكرة للتخلص من فضلات حقله لم يتوصل إليها أجداده منذ عصر الفراعنة وحتى الآن.

قال الأستاذ: إن الفلاح المصري يحرق هذه الفضلات منذ الأزل، لكنهم يقولون إن هناك مرتفعاً جويّاً أو منخفضاً لست أدري هو الذي يستبقي الدخان هذه المرة فوق أجواء القاهرة.

قلت: لقد قالوا هذا فعلاً، لكن ما لم يقوله هو أن هذا المنخفض هو مثل الخفافيش ينام في النهار، فيترك جو القاهرة صحواً لا غبار فيه، ثم يصحو في الليل ليستقر مرة أخرى وحتى الصباح فوق القاهرة.

قال: سمعت أن الوزارة عقدت اجتماعاً خاصاً لبحث هذه الظاهرة الغربية التي تسبب للناس الكثير من المتاعب، فهل تعرف ماذا دار في هذا الاجتماع؟ أو إن كانوا قد اتخذوا أي إجراءات تخفف من هذا الغيم الأسود الجائم على صدورنا؟

قلت: لا أعرف، فالصحف التي كانت قد أعلنت عن الاجتماع يوم انعقاده صدرت في اليوم التالي دون أن تتضمن كلمة واحدة مطمئنة عما دار فيه، وإن كانت هذه الصحف قد تضمنت تصريحات تشير إلى أن السحابة مستمرة ٤٨ ساعة أخرى.

قال بصوت زادت فيه حشجة الالتهاب: أفادك الله، وأفاد جميع المسؤولين الغيورين على مصالح الوطن.

كان الحديث يدور حول عملية الخصخصة التي يُقال إن الوزارة الجديدة ستسرّع بها. وحول الاختلاف بين القطاع العام والقطاع الخاص، قال الأستاذ نجيب محفوظ: لا أخفيك أنني كنت في الماضي مع القطاع العام، والحقيقة أن القطاع العام على الورق هو مشروع مثالي لا يضاويه أي نظام آخر، فهو ينص على ملكية الشعب لوسائل الإنتاج، وعلى عدم الاستغلال، وهو يمثل غزارة في الإنتاج وعدالة في التوزيع. ولقد عملت أيضًا في القطاع العام حين رأست مؤسسة السينما في الستينيات، لكنني وجدت بالتجربة العملية أنه مشروع فاشل للأسف الشديد، وأنا في رأيي الآن أن فكرة القطاع العام المسيطر على الحياة الاقتصادية بلا منافس هو نظام مثالي، مثل الكثير من المبادئ الاشتراكية الأخرى، لذلك فهو يحتاج إلى أناس مثاليين لتنفيذه. وإذا كان القطاع العام هو الذي بنى الاتحاد السوفيتي في المرحلة الأولى، فذلك لأن من كانوا قائلين عليه كانوا أبناء الثورة الأولى من المثاليين الذين أقصدهم، لكن الحياة ليست مثالية على طول الخط، وسرعان ما انتصر الواقعيون وحدث للقطاع العام السوفيتي ما نعرفه جميعًا، وهو ما تسبب في النهاية في انهيار النظام السوفيتي كله. إذن لا يبقى أمامنا إلا القطاع الخاص، وإذا كان القطاع الخاص يُتهم باستغلال الشعب لمصالحه المادية، فإن دور الحكومة هو ترشيد ذلك، بما تضعه من ضمانات لحماية الطبقات الكادحة، وهكذا تحتفظ بالتنافس الصحي لتعدد جهات الإنتاج في القطاع الخاص وروح المبادرة والحافز الشخصي، مع محاولة الحيلولة دون الاستغلال. وإن كنا نُسلم طبعًا بأن المشاريع الاستراتيجية الكبرى يجب أن تبقى في يد الدولة مثل قناة السويس وغيرها، وهذا هو النظام المعمول به الآن في العالم أجمع، سواء الرأسمالي أو ما كان اشتراكيًا في السابق.

قلت للأستاذ نجيب محفوظ: يتجه الأدب والفن في العالم أكثر فأكثر إلى الغموض، فأعمال بعض الأدباء الجدد مثل أعمال بعض الفنانين التشكيليين أو حتى الموسيقيين أصبحت تستعصي على المتلقي العادي، بحيث تبدو وكأنها كُتبت للمتخصصين وحدهم، ففي رأيك، ما سبب هذا الغموض؟ قال: الغموض في الأدب يمكن أن يعود إلى ثلاثة أسباب: أولها صعوبة الفكرة نفسها، فقد تكون الفكرة التي يريد الكاتب إيصالها إلى القارئ فكرة مركبة وغير بسيطة، فيكون التعبير عنها به شيء من الغموض الذي يتطلب من القارئ مجهودًا أكبر في فهم العمل مثل قراءته أكثر من مرة أو اللجوء إلى الشروح، أو التحليلات النقدية التي كُتبت عنه. وهذا شيء طبيعي إذا لم نكن معتادين على هذا النوع من الأدب، تمامًا مثل الموسيقى، فإن من يستمع لأول مرة إلى سيمفونية لبيتهوفن عليه أن يلجأ إلى دراستها جيدًا حتى يستوعبها الاستيعاب السليم، أي إن الغموض هنا يعود إلى صعوبة عند المتلقي أيضًا، لأنه غير مدرب على هذا النوع من الأعمال الفنية المركبة. وهناك سبب ثانٍ يعود إلى صعوبة عند الكاتب نفسه، وليست صعوبة في الموضوع أو في المتلقي، فالكاتب هنا يكون غير قادر على إيصال فكرته بالسهولة المطلوبة، لأن أدواته الفنية بها بعض القصور، لذلك يجيء عمله الفني غامضًا، ذلك الغموض الناتج عن التشويش والافتقار إلى السلاسة في التعبير. أما السبب الثالث فهو أسوأ الأسباب جميعًا، وهو حين يعتمد الكاتب إلى إضفاء الغموض على عمله، متصورًا أن ذلك يعطي لعمله قدرًا من الأهمية، لكنه في الحقيقة يسيء إلى هذا العمل.

ثم يقول الأستاذ: لا ينبغي علينا أن نخلط بين هذه الأنواع الثلاثة من الغموض الفني، لأن النوع الأول وحده الجدير بالاعتبار، لأن جميع الأعمال الفلسفية الكبرى والعميقة تندرج تحته، وهي تحتاج من الإنسان إلى شيء من الدراسة والتركيز لكي يصل إلى كنه العمل، وتلك قد تكون سمة من سمات الأعمال العملاقة في التاريخ الإنساني.

وبعد الحديث عن الغموض في الأدب، الذي يجعل العمل الفني يستعصي على فهم الإنسان العادي، ويكاد يحوله إلى أدب للخاصة وهدمهم، تحدثت مع الأستاذ عن الجانب الآخر من القضية، وهو الجماهيرية في الأدب، فقال: إن المثل الأعلى لكل أديب هو أن يُرضي الخاصة ويصل في الوقت نفسه إلى الإنسان العادي، ومن الأمثلة البارزة في هذا الاتجاه شكسبير، فلا شك أن أفكاره من أعمق ما يكون، وشخصياته بحاجة إلى فهم ودراسة، لكنك تجد مسرحياته مليئة بالرغبات الجماهيرية، مثل مشاهد المبارزة مثلاً أو الفكاهة التي ترد حتى في مسرحياته التراجيدية. ولذلك فقد كان مسرحه مسرحاً شعبياً، وهذا مثل أعلى بلا شك، لكن هناك - على الجانب الآخر - أدباً صعباً قد لا يجد حظه عند الجماهير، رغم جودته، وربما أُدخل في هذا النوع أدب يكون منتشرًا بشيء جديد لم تألفه الجماهير، ولم يتحول إلى عادة ذوقية بعد، لذلك تجده لا ينتشر، مثل الأعمال الأخرى الأقرب إلى ما تعودته الجماهير. لكن هذا لا يعني أن كل ما ينتشر بين الجماهير هو أدب جيد، فهناك نوعيات شعبية تعتمد على الإثارة أكثر مما تعتمد على الفن، مثل القصص البوليسية والقصص الجنسية، فهذه قد تُطبع بالملايين وتكتسح الكون.

وسألت: لقد حققت أنت يا أستاذ نجيب تلك المعادلة الصعبة بين المستوى الفني والانتشار الجماهيري، فهل تراعي ما يروق للجماهير العادية، وما لا يروق وأنت تكتب رواياتك؟ قال: يُهيا لي أن الكاتب وهو يكتب إنما هو يكلم نفسه، أي أنه يكتب لنفسه، ولا أعتقد أن عليه أن يكتب للجماهير بشكل مباشر، وإن كانت الجماهير دائماً تحتل مكاناً ما في خلفية ذهنه، ويجب ألا تكون هي في مركز الصدارة، وإلا كان ذلك على حساب أشياء أخرى كثيرة. إن الكاتب وهو يكتب يفكر فقط في العمل، وفي نفسه وفي قارئ ما يشبهه، ثم عليه بعد ذلك أن ينتظر حظه.

ثم يتحدث الأستاذ عن ظاهرة أخرى في الحياة الأدبية، وهي ما يُعرف باسم مؤلف الرواية الواحدة، حين يأتي أحد المؤلفين برواية تحقق نجاحًا كبيرًا، لكنه لا يستطيع أن يُتبعها برواية أخرى، أو إن فعل فهي لا تُحقق النجاح المرجو، فيقول: تلك ظاهرة معروفة في الآداب العالمية كلها، وهي ترجع في معظم الأحيان إلى أن الكاتب يكون قد مر بتجربة ضخمة ومثيرة، كحادثة غيرت مجرى حياته على سبيل المثال، أو يكون لديه اكتشاف ما، فيكتب تجربته هذه ويُباع كتابه بالملايين، لقوة التجربة التي يرويها. فالفضل هنا يعود إلى التجربة المثيرة التي أعطتها له الأقدار، وما كان عليه إلا أن يكتبها بأسلوب عادي يقدر عليه أي متعلم، هذه النوعية من الكتب تجد استجابة كبيرة بين الجماهير، لكن من الصعب أن نضعها في عداد الأدب، فهي لا تُعبر عن أسلوب فني خاص بالكاتب، ولا تُقدم رؤية فلسفية للحياة مما نجده في الروايات العالمية الكبرى. لذلك فتلك تجربة عادة لا تتكرر، لأن الإنسان لا يمر بمثل هذه التجارب المثيرة إلا مرة أو مرتين في حياته.

ثم يختتم الأستاذ حديثه قائلًا: لذلك فعلينا أن نفرق جيدًا بين العمل الأدبي الحق الذي يُحقق انتشارًا جماهيريًا، مثل أعمال بلزاك أو تشارلز ديكنز، وبين روايات أخرى تحقق انتشارًا مماثلًا أو أكبر، لكنها تعتمد على أهمية التجربة التي تسردها، وعلى الإثارة التي بها، وليس على المقاييس الفنية للأدب.

قلت للأستاذ: طالعتنا الصحف الأجنبية بأن جريدة «الموندو» الإسبانية العالمية قد اختارت روايتكم «كفاح طيبة» كواحدة من أهم روايات القرن العشرين.

قال: سمعت بذلك، ولا أخفي عليك أنني دُهِشت، ربما كانوا يقصدون أنها أهم رواية في مرحلة الروايات الفرعونية التي كتبتها قبل رواياتي الواقعية!

قلت: لا، ليس هذا ما يقصدونه، فقد أوضحت الجريدة العالمية في دراستها التي أجرتها على أهم ما أنتجته البشرية من أدب روائي في القرن العشرين، أن روايتك «كفاح طيبة» جسدت روح العصر بتصويرها لكفاح شعب مصر ضد الاحتلال الأجنبي. وقد كانت حركات التحرر هي السمة الأساسية للقرن العشرين الذي شهد الإمبراطوريات الاستعمارية واستقلال الشعوب في جميع أنحاء العالم من آسيا إلى أفريقيا وأمريكا اللاتينية. ولقد صورت الرواية هذا الكفاح وربطت بين الواقع المصري المعاصر وقت كتابتها، والذي جاء وقت الاحتلال البريطاني لمصر، والبُعد التاريخي في مدينة طيبة المصرية القديمة، وهكذا أعطت معنى إنسانياً لحركات التحرر الوطني في العالم عبر مختلف العصور والعهود. ومما يؤكد تجسيد «كفاح طيبة» لروح العصر أنها لاقت إقبالاً كبيراً بين القراء في الخارج، حين قامت جريدة «الموندو» واسعة الانتشار، بطبعها وتوزيعها مع الجريدة.

قال الأستاذ: لا بد أن جزءاً من اهتمامهم بالرواية يعود إلى ولعهم في الخارج بالتاريخ الفرعوني. قلت: إن لديهم مئات الروايات التي تعالج هذه المرحلة من تاريخنا، ابتداءً من روايات هاجارد البريطاني في بدايات هذا القرن، إلى روايات كريستيان جاك الفرنسي في أواخره، والتي تحقق مبيعاتها الملايين، لكنهم اختاروا روايتك أنت لقيمتها الأدبية المتفوقة، وهذا فخر جديد للأدب العربي تحقق على يدك يا أستاذ نجيب.

ويتواصل الحديث عن رواية «كفاح طيبة» التي أختيرت كواحدة من أهم روايات القرن العشرين، فأقول للأستاذ: ومن بين ما قرأته عن «كفاح طيبة» في الخارج قولهم إن نجيب محفوظ رغم أنه يتحدث في الرواية عن الكفاح الوطني للشعب المصري القديم، فإن القارئ يشعر طوال الوقت بأن عيني الكاتب كانتا على الحاضر أكثر منها على الماضي، وأن الكفاح المقصود في الرواية هو كفاح مصر الحديثة ضد الاحتلال البريطاني، فيقول الأستاذ: هذا صحيح، فقد كان اهتمامي الأول بالكفاح الوطني من أجل الاستقلال، وهو الكفاح الذي فجرته ثورة ١٩١٩ لكني وجدت في التاريخ المصري القديم مادة خصبة تضيف عمقًا للكفاح المعاصر، بالإضافة إلى أن اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون عام ١٩٢٢ أوجد اهتمامًا كبيرًا بالتاريخ المصري القديم، إلى درجة أن بعض الأغاني الدارجة كانت تتحدث عن ذلك، وإني أذكر بالتحديد أغنية تقول: «إحنا أبونا توت عنخ آمون»، وقد امتزج هذا المعنى بالكثير من أغانينا الوطنية في ذلك الوقت. وفي الوقت نفسه كنت قد بدأت أقرأ كثيرًا في التاريخ المصري القديم، وقد استهواني التاريخ الفرعوني، إلى درجة أنني قررت أن أكتب رواياتي كلها من مادته الثرية. ووجدت بالفعل أفكارًا تصلح لما يقرب من أربعين رواية، وهكذا كتبت «رادوبيس» و«عبث الأقدار» اللتين كانتا مستوحاتين من الأدب المصري القديم والأساطير الفرعونية، أما «كفاح طيبة» و«العائش في الحقيقة» اللتان كتبتهما بعد ذلك بأكثر من أربعين عامًا، فقد كانتا مستوحاتين من التاريخ نفسه، وإن كنت قد أخضعتهما إلى بعض المعالجة الروائية.

قلت: لكنك فجأة غيرت اتجاهك والتجأت إلى التاريخ المعاصر، فكتبت الرواية الواقعية. قال: لقد استهواني الواقع بشكل كبير، ووجدت نفسي أتجه إلى هذا الواقع بكل تفاصيله، حيث وجدت فيه مادة ثرية جدًا ماثلة أمامي، وهكذا بدأت المرحلة الواقعية التي تركتها هي الأخرى بعد عدة سنوات إلى مرحلة ما بعد الواقعية، ثم المرحلة التجريبية إلى المرحلة الحالية التي أكتب فيها الأقصوصة التي يمتزج فيها الواقع بالخيال والحاضر بالتاريخ.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: أعتقد أن أكبر نقطة تحول حدثت في تاريخ الإنسانية خلال القرن العشرين كانت غزو الفضاء، فلأول مرة في التاريخ أصبح الفضاء جزءًا من مجال تحرك الإنسان، بعد أن ظل طوال الدهر يُنظر له على أنه خارج نطاق تحركه، مثل الأرض للكائنات البحرية التي ينتهي حيز حياتها عند حدود البحار. أما الآن فإن الأقمار الصناعية تدور في الفضاء المحيط بالأرض، والإنسان تمكن من الخروج خارج غلاف الكرة الأرضية، والحقيقة أن تأثير غزو الإنسان الفضاء لم يكتمل بعد، وأن ما نعيشه الآن هو مجرد بداية لما سيحدث في القرن الجديد، حين تصبح الكواكب الأخرى بمثابة عالم جديد للإنسان بما تزخر به من إمكانيات وثروات لا نستطيع أن نتخيلها الآن. هذا على المستوى العلمي، أما على المستوى السياسي، فإن أكبر مكسب تحقق للإنسان خلال القرن الماضي كان تحرر شعوب العالم الثالث من الاستعمار، والذي كان قد وصل عمره في بعض المناطق إلى عدة قرون، فلم يحدث أن شهد تاريخ العالم هذه الحركة من التحرر التي شهدناها، خاصة في منتصف القرن، أي في الخمسينيات والستينيات، بشكل خاص. لقد أعادت هذه الحركات رسم خريطة العالم من الناحية الجغرافية، حيث قامت دول وزالت أخرى، وانقسمت دول، واتحدت دول أخرى، لكن أهم ما فعلته حركة التحرر هو أنها أعادت حركة رسم الخريطة السياسية، فلم تعد السياسة كما كانت قبل أن تتحرر الشعوب ويصبح لها رأي على الساحة السياسية وفي المحافل الدولية. ومن الغريب أن تلك العدوى انتقلت مع نهايات القرن من العالم الثالث إلى شرق أوروبا، فحدث ما حدث في يوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا وغيرها، مما يجعلنا ندخل القرن بوضع جديد، معطياته السياسية مختلفة عن القرن الماضي.

ويواصل الأستاذ حديثه عن حصاد القرن العشرين، فيقول: قد يعجب البعض إذا قلت إنني أرى أن إعلان حقوق الإنسان كان من أهم إنجازات القرن العشرين، فقولي هذا يأتي في وقت تُنتهك فيه هذه الحقوق في مختلف أنحاء العالم ويصرخ الإنسان بصوت ملؤه الألم، مطالبًا بحقوقه. لكن قبل الإعلان عن حقوق الإنسان، الذي وقعت عليه دول العالم، لم يكن من حق الإنسان حتى الصراخ، لأن انتهاك الحقوق كان هو سنة الحياة، أما إعلان الحقوق فقد أوجد وعيًا بهذه الحقوق جعل انتهاكها يعد شذوذًا ينبغي التصدي له. وهذا يذكرني بإعلان المبادئ الذي أعلنه الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون أثناء الحرب العالمية الأولى، والذي كان هو أساس جميع الثورات التي شهدتها العالم بعد ذلك، ففي بعض الأحيان فإن الوعي بالشيء يكون له أكبر الأهمية، لأنه الخطوة الأولى نحو تحقيق هذا الشيء، ودون الوعي لا يمكن تحقيقه. ولا شك أننا نعيش الآن فترة لم تشهد فيها الدنيا وعيًا بأهمية حقوق الإنسان مثلما يحدث الآن، فقد أصبحت حقوق الإنسان أمرًا مسلمًا به، حتى إن تم انتهاكها هنا أو هناك، وقد تزايد الوعي بهذه الحقوق، حتى انتقل إلى مستويات مختلفة، مثل حقوق المرأة وحقوق الطفل وحقوق الأقليات، بل حتى حقوق الحيوانات، التي أقيمت في العالم جمعيات لضمانها والدفاع عنها. وإنني أعتقد أن القرن الجديد سيكون هو قرن حقوق الإنسان، فالمرأة ستشهد عصرًا ذهبيًا لم تعرفه من قبل، وستبرز على الساحة مختلف الأقليات التي كانت مجهولة في السابق أو مهضومة الحق، وذلك كله كانت بدايته هي إعلان حقوق الإنسان.

سألت الأستاذ نجيب محفوظ: ما الآمال التي نشأ عليها جيلكم؟

قال: في مقدمة هذه الآمال كانت القضية الوطنية، أي الاستقلال، ولكن بشقيه، الخارجي والداخلي، ففي الخارج كان هناك المستعمر الأجنبي الرابض فوق أنفاسنا يستغل موارد البلاد ويهدر كرامة مواطنيها، من المواطن البسيط إلى الملك نفسه. وفي الداخل كان هناك ظلم اجتماعي، والاضطهاد كان أساس العلاقة بين الحاكم والمحكوم.

وماذا حدث لهذه الآمال؟

الكثير منها قد تحقق على يدي ثورة ١٩٥٢، فالاستقلال مثلاً قد تحقق وخرج المستعمر البريطاني بعد ٧٠ سنة من الاستعمار، وقد حاول العودة مرة أخرى عام ١٩٥٦ مستغلاً أزمة السويس، لكن في ذلك كانت نهايته في العالم كله، وانهايار الإمبراطورية التي كانت توصف بأنها التي لم تكن تغيب عنها الشمس. أما العلاقة بين الحاكم والمحكوم فهي الآن في أفضل صورها، فالحاكم منذ قيام الثورة هو من بين أفراد الشعب وليس هناك انفصال من ناحية الجنس أو اللغة أو الثقافة بين الحاكم والمحكوم، كما كانت الحال في السابق. فقد لا يعرف بعض أبناء الجيل الجديد أن بعض حكامنا في السابق لم يكونوا يتحدثون لغة البلاد، وأن أول ملك كان يتحدث العربية لأبناء الشعب كان الملك فاروق، ولقد تسبب ذلك في اختلاف جميع التوجهات السياسية والاجتماعية والثقافية، ما بين الشعب وحكامه على مر العصور، وهذا الوضع غير موجود الآن، والفضل في ذلك للثورة.

وهل تحققت هذه الآمال بالصورة التي كنت تتطلع إليها؟

الحقيقة أنها تحققت بدرجة كبيرة، فما فعلته ثورة يوليو بالنسبة لتحطيم الطبقة وتحقيق العدالة الاجتماعية لا يمكن إغفاله، كما أن تحرر الإرادة الوطنية أصبح أمراً مسلماً به.

ثم يختتم الأستاذ حديثه قائلاً: ومع ذلك فهناك بعض الآمال التي لم تتحقق، ومنها مشكلة الفقر، فرغم المشاريع الكبيرة التي أقيمت، ورغم التقدم الاقتصادي الذي تحقق، فإن مصر ما زالت تعتبر دولة فقيرة، والفلاح المصري وإن كانت حالته قد تحسنت إلا أنه ما زال فقيراً. وإنني أتطلع إلى المستقبل، متمنياً أن يكون للمشروعات الاقتصادية العملاقة التي نسمع عنها أثر على حال الفلاح المصري، وعلى الوضع الاقتصادي لمصر في القرن الجديد.

قلت للأستاذ: لقد شاهدت لك صورًا كثيرة بالطربوش، فمتى أقلعت عن لبسه؟
قال: أقلعت عنه بشكل نهائي بعد قيام الثورة، وكنت سعيدًا بذلك سعادة كبيرة، فقبل عام ١٩٥٢ لم يكن من الممكن أن أدخل على مدير بالوزارة دون الطربوش، ثم تطورت الحال حتى أصبح المدير نفسه يأتي بلا طربوش، لأن الطربوش كان رمزًا للتبعية التركية أو رمزًا للملكية القديمة، التي كانت تتبع التقاليد التركية. فكان رجال العائلة المالكة يرتدون الطربوش الأحمر والنساء يرتدين اليشمك الأبيض، وحين أسقطت هدى شعراوي الحجاب في بداية العشرينيات، هي لم تكن تسقط رمزًا إسلاميًا، وإنما كانت تسقط رمزًا للتبعية السياسية، لتؤكد الاستقلالية المصرية، أما الطربوش فلم يتم إسقاطه إلا بقيام الثورة.

لكن صورك القديمة تشهد بأنك لبست القبة أيضًا.

القبة كنت ألبسها في الصيف فقط، لأنها كانت تحمي من الشمس أكثر من الطربوش، وقد كانت لدي بعض الحساسية الجلدية التي كانت تتأثر بأشعة الشمس الحارقة. ولقد قام صديقي مصطفى أبو النصر بإهدائي قبة، وجدت أن بها فائدة، وكانت عندي قبة أخرى لا أعرف من أين جاءتني؟ ولا أين ذهبت الآن هي وزميلتها؟

ثم يسرح الأستاذ بعيدًا ليقول: لكن للقبة تاريخًا آخر في حياتنا، حين كنا في مرحلة التعليم الثانوي وفي الجامعة، ظهرت دعوة لارتداء القبة كنوع من الفرنجة والاندماج مع الحضارة الغربية، على أساس أن الطربوش هو رمز التأخر، وأن القبة رمز التقدم. وهناك من قادوا هذه الحملة مثل المرحوم محمود عزمي، وقد ظهرت في ذلك الوقت مونولوجات تتغنى بذلك، فنقول: «ما بدها ظيطة، ما بدها عيطة، خلاص لبسنا البرنيطة». لكن تلك الدعوة لم تستهوني لأنه في عز حماسي للحضارة الغربية لم يقل عندي شأن الحضارة العربية الإسلامية التي هي الأصل، فكنت ترى على مكثبي مؤلفات شكسبير جنبًا إلى جنب مع المتنبي.

سألت الأستاذ نجيب محفوظ: كم بدلة في دولاب ملابسك؟
ففوجئ بسؤالي ثم قال: بالنسبة للبدل الشتوية لا تزيد على تسع أو عشر، وهذا كثير، ففي بعض الأحيان قد يمضي الشتاء كله فأجد أنني لم أرتد إحداها إلا مرة واحدة، ولقد مضت سنوات طويلة لم أفصل فيها أي بدل جديدة.

من كان ترزيك؟

كان ترزيًا أخذني إليه صديقي ثروت أباظة الذي جاءني مرة، مستنكرًا وقال: إنك لم يعد بينك وبين «دليا» إلا عشرة جنيهات فقط. قلت له: ومن هو «دليا» هذا؟ قال: هو أكبر ترزي في مصر، وأجره لا يزيد على ما تدفعه أنت الآن إلا عشرة جنيهات فقط، فلماذا لا تجعله يفصل لك بدلة محترمة، إنه ترزي الأكبر، ولا يفصل لأي شخص، لكني سأكون واسطتك عنده. لقد أصبح «دليا» بعد ذلك صديقًا عزيزًا، ومنذ بضع سنوات كان يُجري عملية جراحية وذهبت لزيارته بالمستشفى ودعوت له بالشفاء، فوضع رأسه على كتفي وبكى، وقد كانت تلك هي آخر مرة أراه فيها، فقد تُوفي بعدها وامتنعت عن تفصيل البدل.

ومنذ متى امتنعت أيضًا عن ارتداء ربطة العنق؟

لقد امتنعت عن ارتدائها منذ سنوات طويلة، في البداية لم أكن أجاهر بعدم ارتدائها، فكنت أداري ذلك بارتداء البلوفر الذي يُخفي العنق، لكني بعدها أقلعت عن ذلك أيضًا، والآن لا أستطيع أن أعود إلى ربطة العنق، لأنني لا أعرف كيف تُربط. لقد كان بعض الأصدقاء، خاصة يوسف السباعي رحمه الله، يأتون لي بربطات العنق من الخارج، كلما سافروا، فكنت أستاذنهم في أن أقوم بإهدائها، إلى أن أقلعوا عن إهدائي إياها.

قلت للأستاذ نجيب محفوظ: أعرف أنك قرأت خلال حياتك الممتدة مئات الكتب، وأن قراءتك كانت دائماً متنوعة، ولكن حين تنتظر اليوم ورائك إلى الماضي، ما الأشياء التي كنت تود معرفتها، ولم تواتك الفرصة للاطلاع عليها؟

قال: إن سؤالك ينطبق على الواقع أكثر مما ينطبق على الماضي، ففي الماضي كنت كلما أردت الاطلاع على جانب معين من جوانب المعرفة اطلعت عليه دون تأخير، فقد عرفت المكتبات العامة من الصغر، وكنت أذهب إلى دار الكتب للاطلاع على أمهات الكتب كما كنت زائراً دائماً إلى المكتبات التي تباع المؤلفات الحديثة. وقد قرأت في الأدب والتاريخ والفلسفة والسياسة والعلوم والتراث وغيرها، فهناك دائماً أشياء يود الإنسان معرفتها، لكن العمر لا يسمح بكل ذلك، أما الآن فإن ظروف الشخصية لا تسمح بأي نوع من الاطلاع، فمنذ ضعف بصري وسمعي لم أعد متابِعاً بالقدر الذي تعودته لتطور الفنون والآداب في العالم.

قلت: أعرف أن الحاج صبري يقرأ لك الصحف كل يوم، وأنه في أيام الجمعة والإجازات، تقوم بهذه المهمة إحدى كريمتيك.

قال: هذا صحيح، ولولا ذلك لانعزلت تماماً عن الحياة، لكن إلى جانب الصحف اليومية فإنني كثيراً ما أسأل أصدقائي حين ألتقي بهم عن الأدب الحديث عندنا وفي الخارج، وكذلك عن الفن التشكيلي وعن الموسيقى، فلديّ دائماً شغف لمعرفة أي أساليب جديدة أصبحت تنتهجها الفنون الآن بعد الأساليب التي عرفتتها في السنوات الماضية. وأنا دائم سؤال من حولي عن ذلك، لكني لا أجد دائماً الإجابة الشافية رغم ما يقولون لي، فيبدو أن معرفة الإنسان بالشيء نفسه لا تضارعها المعرفة المنقولة عن الآخرين، كما أنني أجد أن الاطلاع عندنا ليس كما كان في السابق. فالكثير مما يحدث في الخارج يمر علينا مر الكرام، كما أن حركة الترجمة ليست بالنشاط الذي كانت عليه في السابق، حين كانت تتم ترجمة الكتب المهمة بعد صدورها في الخارج مباشرة، وبسبب هذا التكاثر فإن المعاصرة، أي معرفة العصر الذي نعيش فيه والاطلاع المباشر على تطوراته، قد أصابها قدر من الخمول، أتمنى أن يزول.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: سعدت جداً بتخصيص متحف في الإسكندرية لأعمال الفنان التشكيلي الكبير محمود سعيد، حيث إن لي علاقة خاصة به على غير معرفة، ففي أواخر العشرينيات الماضية، وقد كنت وقتها ناشئاً في المرحلة النهائية من الدراسة الثانوية، قرأت مقالاً للعقاد عن فنان رسام اسمه محمود سعيد. وقد تعجب جداً لذلك، فالفن في ذلك الوقت لم يكن له وجود كبير في المجتمع، فكيف يفرد العقاد الكبير مقالاً كاملاً عن أحد الفنانين؟ وقد تناقشت في هذا مع بعض أصحاب الرأي فقيل لي إن الأديب ليست وظيفته الأدب وحده، وإنما عليه أن يدرس الفنون كلها مثل الفن التشكيلي والموسيقى وغيرهما، وينهل منها ما يستطيع. ولقد كان محمود سعيد هو الذي عرفني على عالم الفن التشكيلي، وقد اكتشف بعد ذلك أنه كان يُقام معرض سنوي وحيد في شارع إبراهيم باشا بالقاهرة تُعرض فيه أعمال جميع الفنانين، فلم تكن هناك معارض خاصة في ذلك الوقت لكل فنان. وفي هذا المعرض العام الذي تعودت ارتياده كل سنة تعرفت على أعمال محمود سعيد لأول مرة، ولوحاته ما زالت منطبعة في مخيلتي بألوانها، مثل «بنات بحري» و«بائع العرقسوس» والكثير من البورتريهات النسائية التي اشتهر بها والتي استطاع فيها أن يجسد الجمال الشعبي كما لم يفعل أحد من قبله، وقد كان بالفعل رجلاً عظيماً. وقد أكد لي بفته المتميز القيمة الحقيقية للفن التشكيلي، خاصة بعد أن علمت آنذاك أنه كان مستشاراً، لكنه ترك القضاء ووهب وقته كله للفن، رغم أن وظيفة المستشار كانت واحدة من أرقى الوظائف في مجتمع تلك الأيام، وقد كان لذلك تأثير على القرار الذي اتخذته بعد ذلك بسنوات حين تركت الفلسفة التي درستها بالجامعة وتفرغت للأدب.

ويواصل الأستاذ نجيب محفوظ حديثه عن الفن التشكيلي، فيقول: بعد تعرفي على فن محمود سعيد بدأت أهتم بالفن التشكيلي، فاشتريت كتاباً حدثتك عنه من قبل وما زال عندي اسمه، «Outline of Art»، يقدم تاريخ الفن في العالم بشكل ممتع وجذاب منذ أيام الفراعنة وحتى بيكاسو. وأذكر أنني كنت كل يوم أتصبح بصورة من الكتاب أبدأ بها يومي، فبعد أن ارتدي ملابس، وقبل أن أنزل إلى عملي كنت أفتح صفحة جديدة من الكتاب على لوحة جديدة تكون هي لوحتي في ذلك اليوم، ففي يوم تكون لوحة «الطاحونة الحمراء» لتوتوز لوتريك، وفي يوم تكون «حاملات القرابين من معبد حتشبسوت»، وفي يوم «زهور عباد الشمس» لفان جوخ، وهكذا. كذلك كانت لي علاقات شخصية بمجموعة التلمساني الذي كان صديقاً حميماً لي، وكنت أتابع رسومه السيريالية هو ورمسيس يونان وفؤاد كامل، وكانت لهم مجلة ممتعة، وقد نشرت فيها ذات مرة، وكان التلمساني يمتاز بسعة الثقافة وكانت له مكتبة أديب، وقد توطدت علاقتي به بعد ذلك، حين بدأت أكتب للسينما، وكان صلاح أبو سيف هو صديقنا المشترك. وكما حرصت على دراسة الفن التشكيلي ومتابعة حركته في مصر وفي الخارج، فقد فعلت الشيء نفسه مع الموسيقى، وكان دليلي في البداية هو كتاب يحمل اسم «Music through the Ages» الذي كنت أقرأ فيه عن أكبر المؤلفات السيمفونية، ثم أستمع إلى كل منها في برنامج حسين فوزي الشهير بالإذاعة. والحقيقة أن تعرفي على الفن التشكيلي، علاوة على قيمته الإنسانية في حد ذاته، كان يمثل أيضاً إثراءً لي كأديب، لأن الفنون جميعها متصلة، وهناك ما يربط الرواية بالموسيقى، وما يربط الشعر بالفن التشكيلي.

وجدت الأستاذ نجيب محفوظ في حالة حزن بادٍ، فسألته عن السبب، فقال: لقد تُوفي ابن شقيقي الأكبر.

وسهم قليلاً ثم قال: لقد كان لواءً متقاعدًا تخطى السبعين، لكنني ما زلت أذكر كيف كنت أحمله على كتفي وهو طفل صغير.

فحاولت مواساته قليلاً بالحديث عن حتمية الموت، لكنه قال: إن ما يزيد من ألمي أنني أجد نفسي في وضع يحظر عليّ المشاركة في مراسم الجنازة أو العزاء لشخص كان عزيزاً عليّ، فقد منعني - كما تعلم - ظروفِي الصحية والأمنية من الخروج بالقدر الذي أتمناه، ومن المشاركة في أي تجمعات عامة، وكمن مرة اعتذرت عن مناسبات تكريم لي شخصياً أو مناسبات أخرى سعيدة، أو غير ذلك لأناس قريبين إلى نفسي.

ثم سهم ثانية وقال: الغريب أن والد المُتوفى كان معمرًا، ووالدته معمرة، وجديه الاثنان كانا معمرين، حيث جاوز البعض منهم المائة عام، ولقد تُوفي له شقيقان قبله لم يكونا قد وصلا بعد إلى سن المعاش، لكنها إرادة الله الذي لا راد لقضائه، وهو الموت الذي يجيء حين يجيء فلا نملك حياله شيئاً إلا التفكير في أحوال هذه الدنيا الفانية وأحوال الإنسان الذي ينتهي وجوده بها بين لحظة وأخرى وكأنه ما كان.

وسهم ثالثة ثم عاد يقول: لقد كان أبناء أخي الأكبر قريبين جداً إلى نفسي، وكنت ألعب بهم وهم صغار.

قلت: متى رأيته آخر مرة؟

قال: حين جاء لزيارتي بالمستشفى وقت الحادث الذي وقع لي. وعاد الأستاذ إلى حزنه الصامت الذي لم أستطع أن أخرج منه، فاستأذنت منه بعد برهة ومضيت إلى صخب الحياة.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: سعدت جداً بأن علمت أن وزارة الخارجية قامت أخيراً بترميم مبنى كلوب محمد علي الذي يعتبر تحفة معمارية من الناحية الفنية وشاهدًا على حقبة من تاريخ مصر من الناحية السياسية. وأذكر في بداية الثورة أنه تعرض لبعض المخاطرة، فقد قيل وقتها إنه كان سيتم إغلاقه بسبب ارتباطه بالعهد البائد، لكن أحمد لطفي السيد كانت له منزلة كبيرة عند رجال الثورة، حين قيل إنه أحد المرشحين لرئاسة الجمهورية، وقد قال لهم: أنا رجل عجوز وهذا هو المكان الوحيد الذي أرتاده. فتركوه. ثم ضحك وهو يقول: فلم يكن من الممكن أن يجلس لطفي السيد باشا في الفيشاوي مثلاً!

ثم يضيف: كما كانت هناك إحدى السفارات التي كانت على وشك شرائه من الدولة كمقر لها، إلى أن تدخلت وزارة الخارجية في اللحظة الأخيرة وطلبت أن تؤول ملكيته إليها، ولو لم يكن هذا قد حدث لفقدنا جزءاً مهماً من تراثنا الحديث، لكن الكلوب تعرض على مدى السنوات إلى الإهمال والتآكل، إلى أن سمعت أن الخارجية قررت ترميمه وتجميله لإعادته إلى رونقه السابق. فقد كنا نتصور أن المعمار الوحيد الجدير بأن نحفظ به وأن نصونه هو الآثار الفرعونية أو الإسلامية أو القبطية، بينما الكثير من المعمار الذي أقيم خلال القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين يعتبر في الخارج تراثاً قومياً لا يمكن العبث به ومدينة القاهرة زاخرة بهذه الأمثلة.

ثم يسرح الأستاذ قليلاً، وهو يقول: لقد دخلت كلوب محمد علي مرة واحدة فقط في حياتي بعد قيام الثورة مباشرة حين تم تغيير اسم جائزة فؤاد الأول إلى جائزة الدولة وقبل أن تُلغى لتحل محلها جوائز الدولة التقديرية والتشجيعية. وقد كنا أنا والدكتور محمد كامل حسين آخر من حصل عليها قبل الإلغاء، وقد مُنحت لنا مناصفة أنا عن «قصر الشوق» وهو عن «قرية ظالمة». وقد دعاني الدكتور كامل للغداء بكلوب محمد علي لكي يستأذني في أن يلقي هو كلمتنا في حفل تسليم الجائزة، فخلصت من مهمة ثقيلة وفزت بالغداء الممتع الذي كان يشتهر به الكلوب.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: إن أهم ما تنطوي عليه احتفالات وزارة السياحة بذكرى الألفية الثانية لوصول العائلة المقدسة إلى مصر، والتي تحل اليوم، هو ذلك المعنى المقدس الذي يُشير إلى ارتباط مصر ارتباطاً وثيقاً بالأنبياء. فمصر هي التي حمت المسيح، وهو طفل وليد لم يزد عمره على بضعة أشهر هو ووالدته السيدة العذراء ويوسف النجار، الذي صاحبهما، ولقد لاذوا بها تنفيذاً لأوامر الرب بأن يحتموا بمصر، حتى لا ينالهم أذى من الحاكم الروماني بفلسطين، والذي كان قد أمر بقتل جميع المواليد الذكور وحتى سن سنتين. وهكذا جاءت آية الإنجيل المعروفة «مبارك شعبي مصر» التي سعدت أنها اتخذت كعنوان للاحتفالية الفنية الكبيرة التي تقيمها مصر اليوم وغداً. والحقيقة أن الكتاب المقدس مملوء بالآيات التي تذكر مصر وتبارك شعبها، تمامًا كما هي الحال أيضًا في القرآن الكريم، الذي كرم مريم البتول كما لم يكرم امرأة أخرى في التاريخ. لكن الواقع أن مصر قد ارتبطت بجميع الأنبياء، لما لها من طبيعة إنسانية مميزة، ففيها كان يوسف عليه السلام وزيراً لمالية فرعون، وسيدنا موسى نشأ فيها، ومحمد - صلى الله عليه وسلم، وإن كان لم يزرها إلا أنه تزوج منها، وأوصى بأهلها، وسادت رسالته السماوية أرضها. ذلك أن مصر قد دعت إلى التوحيد قبل كل ذلك بآلاف السنين، بالإضافة إلى حضارتها القديمة التي ارتقت بنفوس أبنائها، فجعلتهم شعباً متعبداً بطبيعته، وحين آمنت مصر بالمسيحية منحت الدين الجديد أول شهدائه، ومن مصر التي عرفت الرهبان طوال تاريخها، خرجت الرهينة المسيحية إلى جميع أنحاء العالم، وحين جاءها الإسلام كانت هي أهم دولة إسلامية في العالم. لذلك فإحياء ذكرى هروب العائلة المقدسة إلى مصر لأول مرة بعد ألفي سنة هي مناسبة تؤكد كل المعاني السامية التي تميزت بها مصر على امتداد تاريخها.

سألت الأستاذ نجيب عن أصول الفن الروائي العربي، هل هي «ألف ليلة وليلة» كما يقول البعض، أو «حديث عيسى بن هشام» كما يقول البعض الآخر، أم أن الرواية فن أجنبي وفد إلينا من أوروبا في القرن التاسع عشر، وقلت: بما أنك أبو الرواية العربية، فقل لنا كيف تكونت الأصول الروائية عندك أنت شخصياً؟

قال: إن أول ما كون مفهومي للقصة هو قصص القرآن الكريم، فقد كنت وأنا أطلع القرآن، أقرأ قصصه بعناية، لأنها كانت تستهويني كفن روائي راقٍ، كُتبت كأجمل وأفضل ما تكون الكتابة القصصية. وما زالت حتى الآن أكثر القصص الإنسانية تأثيراً في وجداننا هي القصص القرآنية، فمن منا يستطيع أن يأتي بقصة مثل قصة مريم عليها السلام، أو سيدنا يوسف؟!!

ثم يضيف: كما أن القصص القرآنية كُتبت على أحدث ما يكون الفن الروائي، فالقصة في القرآن لا تبدأ مثل الرواية القديمة في القرن التاسع عشر ببداية ثم تتطور إلى أن تتعقد خيوطها وتتأزم لكي تصل في النهاية إلى نقطة الحل. وإنما هي أقرب إلى تجارب القرن العشرين الحديثة، حيث تسلسل الرواية لا يسير وفق التتابع الرتيب للأحداث، وإنما وفق المقتضيات الدرامية التي تُحتم أن يرد جزء معين من القصة في هذا الموضع وجزء آخر في موضع آخر. وقد كان هذا يمثل انقلاباً في الفن الروائي الحديث وجدناه عند جيمس جويس مثلاً في بريطانيا وعند مارسيل بروست في فرنسا، لكن منذ قراءاتي الأولى للقرآن وجدت أن هذا هو الأسلوب المتبع في سرد القصص، فقصة مريم لا تبدأ في سورة مريم من بدايتها، وتتسلسل بالترتيب المنطقي لأحداثها إلى أن تنتهي لتبدأ بعدها قصة جديدة أو سورة جديدة. وإنما نجد قصة مريم موزعة على سور عدة، مثل البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والتوبة ومريم والمؤمنون والأحزاب والتحريم، حيث يرد في كل منها جزء من قصتها أو قصة المسيح عليه السلام في موضع يتفق مع هذه السورة بالتحديد. لذلك كان القصص القرآني أول ما شكل عندي مفهوم الفن الروائي من حيث المضمون السامي لهذه القصص، وأيضاً من حيث الأسلوب الفني في روايتها.

قلت: هل يمكن أن نرى هذا التأثير في عمل محدد من أعمالك الروائية؟

قال: هو تأثير ممتد في كتاباتي بشكل عام، لكن لعله أوضح ما يكون في «حديث الصباح والمساء».

وأقول للأستاذ نجيب محفوظ: إذا كان القرآن الكريم هو أول ما شكل مفهومك للفن الروائي بقصصه الراقية، فما هو المصدر التالي لك في تكوينك الروائي؟

فيجيب: الملاحم العربية، وأذكر أنني قرأت في سن مبكرة «عنتر» و«حمزة البهلوان» وغيرهما، ثم قصص العرب وحروبهم والتي سميت «أيام العرب»، وقد صدرت في كتاب من جزءين يروي حروب العرب وقت الجاهلية، وقد تأثرت بها كثيرًا. وعلى الجانب الآخر كانت قصص «ألف ليلة وليلة» بترائها القصصي غير المسبوق، فهي تعتبر بلا شك من أهم القصص في الأدب الإنساني كله، وإذا كان تأثيرها قد امتد إلى الآداب الأوروبية وغيرها، فإن تأثيرها عندنا كان أشد وأقوى لأنها نبعث من هذه التربة وكانت متشربة بترائنا العربي فعبرت عنه كأفضل ما يكون التعبير. وفي الوقت الذي تعد فيه أعظم الفن القصصي، فهي للأسف سيئة السمعة ولم نكن نقرأها في الصغر إلا مبتسرة ومراقبة لما فيها من مشاهد جنسية جريئة، إلى أن قرأناها بعد ذلك كاملة، ومن مميزاتنا أنها عبرت عن أحلام الإنسان كلها، لكن البعض كان يعطي لنفسه حق مصادرة جانب من هذه الأحلام مما كان يؤثر بلا شك على شموليتها.

قلت: وماذا عن الناحية الفنية فيها، هل تجد فيها أسلوبًا فنيًا متميزًا، أم أنها كما تبدو للوهلة الأولى مجرد تتابع للقصص كل وراء الأخرى؟

قال الأستاذ: ألا يتحدثون الآن عن أسلوب فني جديد في الرواية العالمية يعرف باسم الواقعية السحرية؟ إن بداية الواقعية السحرية هي هنا في «ألف ليلة وليلة» التي مزجت ما بين الواقع والخيال والحقيقة والسحر كما لم يفعل أحد من قبل، ولعل من كتبوا في أمريكا اللاتينية مثلًا بأسلوب الواقعية السحرية قد تأثروا بها، لأن أغلبهم يعترف بالقيمة الفنية الكبيرة لـ«ألف ليلة وليلة».

ويواصل الأستاذ حديثه عن أصول الفن الروائي العربي، فيقول: بعد أن ذكرت القرآن الكريم والملاحم العربية و«ألف ليلة وليلة» يأتي ذكر «حديث عيسى بن هشام» التي أعتبرها في الحقيقة مولد القصة المصرية الحديثة، وهي لم تأخذ حقها من البحث. إنني أرى أن «حديث عيسى بن هشام» هي رواية عظيمة جدًا تقوم على أساس التراث في الشكل، لأنها تعتمد على أسلوب المقامة، أما المضمون فهو ذلك الذي اتخذته الرواية الحديثة في مصر بعد ذلك، وحتى يومنا هذا، وهو النقد الاجتماعي. والحقيقة أن جيلنا بأكمله تأثر بهذه الرواية واقتفى أثرها بهذا المعنى.

ثم يضيف الأستاذ: بعد ذلك قرأنا بالطبع محمد حسين هيكل الذي ألقب بـ«أبو الرواية المصرية» ود. طه حسين والمازني إلى أن وصلنا إلى توفيق الحكيم، فكان ذلك عصرًا جديدًا، وكانت كتاباته تمثل مرحلة عصرية في الفن الروائي. والحقيقة أنه بعد الأصول التي تحدثنا عنها للرواية العربية، والتي شكلت مفهومًا للفن الروائي، فإن أستاذنا المباشر كان توفيق الحكيم، الذي كانت روايته «عودة الروح» ميلادًا حقيقيًا للرواية العربية على أحدث الأساليب الفنية لذلك العصر وليس على نسق الرواية الغربية في القرن التاسع عشر. فقد كانت «عودة الروح» بمثابة مفاجأة كبيرة في تيار الرواية العربية، وأحدثت تأثيرًا كبيرًا في كل من قرأها آنذاك.

ثم يقول: تلك هي أصول الرواية العربية، فبالإضافة إلى تأثيرات الرواية الأوروبية والروسية، فإنه كانت هناك أصول للفن الروائي في تراثنا العربي.

قلت: ولقد كان ذلك هو ما جعل الباحث الأمريكي الكبير روجر آلن يقول لي أخيرًا إن الرواية العربية لها خصوصية تميزها عن غيرها من الروايات في العالم.

تحدث الأستاذ نجيب محفوظ عن عاداته في الكتابة، فقال: إن أهم عادة كانت بالنسبة لي هي التنظيم، فأنا لم أكن أستطيع أن أنجز أي شيء مما أنجزته، لولا أنني خصصت أوقاتاً معينة للكتابة ما بين مشاغل الحياة المختلفة، فقد كانت هناك الوظيفة الحكومية لسنوات طويلة، وتلك كانت تأخذ مني نصف النهار، لكنني كنت أقضي النصف الثاني ما بين القراءة والكتابة، وكانت هناك أيضاً أوقات الأصدقاء. وأنا الحقيقة أعطي أهمية كبيرة للصدقة في حياتي، وقد كان وقت لقائي معهم غالباً ما يكون في المساء بعد أن يكون كل منا قد انتهى من مشاغله وواجباته اليومية.

قلت: أعرف أنك كنت تكتب دائماً في الساعات الأولى من اليوم، فكيف كنت تتحكم في ذلك؟ أو بمعنى آخر ألم يكن يأتيك الوحي في غير هذه الساعات التي خصصتها للكتابة؟
قال: إن مسألة التنظيم ليست لي وحدي، وإنما أيضاً لما تسميه الوحي، أي إنني بهذا التنظيم كنت أضع نفسي في وضع استعداد لتلقي هذا الوحي.

قلت: وهل انتظم الوحي في هذه الساعات التي خصصتها له؟

قال: إلى حدٍ كبير، طبعاً في بعض الحالات كنت أجلس طوال هذه الساعات بالقلم في يدي والورقة أمامي دون أن يأتيني شيء، ومع ذلك لم أكن أنهي الجلسة إلا في موعدها، لكنني في معظم الأحيان كنت أجد ما أكتبه وأملأ به هذه الساعات التي خصصتها للكتابة.

قلت: يتصور البعض أنك كتبت أعمالك كلها في القهوي!

قال: أبداً، فأنا لم أكتب أبداً في القهوة إلا بعض تفاصيل السيناريوهات السينمائية، لكن أعمال الأدبية كلها كتبتها خلال ساعات النهار التي خصصتها للكتابة داخل غرفة مكنتي.

سألت الأستاذ نجيب محفوظ: إن تاريخك مع الكتابة القصصية يمتد إلى أكثر من ٧٥ سنة، فكيف تكتب القصة؟ هل تكون الفكرة مكتملة في ذهنك قبل أن تبدأ الكتابة، أم أنك تبدأ الكتابة وأنت لا تعرف النهاية؟

قال الأستاذ: لقد كتبت بجميع الأساليب المعروفة، فهناك من القصص ما دخلت عليها وأنا مدرك لجميع أبعادها مسبقاً، من تطور الأحداث إلى الشخصيات إلى النهاية، وهنا لا يطرأ على القصة أي تغيير في أثناء عملية الكتابة إلا بعض التعديلات البسيطة التي تأتي من وحي القلم في أثناء الكتابة. لكن هناك قصصاً أخرى كنت أبدأها من الصفر، وفي هذه الحالة فأنا قد أمسك القلم لأكتب جملة واحدة فقط مثل: دخل فلان الحارة، دون أن أعرف ما سيفعله هذا الفلان في تلك الحارة، لكن من هذه الجملة الموحية تبدأ تفاصيل القصة تتضح أمامي في أثناء عملية الكتابة نفسها.

قلت: يقال إن العمل الفني عادة ما يكون حاضرًا في الذهن حتى لو لم يع الفنان ذلك، أي إن الكاتب حين يتصور أنه لا يعرف ما سيكتب يكون فقط غير واعٍ للقصة التي اختمرت في ذهنه، لكنها تكون موجودة في عقله الباطن وتخرج مع الكتابة إلى حيز الوجود.

قال الأستاذ: ليس بالضرورة، فالفنان إذا كانت له خبرة طويلة في مجال عمله فإن لديه بلا شك مخزونًا كبيرًا من التجارب والأفكار التي ما إن يبدأ عملية الكتابة حتى يُخرج ما في جعبته منها، فتتشكل بذلك القصة التي هو بصدده كتابتها وتتخلق الشخصيات وتتوالى الأحداث حتى يبدو للكاتب أنها تأتي من تلقاء نفسها، لكنها في الحقيقة بعض المخزون الذي توافر لديه من تجربته العريضة في الحياة وفي الفن.

قلت للأستاذ نجيب محفوظ: ما هو موقفك بالضبط من ثورة يوليو؟ لقد كتب البعض يقولون إنك كنت ضد الثورة ونشرت لك بعض الانتقادات لمسلك الثورة...

فقاطعتني قائلاً: أنا لم أكن أبداً ضد الثورة، فتوجيه بعض الانتقادات لسياسات الثورة شيء، وأن يكون المرء ضدها شيء آخر، وفي ذلك أقول لك صراحة إنني أخذ على الثورة أنها لم تحقق مسألة الديمقراطية التي كانت أحد أهدافها الأولى. لكني كنت مع الثورة وما زلت معها فيما قامت به من تغييرات شاملة في المجتمع المصري، بل والعربي أيضاً. إن ثورة يوليو تعتبر تاريخاً فاصلاً في حياة الأمة العربية، وقد كانت فاتحة لعصر جديد تماماً اختلفت فيه الأشياء عما كانت عليه من قبل.

قلت: واليوم ونحن في الذكرى الثامنة والأربعين لقيام الثورة ماذا بقي من هذه الثورة ومما أنجزته؟ قال الأستاذ: بقي الكثير. فبعض الإنجازات قائمٌ بيننا والبعض الآخر آثاره ممتدة معنا حتى اليوم، ودعني أسألك مثلاً: أين هي الملكية الآن؟ إن الثورة هي التي أتت بالنظام الجمهوري الذي نعيشه اليوم. وأين هي الطبقة التي كانت هي سمة المجتمع المصري قبل الثورة؟ قد نرى اليوم بيننا أغنياء يزيد ثراؤهم على بعض مليونيرات العصر الملكي، لكن الطبقة شيء آخر، ذهب بلا رجعة بكل الامتيازات السيادية التي كانت تكفلها لأصحابها. وأين الاستعمار الذي ظل جاثماً على صدورنا طوال ٧٠ عاماً؟ ثم كيف نتجاهل السد العالي، هذا المشروع الضخم الذي حمى مصر من الجفاف الذي عمّ الدول المجاورة لنا أكثر من مرة خلال السنوات الماضية؟ وكيف ننسى أن العدد الأكبر من المؤسسات الثقافية القائمة الآن، بما فيها وزارة الثقافة نفسها، كانت من صنع الثورة؟ وكيف نتجاهل هذا الانتشار الهائل للتعليم ومجانيته؟ إننا إذا أخذنا مجالات الحياة المختلفة مجالاً مجالاً، فسنجد في كل منها إنجازاً كبيراً للثورة غير الأوضاع التي كانت سائدة في العهد الملكي، فكيف يكون الإنسان ضد ذلك كله؟!

سألت الأستاذ نجيب محفوظ: هل تذكر كيف سمعت لأول مرة بقيام الثورة؟
قال: بالطبع أذكر، فقد كان يوم ٢٣ يوليو هو أحد أيام العمل، وكنت ذاهبًا إلى مكنتي بوزارة الأوقاف، وأذكر أنني وصلت إلى محطة الترام في ساعة مبكرة من الصباح، لكي أشتري الجرائد وأركب الترام إلى الوزارة، لكنني فوجئت بعدم وجود أي ترام. وبعد أن طال انتظاري توجهت إلى بائع الجرائد مرة أخرى أسأله: ماذا حدث للترام؟ فقال لي: إن الجيش قام بإضراب، وكان مقر الجيش في نهاية خط الترام بين مصر الجديدة والعباسية، لكنني لم أفهم كيف يُضرب الجيش، فسألت البائع مرة أخرى: أتقول إن الجيش مُضرب؟ قال: نعم مُضرب وقد أوقف الطريق. ثم تذكرت حادثة انتخابات نادي الضباط التي فاز فيها اللواء محمد نجيب على غير رغبة الملك، ورفض الملك النتيجة، مما أدى إلى تدمير كبير بين الضباط، فتصورت إن كان هناك إضراب فلا بد أنه يتعلق بهذا الموضوع. وقد اضطررت إلى أن أسير على قدمي طوال شارع فاروق إلى مقر الوزارة بالعتبة، وأنا أتعجب طوال الوقت من قيام الجيش بإضراب، وفي أثناء سيرني مررت على مبنى الإذاعة الكائن ذلك الوقت بشارع الشرفيين، فاندعشت لوجود دبابات حربية أمام مدخل المبنى، وأحسست على الفور أن هناك شيئاً غير طبيعي في البلد.

فقلت: ومتى عرفت أن هناك ثورة قد حدثت؟

قال: لم يكن ذلك إلا بعد أن وصلت إلى وزارة الأوقاف، حيث كنت أعمل بمكتب الوزير، فهناك قال لي المرحوم عبد السلام فهمي ما حدث، واستمعنا معاً إلى بيان الثورة الذي تكررت إذاعته عدة مرات في ذلك اليوم.

ويأخذني حديث الأستاذ نجيب محفوظ عن ثورة يوليو إلى الحديث عن العروبة، فأقول له: لقد قرأنا أيضاً أنك ضد العروبة والعرب، وأنك قلت إنك حر في ذلك...

فقاطعني: أنا لم أقل هذا! فأنا لست ضد العروبة على الإطلاق. لقد جاءني سائل يسأل: لماذا لم تصور المجتمع العربي في رواياتك؟ فقلت: إنني لم أصور بقية مصر نفسها في أعمالي، فقد اخترت لنفسني جزءاً من القاهرة جعلته خلفية لأعمالي، ولم يكن غرضي هو تصوير كل مصر أو كل الدول العربية، لأن الكاتب حر في أن يختار موقع أحداثه كما يتفق مع الضرورات الفنية والدرامية.

قلت: لكنني قرأت ردًا على ما ورد على لسانك في ذلك الحديث وبأقلام كبيرة أخذت تعلق على عدائك للعروبة.

قال الأستاذ وفي صوته بعض الأسي: إن من يكتب عني اليوم يعتمد على أنني لم أعد قادرًا على قراءة كل ما أريده، بسبب حالتي الصحية وضعف بصري، وإنك إذا عدت إلى هذا الحديث الذي نتحدث عنه تجد أن العنوان يقول إنني ضد العروبة، بينما الموضوع نفسه لا يقول ذلك، فماذا أفعل؟!!

وبدت في عيني الأستاذ نظرة حيرة، صمت بعدها قليلاً، فصمت معه احتراماً لشعوره، ثم تابعت حديثنا قائلاً: وما رأيك بالضبط في العروبة، وفي الوحدة العربية مثلاً؟

قال على الفور: إنني أؤمن بأن هناك بالفعل وحدة قائمة بين كل الشعوب العربية هي الوحدة الثقافية، وهناك وحدة أخرى قابلة للتحقيق هي الوحدة الاقتصادية، وهناك ثالثاً وحدة أخرى بعيدة المنال هي الوحدة السياسية. فالوحدة الثقافية لا يستطيع كاتب مثلي أن يغفلها، والوحدة الاقتصادية طالما ناديت بها في كتاباتي الصحفية، لأن في التنسيق والتعاون الاقتصادي قوة للعرب جميعاً، وأنا أعتقد أن تحقيق هذا التكامل الاقتصادي العربي عن طريق إقامة السوق العربية المشتركة - مثلاً - قد يكون من آثاره تقريب الوحدة السياسية المنشودة. هذا هو رأيي، لكن للأسف يأتي الكثير من الشباب لإجراء الأحاديث فأرحب بهم ثم أفاجأ بعد ذلك بعناوين مثيرة لا صلة لها بما قلت، فماذا أفعل؟! إنه شيء مؤسف!

حانت مني ملاحظة حول شدة الحرارة هذه الأيام، فقال لي الأستاذ نجيب محفوظ: وما الغرابة في هذا؟ إننا في شهر بؤونة وهو من أكثر أشهر السنة حرارة. إنك في بعض الأحيان تجد الجو لا يتفق كثيرًا مع طبيعة الشهر في التقويم الأجنبي، أي التقويم الجريجوري الذي نتبعه الآن، لكن ذلك نادرًا ما يحدث مع شهورنا القبطية، فتلك هي الشهور المصرية القديمة التي وضعها المصري من خلال ملاحظته لتتابع الفصول وللتغيرات المناخية عبر السنين، لذلك فهي لا تخيب أبدًا.

وما هي في رأيك أهم الأشياء التي تركتها لنا مصر القديمة والتي ما زالت معنا حتى اليوم؟ إن تراث أجدادنا كبير، والكثير من الأشياء الموجودة في حياتنا اليوم كانت أصولها عندهم، وبعض هذه الأشياء نعرفه والبعض الآخر لا ندركه، لأن دراستنا لمصر القديمة لم تحل بعد جميع ألغاز الحضارة المصرية القديمة، لكن ربما كان من أهم ما تركه لنا المصري القديم هو التدين العميق الذي يتسم به الشعب المصري. فقد ارتقت مصر القديمة بالدين إلى درجة لم تصل إليها أي من الحضارات القديمة الأخرى، حيث كانت أول من نادى بالتوحيد على يد إخناتون، وقد ورد في القرآن الكريم أن الله تعالى قص على النبي - صلى الله عليه وسلم - قصص بعض الأنبياء ولم يقص عليه قصص البعض الآخر، واعتقادي أن إخناتون هو من بين الأنبياء الذين لم يقص علينا القرآن قصصهم.

ويواصل الأستاذ نجيب محفوظ حديثه عن ميراثنا من مصر القديمة، فيقول: إن الفن هو أيضًا مثل الدين، من الأشياء التي لا يستغني عنها الإنسان. ويقول: إن المصري القديم ترك لنا فنونًا عظيمة نستطيع أن نتبينها في بعض البرديات الأدبية التي لم تندثر، وفي المعمار العظيم الذي ما زال يتحدى الزمن إلى يومنا هذا. وهناك أيضًا الموسيقى، ورغم أننا لم يبقَ لنا من هذه الموسيقى شيء فإن مشاهدتنا للرسوم التي ما زالت قائمة على الجدران توحى بنوعية الموسيقى التي كانت قائمة حتى تكاد تسمع أصوات الآلات التي بيد العازفين في هذه الرسوم، ولا شك أن موسيقانا الشعبية هي ميراث من تلك الموسيقى القديمة.

ويصمت الأستاذ قليلاً ليعود فيقول: وإلى جانب الدين والتوحيد لا ينبغي أن ننسى الأخلاق التي كان مولدها هي الأخرى في مصر القديمة، ولقد قرأت كتابًا ممتعًا في صباي حول هذا الموضوع، لعل كاتبه كان البريطاني بريستد، وكان عنوانه هو «فجر الضمير»، حيث يقول الكاتب إن الضمير الإنساني نشأ أول ما نشأ في مصر.

ثم يختتم الأستاذ قائلاً: هذه هي الأشياء التي جاءت إلينا من مصر القديمة بشكل مباشر، لكن هناك أشياء أخرى جاءت إلينا من خلال الإغريق والرومان الذين طوروا الكثير من التراث المصري. وقد جاء إلينا هذا التراث عبر اكتشاف أوروبا له في عصر النهضة، فقد كانت الحضارة المصرية القديمة حضارة عظيمة عمت جميع شعوب المنطقة.

سألت الأديب الأكبر نجيب محفوظ عن النصيحة التي يقدمها إلى جيل الشباب من الكُتَّاب، فقال: الأديب عليه أن يدرس أدبه جيدًا، فهناك من بين من يمتهنون الأدب من لم يدرسوا هذا الفن، فإذا سألتهم عن كاتب أجنبي معين تجد أنهم يعرفون اسمه جيدًا ربما من الصحف أو مما يسمعون عنه في الجلسات الأدبية، لكنك إذا سألتهم ماذا قرأوا لهذا الأديب تجد أنهم لم يقرأوا له شيئاً، وهذا وضعٌ مشينٌ. فالأديب إنما يتعلم من تجارب الأدباء الذين سبقوه وبدون ذلك يظل حبيس إطار ضيق لا يتسع بالقراءة والاطلاع على تجارب الآخرين. على أن الثقافة الأدبية وحدها لا تكفي الأديب، فهو في حاجة أيضاً إلى الثقافة العامة، وعليه أن يقرأ في التاريخ وفي السياسة وفي العلوم وفي الفلسفة وفي علم النفس، وعليه أن يدرس الموسيقى والفن التشكيلي. فالمعارف العامة هي مادة إنتاجه الأدبي وعليه أن يكون ملماً بها، والفنون الأخرى تؤثر في فنه بأكثر مما يتصور.

ويواصل الأستاذ نصائحه، فيقول: بعد ذلك على الأديب أن يجتهد في فنه بحيث لا يمر عليه يومٌ لا يحاول فيه أن يقدم إنتاجاً جديداً، وقد ينجح في أن يصل إلى فكرة عمل جديد، وقد يكمل قصة قصيرة مثلاً أو قصيدة، وقد لا يصل إلى شيء، لكنه في جميع الأحوال يجب ألا يدع يوماً يمر دون أن يجلس إلى مكتبه ويمسك بقلمه ويحاول أن يخط به شيئاً على الورق.

ثم يختتم حديثه قائلاً: وأخيراً فعلى الأديب التحلي بالصبر إلى ما لا نهاية، فلا أحد يعرف متى يجيء العمل الجديد، لكن الأديب الحق يجب أن يكون دائماً في وضع استعداد، حتى إذا ما جاءه الوحي فلا يجده على غير استعداد.

سأل الصحفي الأجنبي أديبنا الأكبر كيف يمضي يومه الآن؟ كيف يبدأ وكيف ينهيه؟ فقال: يبدأ يومي بزيارة يقوم بها كل صباح صديق لي ليقراً لي الصحف، فأنا لم أعد أستطيع القراءة بنفسى كما كنت أفعل فى السابق بسبب ضعف بصري، وهو يمضى معى ساعتين تقريباً ألم خلالهما بما يجرى من حولى سواء فى مصر أو فى الخارج. وبعد ذلك إما يزورنى طبيب العلاج الطبيعى الذى يقوم بعلاج يدي اليمنى، أو أقوم بالتدريبات التى حددها لى والتى من ضمنها أن أعود يدي على الكتابة لمدة نحو نصف ساعة يومياً. ولقد حققت تقدماً كبيراً منذ بدأت هذه التدريبات قبل نحو ست سنوات حين وقع لى حادث الاعتداء، فوقتها لم أكن أستطيع تحريك ذراعى اليمنى على الإطلاق، أما الآن فإننى أستطيع الكتابة بلا مشقة كبيرة، وإن كنت لا أستطيع أن أطيل جلسة الكتابة لأكثر من نصف ساعة فى كل مرة.

ثم يواصل الأستاذ: أما بعد الظهر فإن بعض الأصدقاء قد يمرون على ليصطحبوني إلى صحبة أتطلع إليها بكل شوق، فقد أصبح هؤلاء الأصدقاء هم عيني وأذني، فعن طريقهم أرى ما يحدث فى العالم، وأسمع عما يجرى، فهم لى بمثابة الراديو والتلفزيون والإنترنت والكتاب وكل شيء. ثم أعود فى المساء فأتناول العشاء وأتناول حبوب النوم وأنتظر أن تفعل مفعولها فأنام، وفى معظم الأحيان هو نوم متقطع، إلى أن أترك سريري فى اليوم التالى نحو الساعة الثامنة صباحاً. ثم يختتم الأستاذ كلامه قائلاً: وهذا البرنامج اليومي قد يبدو لك رتيباً، لكنى فى الحقيقة راضٍ عنه تماماً، وممتنٌ لكل من يأتوننى أو يأخذوننى إليهم، فبدون هذه الصحبة كانت الحياة ستفقد الكثير من معناها بالنسبة لى.

قال الأستاذ نجيب محفوظ لمراسلة مجلة «فيجا» البرازيلية (مليون ومائتا ألف نسخة): إننا جميعًا غاضبون في العالم العربي بسبب ما يحدث الآن في القدس والأراضي الفلسطينية المحتلة، ومما يزيد غضبنا أن كل تلك الدماء التي ما زالت تسيل في الأراضي المقدسة جاءت نتيجة لأن شخصًا واحدًا لم يرَ أمامه إلا مصلحته السياسية المباشرة فاقتحم أقدس مقدسات المسلمين والعرب دون احترام لأي قدسية ولا مراعاة لمشاعر الناس. إن المقدسات يجب أن تُحترم من الجميع وبصرف النظر عن العقيدة، وخرق ذلك يعتبر جريمة إنسانية. وقد كان من الطبيعي أن يغضب أصحاب العقيدة ويلقوا بعض الحجارة، وذلك موضوع كان يمكن أن ينفذ على الفور عن طريق بعض قوات الشرطة من جانب، وعن طريق التهدة السياسية من جانب آخر، لكننا فوجئنا بنزول الجيش الإسرائيلي إلى المعركة، كما لم نسمع عن أي تهدة حدثت. أي إنه إذا كان هناك رجلٌ واحدٌ هو الذي أشعل الفتيل فإن المؤسسة الإسرائيلية الحاكمة هي التي حولت ذلك إلى معركة عسكرية كاملة، أسلحتها هي الدبابات والطائرات، وقذائفها هي الصواريخ والنييران، وذلك إنما يدل على قدرٍ من الوحشية الكامنة التي أنا أول المعترفين بأنها تعدت كل توقعاتي. لقد حاربنا الإنجليز في شبابنا وقت أن كانت أرضنا في مصر تحت الاحتلال كما هي الحال مع الأرض الفلسطينية الآن، وقاومناهم ليس بالحجارة وإنما بالسلاح، وسقط منا نتيجة لذلك آلاف الشهداء، لكننا في كل ذلك لم نَرِ طائرة بريطانية واحدة في المعركة ولا مدفعًا. وتلك مسألة حضارية في الأساس لأنه لم تكن هناك حكومة إنجليزية واحدة تستطيع أن تواجه شعبها إذا ما استخدمت جيشها النظامي ضد الثوار الوطنيين، أما إذا قامت أي حكومة بمثل هذا العمل فتلك شهادة عن مدى تحضر المجتمع الذي تمثله!

قال الأستاذ نجيب محفوظ: إن السؤال الذي تثيره المفاوضات بين الفلسطينيين والإسرائيليين حول مصير القدس هو: من الذي يملك القدس؟ فالقدس ليست مجرد أرض متنازع عليها كالضفة الغربية لنهر الأردن، ولا هي حدود مختلف عليها بين الدولة الإسرائيلية الحالية والدولة الفلسطينية المرتقبة، فالقدس ليست ملكًا للطرفين المتنازعين الآن عليها. فمن يقول إن القدس هي أرض إسرائيلية خالصة، ومن يقول إنها أرض ملك للفلسطينيين وحدهم، يفعلون فيها ما يتراءى لهم دون أن يكون لبقية البشرية شأن بها؟ إن القدس في حقيقة الأمر لها وضع خاص لا تشاركها فيه أي بقعة أخرى على وجه الأرض. فهي بمعنى ما ملك للبشرية جمعاء، مسلمين ومسيحيين ويهودًا، ويجب أن يكون ذلك واضحًا في أذهان من يجلسون على مائدة المفاوضات من إسرائيليين وفلسطينيين أو من يقفون خلف المائدة مثل الأمريكيين. فالذين يطالبون الرئيس الفلسطيني بالتنازلات في القدس يجب أن يعلموا أن عرفات إن كان يملك التنازل عن أي جزء داخل أرض فلسطين، فهو لا يملك أن يتنازل عن القدس بالذات.

قلت: إذن كيف يكون الحل؟

قال: يجب أولاً أن نفصل بين الجانب الديني في القدس الذي يدخل فيه العالم كله طرفًا وبين بعض الترتيبات السياسية التي تختص بإدارة المدينة. لكني للأسف أجد أن مثل هذه الترتيبات المطروحة تتجاهل تمامًا أن مدينة القدس ذات طابع خاص، ومن ثم يجب أن تكون لها تسوية من نوع خاص تختلف عما تم الاتفاق عليه في أرض الضفة، وإذا لم تتم مراعاة هذا البعد في قضية القدس فإنه لن يتم التوصل إلى اتفاق.

تحدث الأستاذ عن علاقة مصر بفلسطين، فقال: إن ما يربط بين مصر وفلسطين ليس علاقات صداقة يمكن أن تقوم في وقت وتنعدم في وقت آخر، ذلك أن فلسطين هي بوابة مصر الشرقية، ولذلك فهي جزء لا يتجزأ من قضية الأمن القومي المصري، وقد كانت هكذا على مر السنين. ففي عصور الفراعنة شهدنا الكثير من الحملات التي لم تستهدف غزو فلسطين (فالمصريون القدماء لم يكونوا غزاة) وإنما كان هدفها حماية الأمن القومي المصري، كما أن محمد علي في العصر الحديث أرسل ابنه إبراهيم باشا أيضًا إلى فلسطين، بل لعلي أقول إن فلسطين هي أحد الثوابت التي لا تتغير في السياسة المصرية بصرف النظر عن الاتجاه السياسي السائد، وبصرف النظر عن العصر. ففي عصر الملكية دخلت مصر حرب فلسطين وكان ذلك بقرار شخصي من الملك فاروق رغم أنه كان يمثل الفساد والطغيان. وفي عصر الثورة كانت فلسطين في مقدمة الاهتمامات السياسية لمصر دون الحاجة إلى بيان، وحتى في عصر السادات، الذي اتهم بالتخلي عن القضية العربية، فإن القضية الفلسطينية كانت جزءًا أساسيًا في سياسته التي دعا الفلسطينيين إلى مشاركته فيها، كما أن اتفاقيات السلام التي وقعها كانت مصاحبة لها اتفاقية فلسطينية، ولم تكن اتفاقيات منفردة. لذلك فحين أسمع اليوم دعاوى ساذجة للتخلي عن الفلسطينيين فإنني لا آخذ ذلك مأخذ الجد، لأن مصر لا تستطيع أن تتخلى عن أمنها القومي أيًا كانت بعض التصرفات الانفعالية التي قد تصدر عن أناس تحت ضغوط قاهرة من القتل والاضطهاد.

ثم أضاف: على أن علاقة مصر بفلسطين ليست فقط اعتبارًا استراتيجيًا يهم رجال السياسة والعسكريين، وإنما هي أيضًا ارتباط عاطفي يمس الجماهير العريضة، وقد كان ذلك واضحًا في الشعور العام بالغضب من إسرائيل، والذي اندلع كالنيران بين جميع أفراد الشعب المصري، ففلسطين هي جزء أساسي من ضميرنا الوطني ومشاعرنا.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: من الأشياء التي استوقفتني بالنسبة لمواقف الإعلام الدولي من الاضطرابات الأخيرة في الأراضي الفلسطينية ما يبدو من أن الإعلام الدولي كله في وادٍ والإعلام الأمريكي في وادٍ آخر، فمما يتناقله أمامي مختلف الأصدقاء أجد أن هناك مقالات في الصحف الأمريكية وبرامج في بعض القنوات التلفزيونية ما زالت أسيرة للفكرة القديمة بأن إسرائيل هي الدولة الصغيرة المهددة دائماً من جيرانها. وهو موقف غريب، فلست أفهم كيف يهدد الأطفال والشباب العزل من السلاح دولةً مدججةً بالسلاح من الرشاشات والدبابات إلى الطائرات والصواريخ، وهي جميعاً أسلحة لم تتوان إسرائيل عن استخدامها في المعارك الحالية ضد الشباب الفلسطيني. ففي الوقت الذي تحررت المجتمعات الأوروبية من تلك الخرافة القديمة بأن مستقبل إسرائيل في مهب الريح وهكذا استطاع الإعلام الأوروبي أن يواجه إسرائيل بشجاعة في تعاملها الوحشي مع الهبة الشعبية الحالية. نما إلى علمي أن هناك مظاهرات خرجت في الولايات المتحدة تؤيد إسرائيل، وأن هيلاري كلينتون زوجة الرئيس الأمريكي والمرشحة لانتخابات مجلس الشيوخ، وقفت تخطب في إحدى هذه المظاهرات. كما تناقلت الصحف أن مجموعة لا يستهان بها من رجال الكونجرس تقدموا بعريضة إلى الرئيس كلينتون تطالبه بالوقوف إلى جانب إسرائيل، وبتوجيه اللوم صراحة إلى الجانب الفلسطيني، وهذا كله يجعلني أتساءل: إلى متى يظل من الممكن تضليل شعب بأكمله بحقائق العالم من حوله؟!!

قال الأستاذ نجيب محفوظ: لم تكن هناك معرفة شخصية بيني وبين المرحوم فؤاد سراج الدين، وقد قابلته مرة وحيدة في حياتي حين جاء في صيف إحدى سنوات الثمانينيات على ما أذكر إلى كازينو بترو بالإسكندرية، ليقابل عمنا توفيق الحكيم، وقد شد على يدي وسألني عن صحتي، وجلس معنا بعض الوقت، لكن ذلك كان اللقاء الأول والأخير. ولكن بعيدًا عن شخصيته الجذابة والجديرة بالاحترام، فسيُذكر لفؤاد سراج الدين أنه أول من استطاع ملء الفراغ الذي تركه الزعيم الوفدي الفذ مكرم عبيد، ولم يكن هذا بالشيء الهين، كما أن لهذا الرجل فضلًا كبيرًا على كثير من الطوائف التي رفعها إلى مرتبة عالية، وأولاها بالطبع الشرطة التي تغير وضعها بالكادر الجديد الذي أدخله سراج الدين وقتما كان وزيرًا للداخلية. وهناك أيضًا المعلمون الأزهريون الذين كان عليهم أن يعملوا لفترة بعد تخرجهم في الريف كنوع من العمل الإلزامي، وكانت أجورهم آنذاك لا تتعدى القروش القليلة، لكن سراج الدين رفع أجورهم إلى درجة مكنت الكثيرين منهم من شراء بعض الأراضي، التي كانت أثمانها رخيصة في ذلك الوقت. كذلك كان لسراج الدين أثر كبير في الإنصاف الذي حدث لموظفي الدولة خاصة الجامعيين منهم، أي أنه أنصف الكثيرين من الطوائف التي كانت مهضومة الحق، وهذا جزاؤه عند الله كبير. هذا بالإضافة إلى موقفه البطولي التاريخي الذي يعرفه الجميع حين أصدر أوامره للشرطة في الإسماعيلية يوم ٢٥ يناير ١٩٥٢ بمقاومة الإنجليز حتى النهاية، وهو اليوم الذي خرج منه بعيد وطني لفئة مجاهدة شريفة هي رجال الشرطة. لذلك، فحين يقال إن سراج الدين يمثل اليمين في الوفد، فأنا أقول مرحبًا بهذا اليمين إذا كان بهذا الحرص على فئات الشعب الكادحة، وبهذه الوطنية. رحم الله فؤاد سراج الدين وجزاه خيرًا.

ويواصل الأستاذ نجيب محفوظ حديثه عن الوفد بعد رحيل زعيمه فؤاد سراج الدين، فيقول: إنني أتوقع في المرحلة القادمة من تاريخ الوفد والتي ستبدأ بالانتخابات التي ستجرى غدًا لاختيار رئيسه الجديد أن يهدأ قليلاً عداء الحزب لثورة يوليو، لأن ما قد عاناه بعض قادة الوفد من الثورة قد مضى عهده ولم يعد هو القضية الحالية الآن، لا بالنسبة للحزب ولا بالنسبة للجماهير العريضة. ثم يقول: وفي الحقيقة إننا إذا نظرنا إلى المبادئ التي قامت عليها الثورة نجد أنها المبادئ التي كان يطالب بها الوفد، فالإصلاح الزراعي مثلاً كان مما نادى به طليعة الوفد قبل الثورة، وقد عرف البرلمان المصري بالفعل اقتراحين قبل عام ١٩٥٢ لتحديد الملكية الزراعية بـ ٥٠ فداناً وليس بـ ٢٠٠ فدان، كما فعلت الثورة، لكنهما رُفِضا آنذاك من كبار الملاك. كذلك فإن مجانية التعليم كانت سياسة وفدية تم تطبيقها بالفعل حتى مرحلة التعليم الثانوي، ثم جاءت الثورة فتنبتها وعمتها في المرحلة الجامعية أيضاً، يضاف إلى ذلك بالطبع قضية الجلاء التي حققتها الثورة، لكنها كانت العمود الفقري للوفد منذ قيامه. كما أن القضية الاجتماعية، التي كانت أساساً لثورة يوليو كانت إحدى السياسات التي تبناها الوفد في سنواته الأخيرة، خاصة الطليعة الوفدية، إلى درجة أنني عند قيام الثورة وإعلانها عن مبادئها قلت إن طليعة الوفد هي التي أصبحت تحكم. ثم يُنهي الأستاذ حديثه قائلاً: إننا بحاجة في المرحلة القادمة إلى إعادة النظر في الخلاف بين الوفد والثورة، والذي ينبغي أن يُنظر إليه نظرة أكثر موضوعية في المرحلة القادمة.

قالت الصحفية اليونانية للأستاذ نجيب محفوظ: عرفت من خلال كتاباتك صورتين لمصر، إحداهما مصر الضاحكة المتفائلة التي يتمتع أهلها بالمرح وخفة الظل، ومصر أخرى تعاني المشكلات والصعاب ويحصل أهلها على قوتهم بالكاد، فأيتهما هي مصر الحقيقية؟

قال الأستاذ على الفور: الاثنان معاً، فمصر ليست شيئاً واحداً وإنما هي متعددة الشخصيات والصفات، فهناك آلام المعاناة التي تلازمها دائماً، لكن هناك أيضاً الصبر والإيمان الذي يوجد في مصر أكثر من أي دولة أخرى، لأن المصريين خلال آلاف السنين مرت عليهم جميع الأحوال التي عرفتها البشرية، لكنهم عرفوا أنها دائماً قصيرة الأمد وأن الحياة تمضي من مرحلة إلى أخرى، ولا شيء دائم إلا وجه الله. لذلك فالمصري برغم أحزانه هو دائماً متفائل يسكنه الأمل، إنه أمل سيزيف في أسطورتكم اليونانية القديمة، والذي كلما صعد إلى قمة الجبل دحرجته الآلهة إلى سفحه مرة أخرى. ولو لم يكن سيزيف لديه أمل لما صعد مرة أخرى إلى قمة الجبل، ولكان قد انتهى عند أول سقوط، وعندى أن سيزيف هو الأقوى من الآلهة، لأنه ظل مليئاً بالأمل، برغم كل شيء، ولأن الآلهة عجزت عن أن تقتل الأمل في نفسه. فإذا كانت الآلهة قد حكمت عليه بالأبدي على القمة فقد رفض هو من جانبه أن يظل عند السفح، ولم يسيطر عليه أبداً اليأس.

قالت: وهل أنت شخصياً متفائل بالمستقبل؟

قال: فيما يتعلق بي أنا شخصياً، فإن الشعور الذي يعتريني هو الامتنان للحياة التي عشتها، أما فيما يتعلق بالبلد، فأنا أشعر بأن المستقبل سيكون أفضل من الحاضر، وأتمنى أن تكون الأجيال القادمة أوفر حظاً منا، فقد كانت معاناتنا كبيرة.

تحدث الأستاذ نجيب محفوظ عن دار الكتب، فقال: إن تلك الدار العتيقة التي قد لا تشكل ركيزة مهمة في الحياة الثقافية للجيل الحالي، بسبب سنوات سابقة من الإهمال، كانت على وقتنا مركزاً للإشعاع الثقافي والفكري. وأذكر أنني خلال سنوات ما بين المرحلة الإعدادية والثانوية، وأيضاً خلال سنوات الجامعة، كان اعتمادي الأساسي في الاطلاع على دار الكتب، ففيها قرأت التراث، كما قرأت أيضاً بعض المؤلفات الحديثة المهمة في الآداب والفنون والتاريخ والسياسة والعلوم، ولقد قرأت في كل ذلك بدار الكتب. وقد تشكل مفهومي لفن الرواية من كتب استعرتها من دار الكتب، وكان هناك نظام للاطلاع الداخلي ونظام للاستعارة لقاء ضمانات بسيطة، كأن تعطي المدرسة أو الجامعة ما يفيد بأنه طالب بها، أو تقول جهة ما إنه موظف لديها، وهكذا تسنى لي استعارة كتب عظيمة لا تقدر بثمن.

ثم يقول الأستاذ: ولقد عمل بدار الكتب أديب ومفكرون كبار، مثل حافظ إبراهيم وتوفيق الحكيم، وكانت رئاسة دار الكتب تعتبر شرفاً كبيراً، ومما يذكر أن حافظ إبراهيم لم يكن يمضي وقتاً طويلاً بدار الكتب، فهو لم يكن يحب الجلوس إلى المكاتب، وكان يفضل عليها جلسة النكات مع أحد أصدقائه المقربين على القهوة المقابلة للدار.

ثم ينهي الأستاذ حديثه بالقول: لكنني سعدت أخيراً بما توارد إليّ عن خطط لتحديث دار الكتب لكي تسائر أحدث النظم المكتبية في العالم باستخدام الأجهزة الإلكترونية، بما سيعني بعث الحياة من جديد في هذا الصرح الثقافي المهم.

قلت للأستاذ نجيب محفوظ: أعرف أنك كنت تحتفظ بكراسة تكتب فيها ما يعن لك من أفكار، وأنت كنت تعود إلى هذه الكراسة وتستقي منها قصص رواياتك.

قال: كان ذلك منذ زمن بعيد، وقد لجأت إلى ذلك في وقت كانت تزدهم في رأسي الأفكار، وكنت أخشى ألا أجدها حين أود الكتابة، لكن الدافع الحقيقي للكتابة ليس هو الأفكار، بل شيء آخر قد يجيء في وقت ولا يجيء في وقت آخر. وهو حين يأتي فهو يأتي ومعه كل ما يلزم للرواية من الأفكار والشخصيات والحبكة وغيرها، وهذا الشيء هو ما يطلق عليه البعض اسم الوحي أو شيطان الشعر أو إن شئت مجرد صفاء الذهن.

قلت: ألم تستفد على الإطلاق من كراستك هذه؟

قال: لا، فقد انقطعت عن الكتابة لسنوات طويلة بعد الانتهاء من «الثلاثية» حتى تصورت أنني لن أعود للكتابة مرة أخرى، وفي تلك الفترة لم تُجد هذه الكراسة شيئاً.

قلت: لكنك عدت إلى الكتابة مرة أخرى بعد تلك الفترة.

قال: هذا صحيح، لكنني عدت بشيء مختلف تمامًا عما كنت أكتبه قبل ذلك وما كنت أدونه في هذه الكراسة، وأذكر أن الشاعر والكاتب عبد الرحمن الشرقاوي - رحمه الله، قد أعجبتني إحدى القصص المدونة في هذه الكراسة، وكان اسمها «العنبة الخضرة»، وكانت تحكي قصص بعض المارة في هذا الميدان المزدهم بالناس، وربما أراد الشرقاوي أن يصنع منها مسرحية، فقد استأذنتني فيها وسمحت له بذلك لكنه لم يكتبها.

ثم ينهي الأستاذ حديثه قائلاً: هذا ما كان من أمر هذه الكراسة التي لم تفدني في شيء، ولا أفادت غيري.

قالت الشاعرة اليونانية لأديبنا الكبير نجيب محفوظ: بعيدًا عما يتوقف عنده النقاد في الغرب من تصوير دقيق للواقعية المحلية في أعمالكم، فإنني أرى أن هناك جانبًا آخر روحياً في رواياتك، وهو جانب يعكس الحس التصوفي الذي عُرف به الشرق، فهل تعي ذلك وأنت تكتب؟

قال الأستاذ: بالطبع إنني أعيه، لكني لا أقصده بشكل مباشر، فأنا أحاول تصوير الواقع كما أراه، لكن الواقع المصري ليس كله واقعاً اجتماعياً، لأن الجانب الروحي هو جانب أساسي في الشخصية المصرية منذ بداية التاريخ. فالمصري هو الذي اخترع الدين قبل أن تعرف البشرية الأديان السماوية، وقد دفعه إلى ذلك إحساسه الروحاني المرهف، الذي وجد أن حياته تكون فارغة من دونه وبلا معنى، وقد استمر الجانب الروحي يشكل ركناً أساسياً في الشخصية المصرية حتى يومنا هذا، فكيف لي أن أنقل الواقع الحالي بأن أكتفي فقط بتصوير الحارة بمبانيها وأزقتها دون أن أصور روح الشعب الذي يسكنها.

قالت: إنني أجد أيضاً جانباً شعرياً في رواياتك، فهي تسمو فوق السرد النثري لتترك في النفس تأثير الشعر.

قال: قد تكون تلك هي سمة الأدب كله، فالأدب الذي لا يرتقي إلى مرتبة الشعر حتى لو لم يكن منظوماً، ليس من الأدب في شيء.

في لقاء ودي مع الأستاذ نجيب محفوظ، قال المفكر الإسلامي الكبير الدكتور أحمد كمال أبو المجد: إن نجيب محفوظ هو أكثر أدبائنا فهماً للشخصية المصرية ولطبيعة مصر نفسها، وإنه حين أراد أن يصور الحياة في مصر، فإنه قد غزلها على نول عظيم، لون خيوطه بألوان الحياة المصرية، ولذلك فإن من ينظر إلى الحياة المصرية كما صورها نجيب محفوظ يشعر بأنه قد عاش هذه الحياة بنفسه. ثم تطرق الحديث إلى السياسة في أعمال نجيب محفوظ، فوصفها الدكتور أبو المجد بـ«الوجيزة»، أي أن محفوظ كان في الجانب السياسي وجيزاً، فكان دائماً يصيب الهدف بلا إسهاب، لكنه كان دائماً صادقاً وعادلاً في أحكامه السياسية.

وسئل محفوظ من أحد الحضور: متى سيوافق على نشر «أولاد حارتنا»، وهي الرواية التي لم يتنازل أديبنا الأكبر عن حقوق نشرها لأيٍّ من الناشرين المصريين حتى الآن؟ فقال محفوظ: إنني كثيراً ما كنت أقول إنه لو كتب لها مقدمة د. كمال أبو المجد والدكتور الغزالي، لوافقت على نشرها لكن د. الغزالي قد توفاه الله قبل أن يفعل ذلك. فتدخل د. أبو المجد متعهداً بمفاتيح أحد كبار علمائنا ممن لا يقلون مكانة عن د. الغزالي في هذا الموضوع، ولما كان الأستاذ إبراهيم المعلم صاحب دار الشروق حاضراً هذا اللقاء، فقد كان أول من طالب بحقوق نشر الرواية حين تصدر أول مرة في مصر بعد أن صدرت في الخارج في أكثر من عشرين طبعة مزورة.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: توقفت كثيرًا عند خبر قرأته منذ فترة، لكني لا أستطيع تناسيه، وهو أن العالم أبدي مرتين، أن الحياة فنيت بالكامل مرتين، بين كل مرة منها والأخرى ملايين السنين، وقد كانت تلك الصدمة كبيرة. فنحن كثيرًا ما نتصور أن يوم أن يفنى العالم، فإن تلك ستكون واقعة فريدة في التاريخ، فإذا بنا نكتشف أن العالم قد فني بالفعل، وليس مرة واحدة وإنما مرتين، انتهت في كل منهما جميع معالم الحياة، وذهب جميع الأحياء. وهذا يعني أن الشيء نفسه يمكن أن يحدث في أي وقت، فنحن في يد الرحمن، وإذا كان قد حدث - كما يقولون - أن نيزكًا عملاقًا اصطدم بالأرض فولد فيها سلسلة من الكوارث الطبيعية، كالانفجارات البركانية والزلازل والفيضانات، فإن الشيء نفسه وارد حدوثه مرة أخرى. ومع التقدم العلمي أصبح الآن من الممكن معرفة موعد اصطدام النيازك بالأرض، لكننا لا نملك وسيلة للحيلولة دون وقوع ذلك، ولا طريقة لحماية أنفسنا من آثار مثل هذا الاصطدام، كما أن الإنسان أصبح الآن قادرًا على صنع هذا الفناء الثالث بنفسه عن طريق أسلحة الدمار الشامل التي يمكن أن تبيد الأرض وما عليها دون انتظار للعوامل القادمة من الفضاء الخارجي. وعندئذ تزول كل معالم الحضارة والتاريخ، ويذهب مع الريح كل ما شغلنا من حروب ومعارك، وكل ما قدمناه من فنون وآداب، فالأرض سيكون قد توفاه الله بلا رجعة.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: إن ما يفرق بين الأديب الحق ومن يكتب قصصًا للتسلية، هو أن الأديب له رؤية هي التي تدفعه للكتابة، وهي التي تتشكل وفقها أعماله الأدبية، فالرؤية هي المرشد والموجه للفنان، والرؤية هي التي تعطي للعمل الفني طعمًا وعمقًا وفلسفة، لكن الرؤية أشمل من الفلسفة أو الأيديولوجية. فالرأي السياسي مثلًا هو جزء من رؤية الأديب، وموقفه من علاقة الرجل بالمرأة هو أيضًا جزء من الرؤية، لكن الرؤية تتعدى كل ذلك، ولا تقتصر على أيٍّ من هذه الجوانب. فإذا قارنا مثلًا بين شعر أبي العلاء المعري وشعر أبي نواس لوجدنا أن اختلاف الواحد عن الآخر، إنما يعبر عن اختلاف الرؤية السوداء لأبي العلاء ورؤية أبي نواس التي كانت ترى العالم وكأنه ملهى كبير، وهذه الرؤية تتطور مع تطور حياة الفنان، وهكذا وجدنا رؤية أبي نواس مثلًا تتطور من المجون إلى ما يشبه الحكمة والإيمان. وهو ما يشبه ما عبر عنه شكسبير في مسرحياته الأخيرة أو بيتهوفن في الرباعيات التي كتبها قبل وفاته.

وأسأل الأستاذ عن رؤيته هو شخصيًا، فيقول: إنني أترك العمل الفني يعبر عن هذه الرؤية، فأنا لا أحب أن أفسد العمل الأدبي، وأتحدث فيه بكلام مباشر، لأنني طالما اخترت الفن طريقًا للتعبير، فيجب أن أترك هذا العمل يتحدث عن نفسه.

قال سفير فنزويلا في القاهرة فيكتور كاراسو للأستاذ نجيب محفوظ: لقد سعيت للقائك منذ بداية حضوري إلى القاهرة قبل حوالي أربعة أشهر، وقد أعربت عن رغبتني هذه لوزارة الخارجية المصرية التي نتقدم لها بكل طلباتنا، وذلك لأنني تعرفت على المجتمع المصري من كتاباتكم، خاصة «الثلاثية» التي تتبعت فيها تاريخ مصر الحديث عبر ثلاثة أجيال. فمذ استقبلني رئيس الجمهورية في عاصمتنا كاراكاس، ليخبرني بأني قد وقع عليّ الاختيار لأكون سفيراً في القاهرة وأنا أعكف على قراءة أعمالكم الأدبية ذات الفائدة الكبيرة لي في هذا المجال، علاوة على المتعة الفنية التي تمنحها قراءة الأعمال الأدبية، ولهذا جئتك لأشكرك على هذه المتعة، ولأعرب عن امتناني لهذه المعرفة التي أشعر أنها أفادتني كثيراً.

ثم يؤكد السفير للأستاذ: لقد تعرفت على المجتمع المصري في رواياتكم تعرفاً شبه كامل، إلى درجة أنني حين وصلت إلى مصر، التي كنت أزورها لأول مرة لم أجدها غريبة عليّ، والآن أستعد لقراءة رواية جديدة هي «يوم قُتل الزعيم» التي أتطلع للاستمتاع بها، وللإستفادة بما ستقدمه لي من رؤية ثاقبة لملاسات حدث مهم في تاريخ مصر القريب.

ويصمت الأستاذ تواضعاً ثم يسأل زائره: هل قرأت «الثلاثية» بالإسبانية؟

فيرد السفير: بل بالإنجليزية، لأنني أخشى أن تكون الترجمة الإسبانية قد نُقلت عن الإنجليزية، بينما الترجمة الإنجليزية نُقلت عن الأصل العربي، لكنني سأحاول قراءة «يوم قُتل الزعيم» بالإنجليزية والإسبانية معاً لكي أقارن بينهما.

اهتم الأستاذ نجيب محفوظ بمشاهداتي في مهرجان كان السينمائي الأخير بفرنسا، وقال لي: إن ذلك يذكرني ببداية اشتراك مصر في هذا المهرجان الدولي الكبير، لقد كنت في الخمسينيات أعمل بمؤسسة دعم السينما، وكان ذلك في عهد عباس رضوان وزير الثقافة الأسبق، وقد كانت هناك بالوزارة ميزانية مخصصة لاشتراك مصر في ثلاثة مهرجانات سينمائية دولية كل سنة، لكن الدكتور حسين فوزي، وقد كان آنذاك وكيلاً للوزارة لم يكن يقدر السينما في مصر، وكان يعتقد أن مستواها الفني قد لا يرقى للمشاركة في المهرجانات الدولية. لذلك أراد أن يحول هذه الميزانية إلى غرض آخر، وكنت أنا من أنصار المشاركة في المهرجانات، لذلك ذهبت إلى الكاتب الكبير يحيى حقي، لنحاول إقناع الدكتور حسين فوزي بجدوى المشاركة، وكان أول ما سأله لنا الدكتور فوزي هو: هل تعتقد حقاً أن من الأفلام المصرية ما يمكن أن يحصل على جائزة في أي مهرجان دولي؟ فقلت له: إن الغرض من المشاركة ليس الفوز بالجائزة، وإنما هناك مزايا أخرى كثيرة يمكن أن تفيد السينما المصرية والعاملين فيها من جراء الاختلاط بالمجتمع السينمائي الدولي، ومن خلال اطلاعهم على أحدث الاتجاهات السينمائية في العالم، وأيضاً من خلال تعرف المجتمع الدولي على الإنتاج السينمائي في مصر، والذي قد يلقى استحساناً في بعض جوانبه. وبعد مناقشة مستفيضة وافق الدكتور حسين فوزي على مضمض، وشاركت مصر بالفعل في مهرجان «كان» بفيلم صلاح أبو سيف الشهير «شباب امرأة» الذي شاركت في كتابة السيناريو له. وقد لفت الفيلم أنظار النقاد هناك والجمهور، وكانت تحية كاريوكا موفقة تماماً في ارتدائها للملاية اللف، حيث إنها تظهر في الفيلم بهذا الزي، فقد تميزت وسط استعراض الأزياء الذي عادة ما تظهر به ممثلات السينما في هذا المهرجان.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: سعدت بأن سمعت أخيراً أنه في العام الماضي وحده أقيمت في مصر ٥٠ دار عرض جديدة، وقد ذكرني هذا بسينما بيت القاضي التي كانت تقع بجوار بيتنا، وأعتقد أنها كانت أول دار سينما في مصر، فقد كان ذلك في أوائل القرن الماضي، وكنت أذهب إليها في الأعياد، وكان موقعها في مقطع من الكلوب المصري في خان جعفر. وحين انتقلنا إلى الإقامة في العباسية بعد ذلك بسنوات، كنت أخذ أصدقائي لأريهم المنطقة التي جنّت منها، وكنا في بعض الأحيان نجد السينما مغلقة، وصاحبها يجلس في الكلوب، فكنا نطلب منه أن يفتحها لنا، فكان يجيء بالمفاتيح، ويفتح لنا السينما، لكي نشاهد فيلم «شارلي شابلن» ونعطيه ما فيه القسمة، أي أنها كانت سينما بالطلب، وبعد ذلك كانت هناك دور سينما أخرى قد فتحت أبوابها مثل سينما أولمبيا وسينما إيديال، وكانت دوراً حديثة بالمقارنة بسينما بيت القاضي العتيقة.

ويسرح الأستاذ قليلاً، ثم يعود فيقول: لقد أحببت السينما حباً كبيراً وأنا طفل حتى كانوا يخرجونني منها بالقوة، لأنني في بعض الأحيان كنت أقيم فيها، وذلك بالرغم من أن صاحب سينما بيت القاضي لم يكن لديه سوى فيلمين فقط يعرضهما لكل من يرغب. وكنت أشاهد الأفلام نفسها كل مرة، أحدهما لشارلي شابلن والثاني لفانتوم وهو بطل مثل ماشيست، لكنهما كانا يلهبان خيالي، فقد كنت طفلاً في الخامسة من عمري. وأذكر أنني لكي أذهب إلى السينما كانت تصحبني من بيتنا سيدة كانت تعمل عندنا، وكانت ما إن تدخل السينما حتى تغط في نوم عميق، وكنت أنا أتفرغ لمشاهدة الأفلام.

ويواصل الأستاذ حديثه عن السينما، فيقول: لقد انتقلت في الصبا من سينما بيت القاضي التي كانت تقع إلى جوار بيتنا القديم إلى سينمات أخرى أكثر حداثة مثل سينما أولمبيا وسينما إيديال، فقد كانت كل منهما تعرض أفلامًا جديدة بدلًا من الفيلمين اليتيمين اللذين كان يملكهما صاحب سينما بيت القاضي ولم يكن يُعرض غيرهما. ولقد وصل عشقي للسينما إلى درجة أنني اشتريت سينما صغيرة كانت عبارة عن علبة صغيرة بها منظار، ومكان توضع فيه شمعة داخل العلبة، وكنا نغلق علينا الغرفة ونطفئ الأنوار ونشاهد الصور أمامنا على الحائط، أما الأفلام فكانت أشتريها من محل أمام سينما أولمبيا. وكانت تلك أول جامعة بالنسبة لي فتحت ذهني على جميع المعارف في الأدب والفنون، وما زلت أذكر مشهد المحل وصاحبه الجالس فيه الذي كان يبيع هذه الأفلام كما تباع الكتب.

وبعد لحظة صمت، يقول الأستاذ: لم يعد هناك شيء من هذا الآن، فحين أقارن هذه الأفلام البدائية بأفلام الفيديو الآن أو ما يعرف باسم «CD Rom» أجد فرقًا هائلًا، فقد كانت السينما التي كنت أملكها بسيطة في كل شيء، لكنها كانت مبهرة بالنسبة لي في صباي، وكان من الأفلام التي ما زلت أذكر أنني اشتريتها فيلم «مسكو» الكوميدي، الذي يذكره أبناء جيلي جيدًا.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: ما زال فيلم «ريا وسكينة» وفيلم «فتوات الحسينية» أقرب السيناريوهات السينمائية التي كتبتها إلى قلبي، ففيهما دقة وتركيب وتشويق وقد بذلت فيهما مجهودًا كبيرًا، وقد كان مخرج كل منهما مشجعًا لي في كتابتهما، صلاح أبو سيف في «ريا وسكينة»، ونيازي مصطفى في «فتوات الحسينية». ولغرابة الموضوع في كل منهما فإن أحدًا لم يتدخل في كتابته معي بالتعديل أو التبديل، لا المخرج ولا المنتج ولا أحد من الأبطال. ولو كان أحد هذه الأفلام قصة حب مثلًا لما خلصت من تدخلات العاملين به، لتعديل بعض المشاهد والعبث بما كتبه، لكن الفيلمين كانا يمثلان موضوعين جديدين تمامًا على السينما المصرية، خاصة «ريا وسكينة» الذي ما زال يمثل نقطة مهمة في تاريخنا السينمائي.

وسألت الأستاذ: وكيف كنت تراقب أفلامك وأنت في منصب الرقيب؟

قال بسرعة: لم أكن أراقبها قط، فقد عقدت اتفاقًا مع مسؤول رقابة الأفلام، وهي إحدى إدارات الرقابة على المصنفات الفنية التي كنت رأسها، على أن يقوم بمراقبة أفلامي بحرية كاملة، دون أن يرجع إليّ في شيء. وأذكر أنني قلت لمدير هذه الإدارة إن له مطلق الحرية في الحذف، أو حتى الإضافة إذا شاء، دون أن يخطرني بشيء، وحسبما أذكر لم تكن لي أفلام كثيرة معروضة على الرقابة في ذلك الوقت.

قلت: وكيف ترى السينما العربية بشكل عام؟

قال: بها نماذج فنية رائعة حقًا، سواء في الإخراج أو السيناريو أو غيرهما، لكن السينما العربية بشكل عام سينما عادية، وليس بها عنصر غير عادي إلا التمثيل الذي يتفوق في معظم الأحيان على الجوانب الأخرى.

بادرني الأستاذ نجيب محفوظ بالحديث عن مدينة هراقليون القديمة التي اكتشفت أنقاضها أخيراً غارقة في البحر أمام شاطئ الإسكندرية، فقال: يخيل إليّ أنه ليس في العالم كله بلد يزخر بالآثار مثل مصر، فتاريخها السحيق جعل مخزونها من الآثار يتفوق في كميته على أي بقعة أخرى في العالم، كما أن موقعها الجغرافي، الذي وضعها في مفترق طرق معظم الحضارات القديمة جعل أثارها تتنوع حتى كادت تمثل كل الحضارات القديمة من اليونانية والرومانية إلى الفارسية والإسلامية، إضافة إلى حضارتها الفرعونية الأصيلة. وما اكتشف أخيراً في الإسكندرية من آثار لمدينة هراقليون القديمة يجب أن يضاف إلى ما اكتشف بها منذ عامين تقريباً من آثار خاصة بكلوباترا، لأن ذلك ينبئ بأن بحر الإسكندرية ما زال في قلبه الكثير مما لم نصل إليه بعد من آثار لهذه المدينة الساحلية التي طالما خلّبت الأبواب على مدى تاريخها، سواء في تاريخها القديم أو حتى في تاريخها الحديث، حيث كانت المدينة المختارة للكثير من الشعراء والأدباء من غير المصريين، الذين خلدوها في كتاباتهم مثل الكاتب البريطاني لورنس داريل والشاعر اليوناني كفافيس هذا عن الإسكندرية وحدها، فما بالك ببقية البلاد؟ لقد أثبتت الاكتشافات الأخيرة التي أعلنها المنقبون الأمريكيون عن اكتشاف بقايا بعض أقدم أنواع الديناصورات في الصحراء الغربية. إن هذه المنطقة من العالم كانت أهلة بالحياة منذ ملايين السنين، لذلك فأنا أعتقد أن ما تم اكتشافه من آثار حتى الآن في مصر لا يمثل أكثر من قمة جبل الثلج الذي ما زال الجزء الأكبر منه خافياً.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: قابلت سعاد حسني في بداية مشوارها الفني في ظروف إنتاجية تتعلق بقيامها ببطولة أحد الأفلام المأخوذة عن رواية لي، وقد كانت فتاة مهذبة ودمثة الخلق وخفيفة الظل، كما كانت فنانة مرهفة الحس، ولقد تعجبت في البداية حين رُشحت للقيام لأول مرة ببطولة فيلم لي، وأعتقد أنه كان «الطريق» في أواسط الستينيات. فقد اعتدت أن أراها في أدوار خفيفة تميل إلى الكوميديا، لكنني وجدت فيها بعد ذلك أبعادًا تراجمية عميقة، وأنا أعتقد أنها كانت من أكثر ممثلاتنا تنوعًا في الأداء في وقت كان فيه الكثير من الممثلات الأخريات يملن إلى النمطية. ولقد بُهرت بأدائها في الكثير من الأفلام المأخوذة عن رواياتي أو التي كتبت لها السيناريو بنفسني، فكان أداؤها رائعًا في «القاهرة ٣٠» لصالح أبو سيف، وفي «الاختيار» ليوسف شاهين، كما دخلت قلبي بخفتها في «أميرة حبي أنا» لحسن الإمام، ولقد تطورت سعاد بسرعة من أدوار الفتاة الظريفة الخفيفة إلى أدوار المرأة الناضجة، بحيث صارت قادرة على أداء أي دور سينمائي، مهما تكن أبعاده، فقد كانت لديها مواصفات جميع الأدوار من الفرح إلى الحزن ومن الأمل إلى الإحباط. أما الشيء الثاني الذي ميز سعاد حسني، فقد كان مصريتها الصميمة، ففي أدائها شخصية الفتاة الخفيفة التي كانت خفتها هي الخفة التي اشتهر بها المصريون، كما كانت حاستها الكوميديّة ذات طابع مصري أصيل في الوقت الذي كنت تجد فيه بعض الممثلين الآخرين يقدمون كوميديا أقرب إلى ما نراه في الأفلام الأجنبية. لذلك فقد كنت أسعد كلما قدمت سعاد حسني إحدى رواياتي، لأن شخصياتي تتسم بالطابع المصري الصميم نفسه الذي اشتهرت به فنانتنا العظيمة، رحم الله سعاد حسني وجزاها خيرًا عن كل ما قدمته لشعبها طوال أكثر من ثلاثين عامًا.

زار الأستاذ نجيب محفوظ مراسل صحفي ألماني قال إنه قرأ كل ما تُرجم إلى الألمانية من أعمال أدينا الأكبر قبل مجيئه إلى مصر، وقال إنه وقع في عشق أحياء القاهرة القديمة من خلال قراءته روايات مثل «الثلاثية» و«زقاق المدق» و«خان الخليلي» وغيرها، إلى درجة أنه حين جاء لم يشأ أن يسكن الأحياء الحديثة كزملائه، وإنما استأجر مسكنًا في منطقة باب الفتوح، وقد كان ذلك منذ حوالي عشر سنوات قبل أن يعود مرة أخرى إلى بلاده. لكنه كثيرًا ما يعود إلى مصر لزيارة أصدقائه المصريين، خاصة جيرانه بحي باب الفتوح الذين مكث معهم سنة ونصف السنة تقريبًا، وقال الصحفي الألماني للأستاذ نجيب محفوظ إن تلك الفترة كانت أسعد أيام حياته، وكان كل من يسأله ما الذي دفعك للسكن في أحياء القاهرة القديمة، يقول له نجيب محفوظ هو الذي دفعني لذلك. ثم تحدث الزائر الألماني عن روايات كاتبنا الكبير، فقال: إنه حرص على تعلم العربية في أثناء السنوات التي قضاها في القاهرة لكي يتمكن من قراءة أدب محفوظ باللغة التي كتبه بها، وقد قرأ بالفعل «ملحمة الحرافيش» و«قشتمر» باللغة العربية، وكان يعتقد أن تلك ستكون مهمة صعبة، لكنه وجد في لغة محفوظ الأدبية سلاسة وانسيابًا مكناه من دخول عالم محفوظ الفني، كما هو في الواقع، وليس عن طريق الترجمة. وقد وجد عندئذ أن هناك أشياء تعجز أي ترجمة عن نقلها، فيظل الأصل دائمًا متفوقًا على الترجمة، ولا نستطيع أن نقول إن أحدًا قد عرف محفوظ حق المعرفة دون أن يكون قد قرأ رواياته كما كتبها بالعربية. واختتم الصحفي الألماني كلامه قائلاً: ومن حسن حظي أنا شخصيًا أن محفوظ لم يكتب رواياته بلغة متقكرة، وإنما ابتدع لغة جميلة وسلسة قريبة من العامية، لكنها في الوقت نفسه لغة أدبية بليغة. وقد استمع الأستاذ إلى حديث ضيفه في صمت، وفي النهاية شكره، وقال له بالعربية: أخلجتم تواضعنا.

تطرق حديثي مع الأستاذ نجيب محفوظ إلى عدة موضوعات صيفية عابرة، ولم يتوقف عند موضوع واحد، فقد لاحظت عليه بعض علامات الضجر، فسألته: ما سبب الضيق يا أستاذ نجيب؟ فأطرق برأسه قائلاً في هدوء: لا شيء غير هذا الحر الذي لا ينتهي، لقد كان شهر أغسطس هذا العام حاراً للغاية ودرجة الرطوبة عالية تزيد مما نعيش فيه من عناء.

قلت: ألا تعتمد على جهاز التكييف؟

قال: أنا لا أحب التكييف، فهو يمرضني، بل أفضل عليه دائماً الهواء الطبيعي، ثم سكت برهة، وقال: هذا حين كان الهواء طبيعياً، فالهواء الآن ملوث بدرجة لا نستطيع معها أن نقول إنه طبيعي. ولاحظت أن الأستاذ قد أطلق لحيته، فقلت: وهل قررت أن تطلق لحيتك، أم أن هذا كسل مؤقت بسبب الضجر والحر؟

قال: لا ليس كسلاً، بل تفادياً للجروح التي أصبحت أصاب بها كلما حلقت.

قلت: ألم يعد الحلاق يزورك بصفة منتظمة؟

قال: لا، ليس بصفة منتظمة، وإنما كل بضعة أيام، لكنني سئمت عملية الحلاقة ولم أعد أطيق وقت الحلاقة، ويكفي حلاقة شعري كل بضعة أسابيع، أما حلاقة الذقن التي تعتبر من الأمور الروتينية في حياة أي رجل، فقد أصبحت بالنسبة لي مهمة ثقيلة، خاصة بعد أن ضعف بصري، مما أصبح يتسبب في إصابتي بالجروح كلما حلقت.

ويتحسس الأستاذ لحيته الجديدة، ثم يقول: لكنني لن أتركها تطول كثيراً، فكلما استدعى الأمر أقوم بتهديبها بالمقص، بدلاً من الموسيقى القاتلة.

سألت الأستاذ نجيب محفوظ: ما آخر أخبار الكتابة؟

قال: ما زلت أكتب يوميًا لمدة نصف ساعة، لأن يدي لا تحتمل عملية الكتابة لأكثر من ذلك.

قلت: هل تكتب كل يوم شيئًا جديدًا؟

قال: ليس بالضرورة أن يكون جديدًا، فعملية الكتابة - إلى جانب التأليف - هي بالنسبة لي عملية علاج أيضًا، فأطباء العلاج الطبيعي يطلبون مني أن أدرب يدي يوميًا على الكتابة، لذلك فأنا قد أكتب قصة قصيرة إذا جاءتني فكرتها، وبعد انقضاء نصف الساعة المقرر أتركها لأعود لها في اليوم التالي نصف ساعة آخر، وحين أكملها، فإذا لم يكن لدي فكرة جديدة، فإني أعيد كتابتها مرة أخرى أو مرات، كنوع من التدريب ليدي.

قلت: وهل تُغير فيها كلما أعدت كتابتها؟

قال: قليل جدًا، وقد لا أغير على الإطلاق، فمتى اكتمل العمل الفني، فهو لا يقبل أي تعديل.

قلت: هل ما زلت في مرحلة «أحلام فترة النقاهة»؟

قال: نعم، ولقد تجمع لدي الآن عدد من الأحلام مماثل للعدد الذي نشر، فلا بد أنني كتبت حتى الآن ما يزيد على ٧٠ قصة، ولقد لاحظت أن الأحلام الجديدة أصبحت أكثر ارتباطًا بالواقع، وهي تبدو متأثرة جدًا بالأحداث الجارية. فأنا لا أذكر مثلًا الأحداث التي تسببت في الأحلام الأولى التي كتبتها، لكن الأحلام التي أكتبها الآن تبدو لي انعكاسًا مباشرًا للأحداث التي نعيشها، والتي تجري من حولنا، لذلك وجدت مثلًا أن الأحلام بدأت تتجه إلى النقد السياسي، وهو ما لم تكن عليه الحال في الأحلام الأولى.

ثم يصمت الأستاذ برهة، ليعود فيقول: يبدو أن ما ننكوي به نحلم به.

قلت للأستاذ نجيب محفوظ: كثر التساؤل عن قصصك الأخيرة التي تنشرها بمجلة «نصف الدنيا» والتي تطلق عليها اسم «أحلام فترة النفاهة»، هل تأتي إليك هذه القصص في أحلامك بالفعل، أم أن تلك هي التسمية الأدبية التي اخترتها لها؟

فقال الأستاذ: لا، إن الأساس المحرك في هذه القصص هو حلم حقيقي، لكنه حلم ليس مساوياً للقصة كما تُنشر، فالحلم قد يمنحني الفكرة لكني أعمل على هذه الفكرة طويلاً إلى أن تتحول إلى قصة. فمثلاً ما أخرج به من الحلم قد يكون إحساسي في مكان عظيم الاتساع، ولكن ماذا يجري في هذا المكان، وما هي الأحداث التي يمكن أن تنقل للقارئ إحساسي بالمكان خلال الحلم؟ كل ذلك يجيء في مرحلة تالية للحلم ولا يتضمن الحلم نفسه، ولو التزمت بالحلم وحده لاقتصرت في مثل هذه القصة على وصف لهذا المكان الذي رأيته في الحلم، وتلك لا تكون قصة. إذن فالحلم قائم في كل هذه القصص، وليست هناك قصة واحدة من هذه المجموعة لم تبدأ بحلم، لكن كل قصة منها تتعدى الحلم إلى أن تصبح أدباً.

وسألت الأديب الكبير: وكيف يختلف كلٌّ من هذه الأحلام عن مثيله؟

قال: هناك مثلاً أحلام تجيئني في شكل قد ينقصه الشيء القليل لكي يصبح قصة، وهناك أحلام أخرى لا تترك وراءها إلا رؤية لمكان ما أو شعوراً بموقف معين، وهذا بالنسبة لي مَعين جديد للكتابة، فقد كنت في السابق تأتيني أفكار الكتابة من حديثي مع الناس أو من جلوسي على المقهى أو غير ذلك من مخالطتي اليومية للحياة. وقد تصورت بعد أن انقطعت عن هذا الاختلاط بسبب ظروفِي الصحية أن مصدر إلهامي قد ذهب بغير رجعة، لكنني فجأة وجدته يطل عليّ من جديد في أحلامي وكأنه يقول لي: لا تقلق سأتي لك بالأفكار والقصص دون أن تخرج إلى الشارع.

قلت: لقد عرف العالم كُتّاباً وفنانين وشعراء كثيرين كانت الأحلام هي مصدر إنتاجهم الأدبي، مثل الشاعر البريطاني إدوارد بليك والموسيقي الفرنسي هيكتور برليوز وغيرهما.

قال: لكن ذلك جديد عليّ تماماً، لذلك رأيت أن أكون صادقاً مع نفسي، وأسمي هذه القصص «أحلام فترة النفاهة».

سألت الأستاذ نجيب محفوظ: إن ما تكتبه الآن من أقصوصات صغيرة تنشرها تباعاً في مجلة «نصف الدنيا» يعتبر كتابات ذات طبيعة خاصة. فكيف تكتبها؟ وما شعورك نحوها؟
قال: أستطيع أن أقول لك إنني راضٍ عما أكتبه الآن، ولم تكن هذه هي الحال مع بعض الأشياء التي كتبتها قبل هذه المجموعة الأخيرة، لذلك فأنا لم أنشرها، لأنني حين عدت إليها وجدتني غير راضٍ عنها، أما ما أكتبه الآن فأنا واثق منه.

قلت: وما الذي لا يرضيك في القصص السابقة التي لم نقرأها؟
قال: يقلقني أن القصة لا تصب تمامًا في قالب الذي أردته لها، فالمهم عندي في هذه القصص التي سميتها أحلامًا أن ينتهي هذا الحلم بفكرة عامة، لا أن يظل حلمًا خاصًا، والفكرة التي يقوم عليها فكرة خاصة.

قلت: ما الخطوات التي تتبعها الآن في كتابتك لهذه القصص؟
قال: تعلم أن عليّ أن أدرب يدي اليمنى يوميًا على الكتابة، لذلك فأنا أكتب القصة، وبدلاً من أن أظل أكتب أي شيء آخر للتدريب فأنا أعيد كتابة القصة عدة مرات قد تصل إلى العشرين، إلى أن تجيئني فكرة قصة أخرى فأكتبها، وتصبح هي موضوع تدريبي اليومي على الكتابة، وهكذا.
قلت: وهل تغير في القصة كلما أعدت كتابتها؟
قال: يحدث هذا في بعض الأحيان، فأغير كلمة هنا أو هناك، وفي بعض الأحيان لا أغير حرفاً، لكني أظل أكتب القصة من أجل التدريب فقط.

قلت للأستاذ نجيب محفوظ: يمر هذا العام مائة عام بالضبط على بداية إنشاء جائزة نوبل التي بدأت في عام ١٩٠١، وباعتباركم أحد أهم الفائزين بها في مجال الأدب، ما تقويمكم للجائزة، وقد وصلت إلى سن المائة وبعد مرور ١٣ عامًا على فوزكم بها؟ هل نجحت في لفت النظر إلى بعض الأدباء المجهولين في العالم بمنحهم الجائزة، أم أنها مجرد مكافأة لمن لهم مكانتهم بالفعل؟ قال: إن من لفتت نوبل النظر إليهم قلة، بالنسبة لمن اعترفت بهم. قلت: وفيما يتعلق بحالتك أنت؟

صمت الأستاذ الذي لا يهوى الحديث عن نفسه، ثم قال في تواضع: لقد قدممتي نوبل للعالم الأدبي، وهكذا أعطت فرصة لكاتب مجهول أن يصبح معلومًا بعض الشيء. وما زلت أذكر جملة صحيحة، قالها لي الناقد الكبير الدكتور لويس عوض وقت منحي الجائزة، وهي أن المهم ليس الفوز بنوبل وإنما كيف سيُستقبل الفائز من القراء والنقاد في العالم. ووقتها أصبت بخيبة أمل، وقلت له: أحصل على أكبر جائزة، ثم يتضح أن لا أهمية لها في حد ذاتها؟ أما في حالة اعتراف الجائزة بمن هم معروفون للعالم من الكتاب فإن رد فعل الناس يكون موجودًا من قبل منحهم الجائزة، فبرنارد شو مثلًا كانت له مكانته قبل أن تفكر نوبل في منحه جائزتها، وكذلك كانت الحال مع أناتول فرانس وأرنست همنجواي.

قلت معارضاً: لكني أذكر أن ستوري ألين رئيس لجنة نوبل وقت أن فزت بالجائزة قال لي إن حصول محفوظ على نوبل هو اعتراف بالجائزة وتأكيد لمصداقيتها، فخلال ما يقرب من ٩٠ عامًا من عمر الجائزة لم تُمنح أبدًا لأديب عربي رغم عراقة الأدب العربي بين الآداب العالمية، وتأثر الكثير من الأدباء بإنتاجه، وقد كان ذلك يُلقى بظلال على مصداقية الجائزة. ولا شك أن فوز نجيب محفوظ يمثل في جانب منه رد اعتبار للجائزة. فاكتفى الأستاذ بالإصغاء، وعلق بكلمة واحدة قائلاً: ربما.

تحدث الأستاذ نجيب محفوظ عن الهجمة الإرهابية الأخيرة التي وقعت على برجى التجارة العالميين في الولايات المتحدة، فقال: إن ما حدث مملوء بالعبير لمن يعتبر، لكن أهم العبر جميعاً كانت أن القوة وحدها ليست ضماناً للأمان، فقد تكون لديك ترسانة أسلحة لم يشهد لها التاريخ الإنساني مثيلاً من نووية وبيولوجية وكيميائية وغيرها مما لا نعرفه ولا يفصح عنه، ثم يحدث ما حدث من ضربة موجعة حقاً، سلاحها مجرد سكاكين مطبخ. لذلك فإن الضامن الوحيد للأمان هو العدل، ولو كانت الولايات المتحدة في زعامتها للعالم أكثر عدلاً لكسبت الإنسانية كلها ولما تحرش بها أحد أو تفنن في كيفية تقويض قوتها. فمحاولة النيل من قوة الولايات المتحدة لا تعني إلا أن هناك من لا يرون أن هذه القوة في جانبهم أو تدعمهم، وإنما يرونها في عداة لقضاياهم، لذلك فهم يترصدونها، وفي مثل هذا الوضع قد لا تفيد كثيراً الأسلحة المكدسة، فهي قد تقضي على المسؤول عن تلك العملية الإرهابية أو غيرها، لكنها لا تنهي أسباب الإحساس بالظلم، وبغياب العدالة في الموقف الأمريكي من قضايا العالم. إذن فالعبرة الكبرى لما شاهدناه يوم الثلاثاء ١١ سبتمبر هي أنك لكي تكون سيد العالم حقاً، فأنت لست في حاجة إلى السلاح وإنما إلى العدل، لأن العدل كما قيل عن حق هو أساس الملك، وللوصول إلى هذا العدل، فإن حكماء الولايات المتحدة عليهم أن يسألوا أنفسهم ويسألوا الأمة كلها من رجال السياسة إلى رجل الشارع: لماذا نحن في موقع الكراهية هذا؟ وماذا علينا أن نفعله لكي نكون في موقعنا القيادي هذا بجدارة؟ بدلاً من إرجاع الأسباب إلى مجرد أن من قاموا به أشرار.

سألت الصحفية الإسبانية بياتريس أوبر لاندر الأستاذ: كيف يسود السلام في عالمنا المضطرب هذا؟

فقال: بالحب وبالضمير وبالحق، وحين نقول ذلك فقد يقول لك قائل: إن تلك مجرد مثاليات وتحقيقتها أحلام يقظة، لكنني أرد على ذلك قائلاً: وإذا كنت قد قلت لك منذ أشهر إن الطائرات ستقتحم أكبر مباني مدينة نيويورك، وإن هذه المباني ستنفجر وتتحول إلى أطنان من الرماد، لقلت لي أن تلك مجرد كلمات وأحلام يقظة، أو بالأحرى كوابيس، لكن ها هي اليوم وقد تحولت إلى حقيقة، فإذا كانت الكوابيس قابلة للتحقيق، فلماذا لا تتحقق الأحلام أيضاً، لماذا لا يكون للعالم أخلاقية تسمح بأن تسود قيم الحق والعدل ويحكم الضمير.

وسألته: وما رأيك في اتهام بن لادن بأنه العقل المدبر لعملية نيويورك وواشنطن الأخيرة؟ قال: إن ذلك يذكرني بشخصية في تاريخنا العربي هي شيخ الجبل، ذلك الرجل الذي كان يعيش في أحد جبال سوريا مع أتباعه الذين كانوا يُعرفون باسم «الحشاشين»، والذين منهم جاءت كلمة «Assassins» في اللغات الأوروبية، بمعنى القتل. فقد كان هؤلاء يمثلون شبكة اغتيالات تماثل ما يتهم به بن لادن اليوم، وكانوا يلقون الرعب في جميع أرجاء العالم الإسلامي، فبن لادن هذا من المعروف أنه يعيش في جبال أفغانستان وبين كهوفها، وهو ما لن تستطيع النيران الأمريكية الوصول إليه بسهولة، وهذا سيخلق منه أسطورة جديدة، مثل أسطورة شيخ الجبل.

سألت الأستاذ نجيب عن القاهرة، فقلت إن القاهرة تكاد تصبح شخصية مسيطرة في رواياتك، خاصة «الثلاثية»، فماذا تمثل لك هذه المدينة العريقة؟

قال: إن القاهرة بالنسبة لي الأساس، وهي الأم التي تتفرع عنها كل الشخصيات، لأن الشخصيات نابعة من المدينة، لذلك لا يمكن بالنسبة لي أن أقدم شخصيات في فراغ جغرافي. كما أن ثراء القاهرة التاريخي والثقافي يجعل من غير الممكن لروائي مثلي ولد فيها وأحبها أن يتجاهلها في رواياته أو يغفل هويتها الثرية، فالقاهرة ليست مثل باقي المدن، وإنما لها وجود قوي في نفوس أهلها، مما يجعلها حاضرة دائماً في ضميرهم، وهكذا كانت في رواياتي.

قلت: قال شاعر الإسكندرية اليوناني الكبير كفاي: إن لكل منا مدينته التي يحملها في داخله، والتي تنتقل معه أينما ذهب. وقد كانت مدينة كفاي هي الإسكندرية، أما مدينتك أنت فهي القاهرة، فإلى أي مدى تتطابق القاهرة التي بداخلك مع القاهرة الخارجية؟

قال: أعتقد أنهما متطابقتان تماماً، فأنا أرى القاهرة بالطريقة التي أصورها في رواياتي. وقد جاءني الكثيرون من الأجانب الذين قرأوا رواياتي، قائلين إنهم تعرفوا على القاهرة الحقة من خلال قراءاتهم لهذه الروايات، لذلك فلا بد أن التصوير الأدبي للمدينة، خاصة المدينة القديمة، كان مطابقاً للواقع.

سألت الأستاذ نجيب محفوظ: ماذا كان مصدر إلهامك فيما كتبت من روايات؟
قال: لم يكن مصدرًا واحدًا، ففي بعض الأوقات كان المكان هو مصدر الإلهام، فكنت مثلًا حين أرى الغورية أو زقاق المدق يجيش صدري بالعواطف والأحاسيس التي تخرج في كل أعمال أدبية. في أحيان أخرى يكون الموقف هو مصدر الإلهام، فيمكن لحالات الحب مثلًا أو الموت أن تحركني للكتابة.

قلت: وماذا عن السؤال التقليدي الذي وُجِّه إليك مئات المرات، لكنك لم تجب عنه أبدًا: ما أحب أعمالك إليك؟

قال بعد تفكير: ربما تكون «الثلاثية» و«الحرافيش» و«ليالي ألف ليلة»، ففيها أعتقد أنني عبرت عن نفسي بصدق وعن نظرتي الكلية للحياة وللوجود بشكل عام. أما باقي الأعمال، فقد كانت قائمة على جانب أو آخر من جوانب الحياة حسب موضوعها وإطارها الفني، لذلك فإن هذه الأعمال الثلاثة لها مكانة خاصة عندي، تختلف عن بقية الأعمال.

قلت: عن «الثلاثية» قيل كثيرًا إنها كتبت من واقع حياتك الشخصية، وإن شخصية كمال عبد الجواد كانت مصدر إلهامك، هو شخصيتك أنت.

قال: لا، «الثلاثية» أكبر بكثير من حياة أي شخص، فهي بانوراما لمجتمع بأسره، أما شخصية كمال عبد الجواد فهي تقترب إلى حدٍ ما من شخصيتي، خاصة في الجزء العقلي منها والأزمة الثقافية التي واجهها، ما بين ثقافة الشرق وثقافة الغرب، والإيمان والفلسفات الأوروبية. هذه هي أزمة كمال وهذه هي أزمتنا في العصر الحديث.

لم أستطع تخطي عشرات من سلات الورد التي ازدحم بها منزل الأستاذ نجيب محفوظ، ابتداءً من الممر الخارجي المؤدي إلى باب الشقة، الذي قام الجيران بتزيينه بالبالونات، احتفالاً منهم بعيد ميلاد الأديب الأكبر، وحتى غرفة الاستقبال داخل البيت التي زاحمت فيها السلات أثاث الغرفة، قلت: كيف ترى عيدك هذا العام؟

قال: كغيره من الأيام، لولا زحمة الورد هذه.

قلت: وكيف ترى الأعوام التسعين الماضية من حياتك؟

قال: لقد كانت سنوات حافلة بالمسرات، لكنها لم تخلُ أيضًا من المآسي، وذلك على المستويين الشخصي والوطني معًا، فقد عاصرت الحرب العالمية الأولى، التي أحسست بآثارها واضحة في ثورة ١٩١٩ ثم فترة ما بين الحربين، وذلك المجتمع الغريب الذي أفرزته، إلى أن جاءت الحرب العالمية الثانية، التي غيرت حياتنا بعدها بالكامل، خاصة بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ ثم جاءت حرب ١٩٦٧ وحرب ١٩٧٣ إلى عهد الانفتاح، ثم وقتنا الحالي. وقد تفاعلت مع كل من هذه الأحداث الكبرى التي صنعت تاريخنا في القرن العشرين وما كانت كتاباتي الروائية إلا انعكاسًا لهذا التفاعل الذي من دونه لا أتصور أنني كنت سأكتب شيئًا.

قلت: حين تنظر ورائك بعد هذا العمر الطويل، هل تنظر في غضب أم في ابتهاج؟

قال: أنظر في امتنان، فقد عشت حياة حافلة أشكر عليها الله الذي متعني بحب الناس، فهو ما يعينني الآن على العيش، رغم سني المتقدمة، كما منحني الله الأصدقاء الذين لولاهم لكانت حياتي الآن خاوية بلا معنى.

وانقطع خط حديثنا مرة أخرى برنين التلفون المتكرر الذي قاطعنا عدة مرات بمكالمات التهاني من الكثير من الشخصيات العامة وكبار المسؤولين. فقلت للأستاذ: عقبال مائة سنة، وانصرفت.

قلت للأستاذ نجيب محفوظ الذي بدأ عامه التسعين: لن أسألك كيف احتفلت بعيد ميلادك، فأنا أعرف أنك لم تتعود الاحتفال به أبدًا، رغم أن جميع من حولك يحتفلون بك فيه، لكنني سأسألك: كيف أمضيت ذلك اليوم؟

فتهلل وجه الأستاذ وهو يقول: نائمًا، فأنا كما تعرف لا أنام الليل إلا بالمنوم، لكنني في ذلك اليوم صحت من نومي في الصباح، لأجد في نفسي لأول مرة ميلًا للنوم من جديد، فاستسلمت للنوم، لأجد نفسي قد نمت اليوم كله نومًا طبيعيًا بلا عقاقير.

قلت: وكيف تنظر إلى عيدك الجديد الذي تبدأ فيه عامك التسعين؟

قال: إن أعياد الميلاد هي محطات على طريق العمر، والمحطة الحالية تشبه محطة سيدي جابر، فحين كنت أسافر إلى الإسكندرية بالقطار، كنت أنزل إلى المحطة النهائية، وهي محطة مصر، أما المحطة التي قبلها مباشرة، فهي محطة سيدي جابر التي حين أصل إليها أعرف أن الوقت الباقي على نزولي لا يسمح إلا بأن ألمم أمتعني وأستعد لمغادرة القطار.

قلت: كلنا نعرف حال السكك الحديدية عندنا، وتلك المسافة القصيرة بين محطة سيدي جابر ومحطة مصر قد تطول بأكثر مما هو مقدر لها.

فضحك وهو يقول: إذا تعطل القطار، وفي هذه الحالة، فما فائدة قطار معطل حتى لو بقي على القضبان سنين؟!!

قلت: أمد الله في عمرك يا أستاذ نجيب، ومنحك الصحة والعافية. ثم أضفت: في رحلتك هذه، ما المحطة التي كنت تتمنى أن تمكث فيها وقتًا أطول؟

ففكر قليلاً، ثم قال: قد تكون هي محطة ٦ أكتوبر، ففي عام ١٩٧٣ وصلت إلى عيد ميلادي وأنا قلبي ما زالت تغمره فرحة النصر الذي كان قد تحقق قبل ذلك بأسابيع قليلة.

قلت: لقد وضحت تلك الفرحة في أول رواية كتبتها بعد حرب أكتوبر، وهي «ملحمة الحرافيش» التي تعتبر أكثر رواياتك تفاعلاً.

قال: ذلك لأن الروح التي ألفت «الحرافيش» غير الروح التي ألفت بقية الروايات.

قلت: وأحزن المحطات؟

قال: هي كثيرة، فدعنا منها ولنبقَ في محطات الفرح.

سألت الأستاذ نجيب محفوظ: ما قصة رواية «ما وراء العشق» التي صدرت أخيرًا دراسة نقدية عنها رغم أنها لم تُنشر؟

قال: هذه قصة قديمة، لقد كتبت هذه الرواية فعلاً، وكنت أنوي نشرها، لكنني لسبب ما لم أسترح لها، فتركتها لفترة، ثم عدت إليها مرة أخرى لعلني أجد فيها ما يشجعني على نشرها أو لعلني أهتدي إلى طريقة لتعديلها بما يرضي حسي النقدي، لكنني للمرة الثانية لم أقتنع بها فوضعتها جانباً بعد أن قررت عدم نشرها.

قلت: وكيف اهتدي إليها أحد كبار النقاد فكتب عنها هذه الدراسة التي صدرت بمناسبة عيد ميلادك التسعين؟ يقال إنك كنت قد أعطيتها للمخرج علي سرحان لتحويلها إلى فيلم!

قال: لا، فأنا مثلما لم أرغب في نشرها، فإنني لم أكن لأرغب في تحويلها إلى فيلم سينمائي، لكن الذي حدث أن أحد كتاب السيناريو، ربما كان مصطفى محرم كان يعد إحدى رواياتي لفيلم سينمائي، قد يكون من إخراج علي سرحان، وقد كانت في هذه الرواية مواقف مشابهة لبعض مواقف الرواية غير المنشورة، فأعطيته المسودة التي لم يكن لها عندي فائدة، وقلت له: إذا وجدت فيها بعض المواقف التي قد تعينك على عمل السيناريو، فيمكنك أن تأخذها منها. وقد كانت هذه هي آخر علاقة لي بتلك الرواية، فلم أسترد المسودة من كاتب السيناريو ولا عرفت، إن كان قد استعان بها في السيناريو الذي كان يكتبه.

قلت: ألم تسأل السيناريست عن المسودة بعد ذلك؟

قال: لا، لأنها لم تكن تعينني في شيء، بل لقد قلت له آنذاك إذا لم تجد فيها ما يفيدك في السيناريو، فيمكنك أن تمزقها، لكنه على ما يبدو لم يفعل.

قلت: ومن ذا الذي يستطيع أن يمزق شيئاً كتبه أديبنا الأكبر بخط يده، حتى لو كان حساب بقال؟!!

قلت للأستاذ نجيب محفوظ: أعرف أن لديك مخزونًا من القصص القصيرة التي تكتبها باسم «أحلام فترة النقاهاة»، فلماذا لا تنشر منها المزيد؟

قال: لقد تجمع لديّ الكثير، لكنني لا أنشرها إلا بواقع حلمين فقط كل شهر، لأنني لا أحب أن أنشر أي عمل إلا بعد أن أتركه فترةً ثم أعود إليه بعدها لأقرأه بعين جديدة هي عين الناقد، فأعدل فيه أو أ حذف منه أو أنصرف عنه.

قلت: ألمح تحولًا وإن كان طفيفًا في موضوعات أحلامك بالمقارنة بما بدأت به قبل أكثر من سنتين.

قال: ربما كان أهم تحول فيها هو أن الأحلام بدأت تقترب كثيرًا من الواقع.

قلت: إذن فإن واقعيّتك المعهودة والتي أنجبت روائع كثيرة مثل «الثلاثية» و«زقاق المدق» و«بداية ونهاية» وغيرها قد بدأت تزحف على عالم الأحلام، فهل هناك مدارس فنية في أحلامك أيضًا، بحيث نستطيع في المستقبل تصنيف «أحلام فترة النقاهاة» فنقول هذا الحلم ينتمي إلى المرحلة الواقعية في الأحلام وذلك إلى المرحلة السابقة لها؟

قال: ربما، وإن كنت أرى أنها ما زالت في جميع الأحوال أحلامًا برغم تباين موضوعاتها، فمنطقها غير واقعي ونقلاتها هي نقلات الأحلام، حيث يمكن أن تكون في مكان فتجد نفسك فجأة في مكان آخر.

قلت: أعتقد أن هناك أيضًا مسحة صوفية تسري في جميع قصص هذه المجموعة التي قرأنا أنها ستصدر قريبًا في كتاب.

قال: إنها لم تكتمل بعد، فكيف تصدر في كتاب؟ لكنني مثلك سمعت أنها ستصدر قريبًا!

قلت للأستاذ نجيب محفوظ: نشرت الصحف أن محافظ الإسكندرية عبد السلام المحجوب قرر إطلاق اسمك على القاعة الملكية بمحطة مصر، وعلى ركن بمحطة سيدي جابر، وذلك بعد تصريحك في الأسبوع الماضي بأن عيد ميلادك الأخير ذكرك بمحطة سيدي جابر، التي كنت تصل إليها قبل لحظات من انتهاء رحلتك الصيفية في كل عام إلى الإسكندرية، والتي كانت تنتهي في محطة مصر.

قال الأستاذ: لا يسعني إلا أن أقدم الشكر والتقدير للسيد المحافظ على كل ما يفعله للإسكندرية، وعلى اهتمامه بمحطة مصر التي كثيرًا ما جلست فيها في انتظار قيام القطار الذي كان يعود بي إلى القاهرة بعد انتهاء رحلتي السنوية إلى الإسكندرية. أما في رحلتي من القاهرة، فلم أكن أمضي أي وقت بالمحطة على الإطلاق، لأنني كنت دائمًا متلهفًا للوصول إلى الإسكندرية، حيث هواء البحر المنعش وصحبة الأصدقاء.

قلت: ليست هذه المرة الأولى التي يطلق فيها اسمك على مكان عام، فهناك مثلاً قهوة نجيب محفوظ بخان الخليلي، وقهوة الحرافيش التي يحمل فيها كل ركن اسمًا من أسماء أصدقائك، وغيرهما من المقاهي التي تحمل أسماء أعمالك مثل «السكرية» و«زقاق المدق» و«بين القصرين»، فهل ارتدت هذه الأماكن؟

قال: زرت قهوة الحرافيش لكنني جلست في ركن بيرم التونسي، لأنه كان أقرب إلى الشارع، وأنا أحب جلسة الشوارع، كما كنت أذهب إلى مقهى نجيب محفوظ بخان الخليلي كلما كنت في المنطقة، فقد كان هذا المكان خرابة كنا نطلق عليه اسم «خرابة الثعابين»، لكن المهندس المعماري بدلها تمامًا. لكنني أذكر أنني كلما زرتها كان رجال الفيشاوي يختطفونني، قائلين لا يمكن أن تكون في خان الخليلي ولا تجيء إلى قهوتك الأصلية وهي الفيشاوي مهما تكن هناك من مقاهٍ تحمل اسمك أو حتى اسم جدك. وقد كان ينتهي بي الأمر إلى ضرورة زيارة الاثنتين معًا، تمامًا كمن هو متزوج من اثنتين، وكلما زار الواحدة وجب عليه زيارة الأخرى لكي يعدل بينهما. وأتمنى ألا أضطر إلى فعل الشيء نفسه ما بين محطة سيدي جابر ومحطة مصر، فإذا سافرت إلى الإسكندرية نزلت أولاً في محطة سيدي جابر لأمكث بها بعض الوقت، ثم أستكمل رحلتي وأنزل بعد ذلك في محطة مصر، لأمكث بها بعض الوقت هي الأخرى، ثم أدخل بعد ذلك الإسكندرية.

استقبل أديبنا الأكبر نجيب محفوظ الكاتبة الألمانية كريستين فون كنيزبك، التي عرضت عليه مشروعًا لتحويل روايته الشهيرة «اللس والكلاب» إلى أوبرا حديثة، وقالت الكاتبة، وهي متزوجة من مصري، إنها ستعتمد على النص العربي في وضع سيناريو وأشعار الأوبرا التي ترحو أن يتم تقديمها بالألمانية خلال الموسم القادم.

وقد عرضت فون كنيزبك التي صدرت لها عدة مسرحيات في مدينتها ميونيخ، على الأستاذ نجيب تصورًا مبتكرًا حقًا للأوبرا، حيث سيظهر العازفون على المسرح طوال وقت العرض مثل الجوقة في الدراما اليونانية القديمة، وقالت إن الأوبرا ستعتمد على الشكل الحديث، ولن تزيد مدة عرضها على ساعة ونصف الساعة.

وقالت الكاتبة الألمانية إنها قد تعرفت هي وزوجها على شاب مصري يدرس الموسيقى في مدينة سالزبورج النمساوية، اسمه حسام محمود، واكتشفت أنه ذو موهبة كبيرة في التأليف الموسيقي، فعرضت على الأستاذ نجيب أن يكون هو واضع موسيقى الأوبرا، بسبب إحساسه المصري في الموسيقى، الذي سيتناسب مع الكثير من العناصر الشعبية في القصة، خاصة منزل الشيخ الذي ستقع فيه بعض الأحداث.

وقد وافق الأستاذ نجيب من حيث المبدأ على المشروع قائلاً: إنه يكتسب معنى خاصًا في الظروف الحالية، ففي الوقت الذي تحدث فيه مواجهة لا نريدها بين الغرب المسيحي والشرق المسلم، يأتي مثل هذا المشروع كتأكيد جديد على أن الثقافة يمكن أن تكون جسرًا للتعاون والتفاهم بين الجانبين. وقد أبدى الأستاذ نجيب رغبته في ألا يقتصر عرض هذه الأوبرا على الخارج فقط، وإنما تعرض أيضًا في القاهرة حتى يستمتع بها الجمهور المصري.

سألت الأستاذ نجيب محفوظ عن ذكريات العيد، فأشار بيده إلى موضع صغير أعلى جبهته، وقال: هذه هي أقدم ذكرى. هل تراها؟ إنها أثر لجرح قديم من قرن خروف. كنت في الخامسة من عمري، وكانت عادتنا أن نشترى الخروف قبل العيد بفترة، ونقوم بتربيته فوق سطح المنزل، إلى أن يأتي موعد الذبح، لكن خلال تلك الفترة من كل عام كانت تنشأ بيني وبين الخروف علاقة حميمة، فكنت كل يوم أقوم بإطعامه وباللعب معه. وفي إحدى السنوات، وربما كنت في السادسة، تصورت نفسي فارساً مثل الفرسان الذين كنت أشاهدهم في أفلام السينما، فركبت الخروف وأمسكته بيدي من قرنيه، لكنه طرحني أرضاً وأصابني بقرنه في رأسي، ذلك هو الأثر الصغير الذي تراه أعلى جبهتي، لكنه وقتها كان جرحاً كبيراً نزف دمًا. ومع ذلك فلم تؤثر تلك الواقعة على صداقتي للخروف من سنة إلى سنة، فقد اعتبرتها من قبيل الهزار الثقيل الذي عادة ما يحدث بين الأصدقاء. فحين يُذبح الخروف كانت تلك ساعة حزينة بالنسبة لي بعد الألفة التي تنامت بيني وبينه على مدى أسابيع طويلة، وقد كان حزني يتكرر كل سنة، ولم تكن تقطعه إلا رائحة الشواء التي كنت أنسى بها حزني، وأهرع إلى المائدة مع بقية الأسرة.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: كانت إحدى فُسحي المفضلة في الصغر وقت الأعياد الخروج إلى النيل، وبرغم أنني ولدت في حي شعبي بعيد عن شاطئ النيل، فإنني تربيت على عشق النيل منذ الصغر، حتى كدت أقدمه مثل المصري القديم. فقد كانت والدتي حين تصحبني للفسحة تأخذني إلى شاطئ النيل، تمامًا كما كانت تأخذني لمشاهدة الآثار القديمة والمتاحف وأضرحة الأولياء. فقد كانت والدتي مغرمة بالخضرة والمياه، وكانت نظرتها للنيل مثل نظرتها للآثار بها مسحة من التقديس، لذلك فقد بُهرت بالنيل منذ الصغر، وما زلت أذكر كيف كنت أتدلى من سور كوبري أبو العلاء لأنفرج على تدفق مياه النيل، بينما تمسك والدتي بي حتى لا أسقط في الماء. وفي مرحلة الشباب أثناء دراستي الجامعية كانت نزهتي المفضلة في العيد أنا وأصدقائي هي الخروج في نزهة نيلية بالمراكب الشراعية في ساحل روض الفرج، وقد كنا نستأجر قاربًا كبيرًا يسع ما يقرب من عشرين شخصًا من ساعة الغروب وحتى الفجر بخمسين قرشًا، لكننا كنا نتقاسمها فيما بيننا حتى لا تكون التكلفة باهظة.

وسهم الأستاذ قليلاً ثم عاد يقول: إنني لا أفتقد الآن شيئاً بعد أن ضعف نظري ولم أعد أستطيع رؤية الأشياء البعيدة قدر افتقادي لمنظر النيل وهو يتدفق في جلال ما بين شاطئيه. وقبل أن يسترسل الأستاذ في وصفه للنيل قلت له: لست واثقًا من أنك كنت ستراه على أي حال حتى لو كنت بكامل بصرك، فكمية المباني الخرسانية التي أصبحت تحيط به كأسوار السجن صارت تحجبه عن رؤيتنا نحن أيضًا.

قال الصحفي الأجنبي الزائر للأستاذ نجيب محفوظ: إذا أردت أن توصي بقراءة خمسة كتب أدبية للقارئ، فما أهم خمسة كتب أدبية في التاريخ الإنساني؟

صمت الأستاذ قليلاً، ثم قال: يمكن أن أذكر لك خمسة كتب إذا أردت، لكني لن أكون مطمئن البال، لأنني ما إن أنتهي من ذكر هذه الكتب حتى يحضرني كتاب آخر، لأنه لا يمكن حصر الإبداع الإنساني في خمسة كتب فقط، بالإضافة إلى أنك توجه هذا السؤال لشخص أمضى حياة كاملة بين الكتب، فمن الصعوبة بمكان أن يحصر اختياراته في خمسة كتب.

ثم يضيف: إذا قبلت تحفظي هذا أقول لك إن أول كتاب يحضرني هو بالطبع القرآن الكريم، لعدة أسباب لا يعرفها إلا من قرأه بلغته العربية. فأحد هذه الأسباب هي بلاغته اللغوية والأدبية، التي جعلته في رأيي أهم عمل أدبي في اللغة العربية، بالإضافة طبعاً إلى مضمونه الروحاني السامي وقصصه الجميل، لقد كان وما زال للقرآن الكريم تأثير بالغ في وجدان كل من يتحدث العربية، سواء كان مسلماً أو غير مسلم. أما بعد ذلك، فأذكر لك مثلاً «ألف ليلة وليلة» باعتبارها من أهم القصص الروائي الذي عرفه الإنسان، وقد كان لها تأثير كبير في الآداب العالمية كلها، ثم تأتي تراجيديات شكسبير التي جسدت المأساة الإنسانية كما لم يفعل أحد قبله أو بعده، وأنا أذكرها كلها، لأنني لا أستطيع أن أفاضل بينها. ثم تأتي بعد ذلك مجموعة أعمال روائي روسيا العظام في القرن التاسع عشر، تولستوي وديوستوفسكي وتشيكوف، ويليهم كتاب عظيم في الشعر الصوفي هو ديوان حافظ شيرازي الذي كنت كلما انتهيت من قراءته بدأت فيه من جديد.

بادرني الأستاذ نجيب محفوظ وفي عينيه نظرة أسى قائلاً: لقد صدمت في وفاة ثروت أباطة صدمة كبيرة ما زلت غير قادر على تخطيها.

ثم قال: لقد كان ثروت أباطة بالنسبة لي ثلاثة، كان أولاً صديقاً عزيزاً، ثم كان أديباً كبيراً، كما كان أيضاً فارساً نبيلاً. وأول ما عرفت ثروت أباطة كان من خلال مقالاته الأدبية، وقد تصورت أنذاك من مستوى كتابته أنه كاتب كبير، إلى أن أخبرني صديقي المرحوم فؤاد نويرة بأنه ما زال طالباً بكلية الحقوق، وأذكر أنه كتب مقالاً في ذلك الوقت عن إحدى رواياتي وجدت فيه فهماً عميقاً للفن الروائي وأسلوباً جزلاً يدل على أن كاتبه أديب عظيم. وقد سعدت حين أخبرني فؤاد نويرة بأن ثروت أباطة سيأتي إلى مقهى عرابي لكي يتعرف بي، وقد كانت هذه المقابلة بداية صداقة امتدت حوالي ستين عاماً، ولم يشبها أي خلل برغم وجهات نظرنا المختلفة، سواء قبل الثورة أو بعدها، وقد كانت مقابلاتنا كثيرة، وبعد خروجي على المعاش كان لنا وقت كنا إذا لم نلتق نتحدث بالهاتف لمدة حوالي نصف ساعة نتبادل فيها الحديث عما كان كل منا يكتبه من أعمال ويبيدي كل منا فيها رأيه للآخر، أما في الصيف فكنا نلتقي يومياً، في الإسكندرية على مائدة توفيق الحكيم.

ويطرق الأستاذ مرة ثانية ثم يقول: ودارت الأيام وباعد بيننا مرضي الذي حال دون استخدامي للهاتف، ثم مرضه الذي حال في الفترة الأخيرة دون كثرة خروجه. وفي بعض الأحيان لم أكن أستطيع الاطمئنان عليه، فكنت أرسل له التلغرافات، إلى أن وصلني خبر وفاته فشعرت بأن جزءاً غالباً من عمري قد ذهب بلا رجعة. أما الأديب والفارس فلهما حديث آخر.

كان الأستاذ نجيب محفوظ قد بدأ حديثاً منذ أسبوعين عن الأديب الراحل ثروت أباطة، قال فيه إنه كان صديقاً وأديباً وفارساً. واليوم يعود الأستاذ ليتحدث عن مآثر ثروت أباطة الأديب، فيقول:

كان ثروت أباطة يمتاز عن باقي الأدباء بأسلوب غاية في الجزالة والبلاغة، وله روايات صادفت نجاحاً هائلاً مثل «هارب من الأيام» و«شيء من الخوف» سواء على المستوى النقدي أو الجماهيري. وقد كتب عنه الدكتور طه حسين وأشاد به كروائي مقتدر، ثم أصبح ثروت أباطة بعد ذلك أحد أهم الكتاب الروائيين في الوطن العربي، وكان من الأدباء القلائل الذين تخصصوا في الرواية. فمن الأدباء من له روايتان أو ثلاث، أما ثروت أباطة فكانت له كل سنة رواية جديدة. ولقد نشأ ثروت أباطة في بيت أدبي كان يسمع فيه الشعر وتدور فيه حلقات النقاش حول الأدب والثقافة، لذلك فقد تعلم الشعر منذ نعومة أظافره، وحفظ كل شعر أحمد شوقي، الذي كان يقدره أكبر تقدير وهو ما زال طفلاً، ولقد أسهم ذلك كله في تحديد مكانته الأدبية الرفيعة. ولا أستطيع القول إن ثروت أباطة أخذ حقه من النقد، فبرغم ما كُتب عنه من كتب ودراسات، فإن الكثير من النقاد كانوا لا ينظرون لإنتاجه الأدبي إلا من خلال مواقفه السياسية، وبما أنه كانت له معارك سياسية كثيرة، فقد كان بعض النقاد يسوون حساباتهم السياسية معه في مجال النقد الأدبي، صحيح أن الأدب لا ينفصل عن مواقف الكاتب ورؤيته للحياة، لكننا حين نقيم الأدب فعلينا أن نقيمه على الأسس الأدبية وحدها وليس على أساس اتفاقنا أو اختلافنا مع موقف كاتبه.

ويواصل الأستاذ نجيب محفوظ حديثه عن الأديب الراحل ثروت أباطة، فيقول: لقد كان لثروت أباطة أخلاق الفرسان من الشجاعة والمروءة والشهامة والكرم، وهي فضائل أصبحت قليلة في عالمنا، لكن كان له منها نصيب كبير جداً، ففي الشجاعة أذكر أنه حين كتب توفيق الحكيم عريضته التي بعث بها للرئيس أنور السادات احتجاجاً على حالة «اللا سلم واللا حرب» التي كانت سائدة في بداية السبعينيات، فإن ثروت أباطة غير فيها إحدى الجمل مما جعلها أشد، رغم أننا كنا نميل أنا وتوفيق الحكيم إلى أن نجنبه هو تبعات هذه العريضة، لكنه أصر على توقيعها، ومن شجاعته أيضاً أنه لم يوافق السلطة أبداً إلى درجة أنه مكث عمراً طويلاً بلا وظيفة لهذا السبب. أما مروءته فقد تعجب أن كل من كانت له حاجة من خصومه السياسيين كان يلجأ له لأنهم كانوا يعرفون جيداً أنه كان رجلاً شهماً، وقد كنت أنا شخصياً وسيطاً في الكثير من هذه المواقف التي لم يكن يتردد فيها ثروت أباطة عن تلبية حاجة من يلجأ إليه. لقد كان ثروت أباطة هو مؤسس اتحاد الكتاب، ولم يكن ذلك لمجد كان يسعى إليه، بل كان لخدمة الأدباء، لذلك فلم يكن يتردد أبداً في خدمة كل أديب مهما كان اختلافه معه في العقائد، وقد كان في معاركه السياسية يقف بالمرصاد لليسار وللتيار الديني في آن واحد، لكن ساعة الحاجة كان هو دائماً رئيس اتحاد جميع الكتاب، وقد كانت جميع الخدمات التي قدمها للاتحاد للكتاب من جهود ثروت أباطة الشخصية. لذلك أقول إن ثروت أباطة كان يتمتع بأخلاق الفرسان حقاً، وكان ذلك فريداً في عصر طغت عليه المصالح الشخصية.

كان الأستاذ نجيب محفوظ منفعلاً وهو يقول: لا أذكر أنني شعرت بالاستفزاز قدر ما استفزرت أخيراً من ذلك الهجوم الإسرائيلي الوحشي على الأرض الفلسطينية، ومحاصرة رأس السلطة الفلسطينية بهذه الطريقة المهينة، وقطع الماء والتيار الكهربائي عن مقر إقامته، ثم مطالبته بإدانة الإرهاب!

ثم رفع الأستاذ إصبعه وهو يقول: إن ما تقوم به إسرائيل هو أخطر أنواع الإرهاب، لأنه إرهاب دولة وليس إرهاب أفراد، وهو ما لا ينبغي للمجتمع الدولي أن يسكت عنه، أما ما يقوم به الفلسطينيون فهو عين الدفاع عن النفس، والاستشهاد في سبيل الوطن والحرية. إن علينا في هذا الموقف تأييد انتفاضة الشعب الفلسطيني الباسلة، ودعمها بكل الوسائل الممكنة، بعد أن أثبتت أنها الوسيلة الوحيدة للتعبير عن آمال الشعب الفلسطيني الذي ما زال يعاني ويلات واحد من أسوأ أنواع الاحتلال في عصر مضى فيه عهد الاحتلال. لقد ضاقت السبل بالفلسطينيين أمام الهمجية الإسرائيلية ولم يعد أمامهم غير الكفاح المسلح بعد أن سدت في وجوههم كل محاولات السلام، وضرب شارون بالمبادرة العربية عرض الحائط، وانتهك كل القوانين والأعراف الدولية حتى جرد حياة الفلسطينيين من كل معنى. فهل نلومهم إذا خرجوا يبحثون بالموت عن ذلك المعنى الذي فقده في الحياة؟! إن إسرائيل باجتياحها للأراضي الفلسطينية فجر يوم الجمعة الماضي قد أعلنت حرباً همجية على الفلسطينيين، تُنتهك فيها كل القوانين، لكن الفلسطينيين يملكون كل مقومات الانتصار في الوقت الذي تزداد الأوضاع سوءاً داخل إسرائيل اقتصادياً واجتماعياً ونفسياً أيضاً.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: من أشد الجوانب سلبية في تطورات الوضع الحالي في فلسطين موقف الولايات المتحدة، فهو موقف سيئ على المستوى الدولي والإقليمي والمحلي داخل الولايات المتحدة. فعلى المستوى الدولي بدت أمريكا في جانب وجميع دول العالم في جانب آخر، وذلك بالنسبة لدولة عظمى تقود العالم إنما يشكك في قيادتها، إذ كيف تقود عالمًا يختلف معها بمثل هذا القدر الذي اتضح في فلسطين. ولقد اتضح الخلاف بين أمريكا وأقرب حلفائها الغربيين، مثل بريطانيا، بما يفصح الموقف المنحاز وغير الأخلاقي الذي تتخذه أمريكا من القضية لأسباب لا تتعلق إلا بالمصالح الانتخابية لحكامها. أما على المستوى الإقليمي فإن هذا الموقف المتخاذل الذي يضعف أمام الموقف الإسرائيلي المتصلب يشكك في إمكان أن يأتي السلام عن طريق تنفيذ تعليمات رئيسها إلى إسرائيل بالانسحاب، فقد جاء باول إلى المنطقة وذهب دون أن يحصل حتى على جدول لهذا الانسحاب. وأما على المستوى المحلي داخل الولايات المتحدة، فقد أثبتت الإحصائيات أن ٦٠٪ من الشعب الأمريكي يرى ضرورة انسحاب إسرائيل من الأراضي الفلسطينية، وقد سمع الأمريكيون رئيسهم يطالب إسرائيل علنًا بالانسحاب، لكنه شاهد زعماء إسرائيل وهم يرفضون الانسحاب، فكيف تكون النظرة الآن إلى هذا الرئيس الأمريكي العاجز عن تنفيذ كلمته؟

قال الأستاذ نجيب محفوظ: إنني أرى رغم كل الفظائع التي ترتكب في حق الفلسطينيين أن الشعب الفلسطيني منتصر على إسرائيل، وأتصور أن الرعب الذي يجتاح إسرائيل الآن هو أسوأ بكثير من الخوف الذي يحيط بالفلسطينيين، فقد تستمر قوات الاحتلال الإسرائيلية في غاراتها الوحشية على المدنيين الفلسطينيين وفي إلقاء القبض على من ترى أنهم نشطاء حركة المقاومة. لكن الحقيقة أن المقاومة الفلسطينية ليست حكراً على جماعة دون غيرها، وإنما هي حركة تضم الشعب الفلسطيني كله، وقد كان هناك الكثير من الشباب والشابات ممن قاموا بالأعمال الفدائية في الفترة الأخيرة لا ينتمون لأي جماعة من الجماعات.

ثم يضيف: الإسرائيليون في رأيي في وضع الآن ميؤوس منه، فمن المنظور طويل المدى نجد أن التاريخ في جانب الفلسطينيين، إن تعداد العرب الآن داخل إسرائيل حوالي ٢٠٪ من السكان، وفي عام ٢٠٥٠ سيكون ٥٠٪، أما إسرائيل في ظل سياستها الحالية فهي قوة استعمارية واستيطانية مضى عصرها وهي تعمل الآن ضد حركة التاريخ.

ثم يضيف الأستاذ: إن علينا أن نتخطى التطورات اليومية للأحداث بما فيها من صعود وهبوط، وننظر إلى المسألة نظرة تاريخية لأن تلك النظرة هي التي ستسود في النهاية، فأن يفرج عن عرفات أو أن تحاصر مدينة الخليل، فتلك كلها تفاصيل تتوالى صعوداً وهبوطاً، لكنها كلها منتظمة في خط بياني واحد تحدد حركة التاريخ ومساره، وهذا المسار يفضي في النهاية إلى صعود الجانب الفلسطيني وانتصاره.

قلت للأستاذ نجيب محفوظ: لقد عبرت في رواياتك عن أهم الأحداث الوطنية التي شهدتها البلاد خلال القرن العشرين من ثورة ١٩١٩ إلى انفتاح السادات، فهل تعتقد أن الأديب عليه مسؤولية خاصة في التعبير عن وطنه؟

قال: بلا شك، لكن المسألة تختلف درجاتها من أديب إلى آخر، فهناك من الأدباء من يهتم بالشأن العام، وهناك من لا يأتي هذا الشأن عنده في المرتبة الأولى من الاهتمام، أما أنا فقد كنت أهتم بالقضايا الكبرى للأمة، لذلك فحين قررت أن أكون أديباً كانت عليّ مسؤولية خاصة تجاه قضايا الوطن.

قلت: الأحداث التي نشهدها الآن في فلسطين، والتي انفعَل بها الشعب العربي كله، متى تصبح مصدر إلهام للأديب؟

قال: إنها مسألة زمن يسمح للحدث بأن يختمر في وجدان الأديب، إن الأحداث الجسام التي نشاهدها الآن في فلسطين ليست بحاجة إلى أديب أن يكتب عنها وإنما هي تحتاج إلى من يشارك فيها، فهذا هو وقت الفعل، لأن الأدب وقت وقوع الحدث هو ترف، أما بعد أن يكتمل الحدث فهو التاريخ الوجداني لهذا الحدث. وحين تحدثت أنا عن ثورة ١٩١٩ كان ذلك بعدها بما يقرب من ٥٠ عاماً، أما وقت حدوثها فقد كنت بداخلها مع بقية الشعب المصري، فوقت الفعل لا يستطيع أحد أن يجلس إلى مكتبه لكي يكتب رواية أو مسرحية، أما الكتابات التي تتابع الأحداث يوماً بيوم، فقد تكون نشيداً مثلاً أو أغنية تواكب الأحداث. لكن العمل الكبير الذي يخلد الحدث فهو بحاجة إلى مسافة زمنية كافية، فمثل هذا الحدث إنما يرقد على صدر الأديب ويصبح قوة ضاغطة تحتاج إلى انفراج لا يأتي إلا مع الوقت، وأنا أتصور أن هناك أدباً عربياً وفلسطينياً يختمر الآن في وجدان الأدباء، وسيخرج إلينا في حينه إن شاء الله بعد أن يتحقق النصر.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: يقلقني موضوع العراق وما يمكن أن يتعرض له الشعب العراقي من أهوال بسبب الحرب التي تريد شنها الولايات المتحدة، وأنا لا أرى كيف يمكن في سبيل تغيير النظام العراقي أن نشن حرباً يذهب ضحيتها الآلاف من المدنيين الأبرياء، إنها حرب لا ضرورة لها على الإطلاق، فالأمريكيون أنفسهم يعترفون بأن صدام لا يملك القنبلة النووية في الوقت الحالي، وأنه يمكن أن يمتلكها في المستقبل، لكن ذلك ينطبق على كل دولة في العالم، فكل دولة يمكن بعد بضع سنوات أن تمتلك القنبلة النووية، فهل يعني ذلك أن ندور نلطش في دول العالم كلها؟ ثم من الذي يقوم بهذا التلطيش؟ إنه من يملك القنبلة النووية بالفعل، ويمتلك حلفاؤه أيضاً، مثل بريطانيا وإسرائيل القنبلة النووية. أما أن صدام حسين قد سبب أذى للعراق، فهذا شيء قديم يسبق غزوه للكويت، لكن أحداً آنذاك لم يتحرك، بل إن من يريدون ضربه الآن هم الذين كانوا يمدونه بالسلاح في ذلك الوقت. وإذا كان من يريدون ضرب العراق يقولون إنهم يفعلون ذلك درءاً للموت والدمار الذي يمكن أن يسببه صدام، فمن الذي سيدراً غداً الموت والدمار الذي ستسببه حربهم ضده. إن العالم ليس في حاجة إلى مزيد من الحروب، وقيمة القوة الكبرى في العالم ودورها الحقيقي ليس في شن حرب جديدة، وإنما في استخدام إمكانياتها وقدراتها التي لا تدانيها قوة للحيلولة دون وقوع هذه الحرب.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: لست أعرف من الذي يمكن أن يستفيد من شن حرب على العراق؟ فالعراق نفسه لم يعد يحتمل تدميرًا أكثر مما أصابه طوال أكثر من عشر سنوات الآن، والدول العربية قد تضطرب فيها الأحوال إذا قامت حرب في العراق، لأن مثل هذه الحرب ستؤثر كثيرًا في الاستقرار في المنطقة، وضرب الاستقرار قد يؤثر بدوره في المصالح الأمريكية في الدول العربية، لأن هذه المصالح في هذه الحالة ستصبح هدفًا للغضب الشعبي في كل شارع عربي. صحيح أن أمريكا بدخولها العراق ستستولي على منابع البترول فيه، لكن ثمن ذلك سيكون فادحًا إذا نال من بقية مصالحها التجارية والدبلوماسية في المنطقة، إضافة إلى خسائرها في الأرواح التي يُحسب لها ألف حساب داخليًا في الولايات المتحدة. ثم أن يأتي ذلك كله في وقت تستعد فيه الحياة السياسية الأمريكية للانتخابات التشريعية ويضع الرئيس بوش عينيه من الآن على انتخابات الرئاسة القادمة في العام بعد القادم، فإن مثل هذه المغامرة غير المحسوبة قد تكون لها آثار وخيمة. ويرفع الأستاذ إصبعه وهو يقول: ليس هناك من مستفيد من تلك الفوضى التي ستولدها حرب العراق إلا إسرائيل، فالاستقرار في الدول العربية ليس من مصلحتها. والفوضى التي أوجدتها في الأراضي الفلسطينية منذ قيام حكومة شارون يبدو أن أمريكا ستتكفل بتعميمها في المنطقة كلها، فقد كنا نعتمد على الولايات المتحدة كي تكبح جماح إسرائيل، والآن نبحت عن يكبح جماح الولايات المتحدة.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: أعجب من ظاهرة غريبة في حياتنا هي غياب كتب كبار مؤلفينا من السوق، فالكتاب، على ما يبدو، يُطرح في الأسواق عند بداية صدوره ويتم توزيعه، فإذا تيقنت منه نسخ ظل في متناول جمهور القراء حين يريدونه، أما إذا نفذ، فلا يكون متاحًا بعد ذلك في الأسواق. وهذا وضع غريب شكّا لي منه عدد من كبار كتابنا المرموقين، والذين يتمتع بعضهم بسمعة دولية، صحيح أن الكتاب سلعة، لكنه ليس سلعة عادية تحقق الغرض منها حين يتم بيع الكمية المنتجة، وإنما هو خدمة فكرية وثقافية ينبغي أن تكون متوافرة طوال الوقت. فكيف تبحث مثلاً عن رواية لـيوسف السباعي أو مجموعة قصصية لإحسان عبد القدوس، فلا تجدها، وحين تسأل عنها يقال لك إنها رواية قديمة صدرت في الستينيات. هل يمكن أن تبحث عن رواية لمارجريت دوراس في فرنسا أو عن مسرحية لآرثر ميللر في أمريكا، فيُقال لك إنها صدرت في الماضي ولا وجود لها الآن؟ بالطبع لا. أما عندنا، فالكتاب هو سلعة لها - في ظن البعض - عمر افتراضي لا يُعاد إنتاجها بعد انقضائه مثل أي منتج قديم لا يعاد إنتاجه، لأن هناك دائماً منتجاً آخر أكثر حداثة، ولقد آلمني هذا الوضع ألماً كبيراً لأنه أشعرتني بأني أمضيت حياتي أنتج سلعة كان لها عمر افتراضي، ربما يكون الآن قد انقضى.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: لست أعرف لماذا ننظر إلى آثارنا القديمة باعتبارها شيئاً خارجاً على حياتنا الحالية، وكأنه ينتمي إلى مجتمع آخر وليست له أي علاقة بمجتمعنا الحالي؟! إن من ينظر إلى حياتنا، بما فيها من عادات وتقاليد يجد أننا لم نتغير كثيراً عن أجدادنا القدامى، حتى في بعض عاداتنا الدينية التي هي أقرب إلى المجتمع المصري القديم، ولا تمارس في المجتمعات الإسلامية الأخرى. إن المسؤول عن ذلك هو تربيتنا المدرسية التي لا تقدم الحضارة المصرية القديمة للطالب إلا باعتبارها إحدى العجائب، ولا تؤكد التواصل معها، وحتى حين يتم ترتيب زيارات لأماكن الآثار، فهي زيارات شبه سياحية إلى عوالم أخرى كانت في السابق ولم يعد لها الآن وجود. وأنا ما زلت أذكر كيف كانت والدتي تأخذني وأنا طفل صغير لزيارة هذه الآثار، سواء المصري القديم منها أو القبطي والإسلامي، فقد كنت أذهب معها لزيارة الأهرامات أو بعض الكنائس القبطية القديمة، كما أذهب لزيارة أولياء الله الصالحين، ولذلك تعودت على أن تلك جميعاً من مكونات تراثنا الحضاري. ولقد تواصلت زياراتي بعد ذلك للآثار، حين دخلت المدرسة، لكنني كنت أنظر إليها نظرة تختلف عن نظرة زملائي، لأنني كنت قد زرتها قبل ذلك، بينما كانوا هم ينبهرون لعجائبها، وكأنما هي «عجبة» وليست جزءاً من تاريخنا الماضي وحياتنا الحالية. لذلك فقد حرصت بعد ذلك على أن أذهب مع أولادي إلى هذه الأماكن حتى يتعرفوا عليها في السن المبكرة، فيشبهوا مدركين أنها جزء لا يتجزأ من حضارتهم في كل عصر وزمان.

سألت الأستاذ نجيب محفوظ: ماذا يعني القلم بالنسبة لك؟

قال: القلم هو شيء يوازي روعي تمامًا، فحياتي كلها كانت مرتبطة بالقلم صعودًا وهبوطًا، فالقلم هو الذي كان يرتفع بي إلى أعلى، حين كان يعبر عما يجيش بنفسي، وهو الذي كان يهبط بي حين كنت أناجيه فلا يستجيب. وأذكر أن هذه كانت حالي منذ بداية حياتي، ففي مقتبل العمر كان حلم حياتي أن يُنشر لي شيء، أي شيء حاملاً عبارة «بقلم فلان»، وقد زاد من ارتباطي بالقلم أنني لم أعرف في حياتي وسيلة أخرى للكتابة غير القلم، فلم أستخدم الآلة الكاتبة مثلاً، ولا استبدلت بالقلم بعد ذلك الكمبيوتر، ولم ألبأ إلى الإنترنت. إنما القلم كان دائماً هو وسيلتي، وهو الطريق الذي يربط بين ما يعتل في نفسي وبين الحياة، وحين أصبت في حادث الاعتداء عليّ وقلت قدرتي على استخدام ذراعي اليمنى لفترة لم أتمكن من الإمساك بالقلم، لكنني مع ذلك لم أستطع أن أستبدل به وسيلة أخرى حتى لو كانت الإملاء. فقد تعودت التفكير بقلمتي، ومن دون القلم لا تأتي الأفكار، من دون القلم تظل الورقة بيضاء، لأن القلم كان هو إصبعاً سادساً في يدي، إذا تم بتره عجزت يدي عن الكتابة، لذلك فقد كان القلم دائماً هو حياتي ومتعتي، وهناك بيني وبينه قرابة أبدية.

وسكت الأستاذ قليلاً، ثم عاد فقال: إنني أحزن كثيراً حين أسمع عن الوسائل الحديثة التي يقال إنها ستحل محل القلم، إن ذلك بلا شك تطور علمي نسعد له، لكنني أحزن أن تقل قيمة القلم أو يذل.

وسألت: حين تكتب، هل القلم هو الذي يقودك أم أنت الذي توجهه؟

قال: القلم هو مجرد وسيلة، لكنني أكون مخطئاً لو قلت لك إنني أوجهه كيفما شئت، فإن القلم كيان خاص، وهو كثيراً ما يعصي أوامري، فأبقى ممسكاً به ساعات طويلاً لا يستجيب فيها لإرادتي، لكنه في ساعات أخرى يجود عليّ بأجمل الكلمات وبأسمى المعاني.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: كانت معرفتي بالفيلسوف الراحل عبد الرحمن بدوي معرفة سطحية وحذرة، ذلك أنه كان إنسانًا له أسلوب خاص في الحياة، ليس فيه مجال للود المتبادل بين الناس، لقد كان عبد الرحمن بدوي راهبًا في محراب الفلسفة، ولم يكن يميل إلى الاختلاط بالناس أو إضاعة وقته في مجاملتهم، ولم تكن الناس تتقبل ذلك بسهولة. وأذكر أن أحد الأصدقاء الذين كانوا يجلسون معنا في كازينو الأوبرا وكان اسمه الشيخ عجلان قد لمح ذات مرة عبد الرحمن بدوي سائرًا أمام الكازينو، فحياه، لكن عبد الرحمن بدوي كعادته اكتفى بأن أوماً إليه بإشارة من بعيد، دون أن ينطق بكلمة ترد التحية، فما كان من الشيخ عجلان الذي استاء كثيرًا لهذه المعاملة إلا أن سبه وجرى في إثره يريد ضربه، وظل الاثنان يجريان أمامنا في ميدان الأوبرا، الواحد وراء الآخر. ولقد كنت ألتقي بعبد الرحمن بدوي في منزل المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق، فقد كان عبد الرحمن بدوي من تلامذته المقربين، وكنت كثيرًا ما أزور الشيخ مصطفى، وألتقي بعبد الرحمن بدوي هناك. أما بداية تعرفي بعبد الرحمن بدوي، فكانت في أثناء الدراسة بالجامعة، فقد كنت في السنة الرابعة بقسم الفلسفة بآداب القاهرة، وكان هو في السنة الثالثة، وكنا ندرس التحقيق معًا على يد البروفيسور كراوس، لذلك كنا نلتقي أسبوعيًا في هذا الدرس، ولقد مات كراوس بعد ذلك منتحرًا وهو ما زال شابًا، بينما شب عبد الرحمن بدوي ليصبح واحدًا من أكبر من حققوا النصوص الفلسفية في عصرنا الحديث وما قدمه من ترجمات ومؤلفات هي علامات مهمة في مكتبتنا الفلسفية. وقد كرس سنواته الأخيرة للدفاع عن الإسلام، فهاجم كل المستشرقين الذين كان لهم موقف من القرآن أو من الرسول - صلى الله عليه وسلم.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: كانت هناك نزعة أدبية في الأربعينيات والخمسينيات لاستخدام اللغة العامية بدلاً من لغة القرآن الفصحى، وكان الشيوعيون أكثر من يتحمسون لها، وحين بدأت الكتابة بالروايات الفرعونية، لم يكن لديّ مشكلة، فقد كان طبيعياً أن يكون الحوار بين الشخصيات التاريخية في الرواية باللغة الفصحى. لكنني حين بدأت المرحلة الواقعية، كان أتباع هذا الاتجاه يوجهون إليّ بعض النقد، قائلين: كيف تتكلم شخوص عصرية لغة لا يتكلمها أحد في عصرنا الحديث؟ وكانوا يرون أن يكون الحوار في الرواية باللغة العامية، وإن كان البعض في ذلك كتب رواية كاملة باللغة العامية، مثل محمد عفيفي ومصطفى مشرفة، ومن الغريب أن بعض النقاد الأجانب انضموا إلى هذا الاتجاه، وكنت أقول لهم إن الرواية، سواء كانت بالعامية أو الفصحى، فهي حين تترجم ستأتي بلغة واحدة، لا اختلاف فيها. وبالرغم من ذلك فقد صممت أنا على اللغة الفصحى حتى في حوار الشخصيات، لكنها فصحى لا تختلف كثيراً عن روح العامية، بما لا يخل بواقعية الرواية، ولقد تخلل هذا الحوار بعض الكلمات العامية، لأنه لا مرادف لها في الفصحى، لذلك كنت أعتبرها جزءاً من اللغة العربية الفصحى.

قلت للأستاذ نجيب محفوظ: لقد ظللت تكتب أدبًا طوال ما يزيد على ستين عامًا تعاملت خلالها مع أنظمة سياسية مختلفة، تأرجح فيها هامش حرية التعبير ما بين المنح والمنع، لكنك في جميع الأحوال عبرت عن موقفك، فماذا كانت وسائلك في ذلك؟

قال: أولاً يجب أن يكون للأديب موقف يعبر عنه، ثم يجب عليه بعد ذلك أن يكون على استعداد لتحمل تبعات هذا الموقف في كتاباته، وبعد ذلك لن يعدم الأديب وسيلة للتعبير عن هذا الموقف، فهناك عصور اتسمت بهامش كبير في حرية التعبير وأخرى ضاق فيها هذا الهامش إلى حد كبير. قلت: وكيف تعاملت مع هذا النوع الأخير؟

قال: بالتحايل، وأنت تعلم كل وسائل التحايل والإيحاء والرمز والكتابة بين السطور، وهذا التحايل أفضل للأديب من أن يكذب أو يخون أمانة الكلمة بينه وبين القارئ. كما أن مثل هذا الأسلوب قد يبعد الأديب عن المباشرة التي يسقط فيها البعض، حين تكون لديه الحرية الكاملة، سواء بسبب اتساع هامش حرية التعبير أو لتوافق موقفه مع الموقف الرسمي، لكن لديه في جميع الأحوال التزامًا بأن يقول كلمته وفق قناعاته، وإلا فلا تصبح له قيمة ولا لما يكتبه قيمة، خصوصًا أن عنده مندوحة. فإذا لم يكن على مستوى الصراحة، ولا هو قادر على التحايل، فليكتب في موضوعات بعيدة تمامًا عن أي شبهة سياسية.

قلت: قد يوحي هذا الكلام بأن قيمة الأديب هي فيما يقدمه من رسالة، وليس في موهبته الفنية. فرد الأستاذ على الفور: إن الرسالة هي جزء من القيمة الفنية، ففي الفن المعنى والتعبير عنه، لا ينفصلان عن بعضهما البعض، لأن الشكل والمضمون لا ينفصلان، فالشكل يؤثر في المضمون، والمضمون يحدد الشكل، وتلك هي الخاصية التي تميز الفن عن كل ما عداه.

سألت الأستاذ نجيب محفوظ: كيف حال الأحلام التي تصوغ منها قصصك الحالية، والتي تحمل اسم «أحلام فترة النقاهاة»؟

قال: إن الأحلام في بعض الأحيان لا تأتي على الإطلاق، فأنا أصحو من النوم غير قادر على تذكر أي من الأحلام التي عشتها أثناء نومي، وتلك ظاهرة تفلقتني بعض الشيء، رغم أنني أعرف أنني قد حلمت، لكنني غير قادر على تذكر هذا الحلم، وبالتالي أجدني غير قادر على كتابة هذا الحلم، كما أفعل الآن.

ثم يصمت الأستاذ قليلاً ليعود فيقول: إنني ما زال لديّ رصيد كبير من الأحلام التي كتبتها، والتي لم تُنشر بعد، لكن ما يقلقتني هو غروب الأحلام التي كانت مصدر إلهامي في السنوات القليلة الأخيرة.

قلت: قد تكون الأحلام قد استنفدت أغراضها كمصدر للإلهام، وسيتحول إلهامك الآن إلى شيء آخر.

قال: إن شعوري هو أن الأحلام لم تتركني بعد، وإنما هي تتعزز فقط لأنني لا أوليها الاهتمام الكافي، حيث إن فكري منشغل في الوقت الحالي بأشياء كثيرة، وربما حين أهدأ ويعود فكري إلى الاستقرار ستعود الأحلام من جديد.

قلت: لقد مرت عليك من قبل فترات توقف عن الكتابة، لكنك تخطيتها رغم أنها دامت سنين. قال: في الفترة التي تشير إليها كنت قد فقدت تمامًا الرغبة في الكتابة الأدبية، أو حتى في القراءة الأدبية، لكنني الآن ما زالت عندي الرغبة في الكتابة، كل ما هنالك هو أن مصدر الإلهام يداعبني قليلاً.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: طريق الأديب إلى الإبداع طريق خاضع للاوعي، ولتأثر الكاتب بما حوله من حوادث وأحداث، وللحظة التاريخية التي يمر بها، ولموهبته ولتقلباته المزاجية، ففي فترة قد يجد الأديب طريقه معبداً وسلساً، وفي فترات أخرى قد يجد الطريق وعراً مليئاً بالعقبات. قلت: لقد مررت أنت بفترة مثل تلك الأخيرة دامت خمس سنوات كاملة توقفت فيها تماماً عن الكتابة.

قال: كان هذا ما بين عام ١٩٥٢ وعام ١٩٥٧، وأعتقد أن السبب في ذلك كان يتعلق بموقفي الشخصي من الحياة وأحداثها، أي باللحظة التاريخية وموقفي منها. ففي ذلك الوقت قامت ثورة يوليو وبدأت تهدم النظام الاجتماعي القديم، الذي سبق أن هاجمته في أعماله الأدبية، ومن ثم لم يكن من الممكن أن أستمّر في الطريق نفسه، فأهاجم شيئاً لم يكن موجوداً، وفي الوقت نفسه كان المجتمع الجديد ما زال يتشكل أمامي، وكان بحاجة إلى دراسة، وقد كانت لديّ قصص عن المجتمع الذي انهار، لكنني وجدت أن الاستمرار فيها يصدق عليه المثل القائل بأن الضرب في الميت حرام. وهكذا توقفت وتصورت أنني قد أنهيت مهنتي كأديب، فاتجهت إلى السينما وسجلت نفسي في نقابة المهن التمثيلية ككاتب سيناريو، ثم بعد سنوات شعرت بأن هناك شيئاً بداخلي عاد يتحرك من جديد، وسألت نفسي: هل وجداني الأدبي سيعود إلى الحياة من جديد؟ وتماديت في هذا الإحساس. وكانت فرحتي بأول رواية كتبتها بعد هذا التوقف لا تقدر، كانت أكثر رواية فرحت بمولدها طوال حياتي الأدبية.

قلت: وماذا كانت هذه الرواية؟

قال: «أولاد حارتنا».

قلت للأستاذ نجيب محفوظ: تغير أسلوب حياتك في السنوات الأخيرة بسبب ظروفك الصحية، فما هي أكثر الأشياء التي صرت تفتقدها الآن؟

قال على الفور: أفقد أشياء كثيرة، أولها بالطبع القراءة، حيث لم أعد أستطيع القراءة المتواصلة لساعات، كما تعودت طوال حياتي، وإنما أعتمد في ذلك الآن على من يقرأ لي عناوين الصحف اليومية وبعض مقالاتها، وهناك أشياء أخرى كثيرة أفقدها، وإن كنت لا أستطيع ترتيبها حسب الأهمية، لأنها جميعاً كانت مهمة بالنسبة لي. منها مثلاً الاستماع للموسيقى ومشاهدة المعارض التشكيلية، فالموسيقى مثلاً كانت جزءاً لا يتجزأ من حياتي، وكنت أهواها بمختلف أنواعها، شرقية وغربية وحديثة وكلاسيكية، وقد أصاب أذني ما جعلني غير قادر على الاستماع إلى من يحدثني إلا إذا رفع صوته بالفقر اللازم، لكنني غير قادر إطلاقاً على الاستماع للموسيقى مهما يعلو صوتها. وقد قيل لي إن ذلك خلل في خاصية معينة في حاسة الاستماع تؤثر في الموسيقى ولا تؤثر في الكلام. ثم إن الفن التشكيلي أيضاً كان من الأشياء التي كنت أحرص على متابعتها، وقد تابعت الكثير من رواد الفن المصريين منذ بداياتهم، ثم يأتي بعد ذلك اهتمامي بالمرح والسينما، وقد كنت حريصاً على كل منهما فلم يكن يفوتني عرض مسرحي مهم ولا فيلم سينمائي.

ثم يقول: الحقيقة أن البركة الآن في أصدقائي، فهم الذين يعطونني فكرة أولاً بأول عما يجري في هذه المجالات الفنية، فقد يقرأون لي نصاً أدبياً قصيراً أو يحدثونني عن معرض تشكيلي مهم، أو يروون لي قصة فيلم سينمائي، أما الموسيقى فتلك لا يستطيع أن ينقلها إلي أحد، ولذلك فإن افتقادي الآن للموسيقى كبير.

قلت: فيما يتعلق بالموسيقى ستجد كثيرين يحسدونك، فإن ما يقدم لنا الآن على أنه موسيقى قد يكون من الأفضل عدم سماعه!

قال الأستاذ نجيب محفوظ: تعودت طوال حياتي على المشي، فلم أشأ أن أمتلك سيارة، لأن المشي كان بالنسبة لي متعة تكاد تضارع متعة الفن، فلم يكن المشي مجرد تدريب رياضي وإنما كان حركة تحرك الفكر وتطلق الخيال، ومن ثم كان بالنسبة لي وسيلة لتنشيط الإبداع. ولقد مشيت في جميع شوارع القاهرة على مدى عشرات السنين، خاصة القاهرة القديمة، التي كنت أعرفها حارة حارة. لكن طريقي الذي كنت أمشيه كل صباح كان يبدأ في حوالي السادسة صباحًا من شارع النيل بالعجوزة - حيث أقيم - عبورًا إلى جزيرة الزمالك، فشارع الجبلية الذي أصبح اسمه شارع أم كلثوم، ثم أخترق حديقة الزهرية، مرورًا بحديقة الأندلس، إلى كوبري قصر النيل، حتى أصل إلى مقهى علي بابا بميدان التحرير بعد حوالي ساعة، كنت أستمتع فيها بالهواء النقي في الصباح قبل التلوث الذي تحدثه السيارات، وكانت فرصة لي للتأمل والتفكير. وأنا لم أنقطع عن المشي، لا في الصيف، ولا في الشتاء، ولا في أيام العمل، ولا في الإجازات، وفي مقهى علي بابا كان يومي يبدأ بقراءة الجرائد وتناول قهوة الصباح، ثم أذهب إلى عملي إن كان اليوم يوم عمل أو أعود إلى البيت إن كان اليوم إجازة، فأمضي بعض الوقت في الكتابة والقراءة، مستعينًا بصفاء الذهن الذي جاءني من المشي.

قلت للأستاذ نجيب محفوظ: لقد كتبت كثيرًا عن الفتوة في أعمالك الأدبية، والآن يبدو أن هذه الظاهرة قد انتقلت إلى ساحة السياسة الدولية، فالكثير مما نراه الآن من القوى العظمى يبدو أقرب إلى البلطجة السياسية.

فقال على الفور: لا، إن الفتوة عندي لم يكن دائمًا بلطجيًا. لقد كان في الكثير من الحالات هو الذي يحمي الحارة وينتصر لأهلها، فكلمة الفتوة تنطبق في الحقيقة على عدة أنواع من الشخصيات، أحسنهم هو الفتوة الشهم والشجاع الذي ينصف المظلوم ويتصدى لكل من يهاجم الحارة وسكانها، وقد كان السكان من رجال ونساء وأطفال وشيوخ جميعًا مرتبطين به، فهو المدافع عنهم دائمًا، وقد كانت بين الحوارية فيما مضى معارك ومنافسات، فكان الناس ينحازون في أي معركة إلى حارة أو أخرى، مثل الانحياز الآن للأهلي أو الزمالك، فهؤلاء قد يقفون مع حارة العطوف وأولئك مع حارة الحسيني. لكن للأسف إن كلمة الفتوة اتسعت دلالتها بعد ذلك لتتطبق على صنف رديء جدًا من البشر هو البلطجية، والبلطجي يفرض سيطرته بالقوة وبالتهديد، وبالاعتداء غير المشروع على الناس، وذلك طمعًا في موارد الآخرين وأموالهم التي يحصل عليها بالقوة وبالتهديد. فقد يتوعد أهل الحارة ويهدد بضربهم، وقد يحاول بقية السكان الإمساك به حتى لا يؤذي البشر لكن دون جدوى. إن هذا النوع الأخير هو الذي نجد بعض مواصفاته أمامنا الآن على الساحة الدولية، أما الفتوة الحقيقي فهو غير ذلك تمامًا.

سألت الأستاذ نجيب محفوظ عن مكانة الشعر في حياته الأدبية وهو الروائي العربي الكبير، لكن ماذا كانت علاقته بالشعر؟

قال: العلاقة بين الأدب والشعر علاقة وثيقة، فأعظم الأعمال الأدبية هي تلك التي تقترب في طبيعتها من الشعر، وهناك نظرية تقول إن الأدب كله يطمح إلى حالة الشعر، والشعر من الناحية التاريخية هو عنوان الأدب، وحين نعود إلى أصول الآداب كلها - عربية كانت أو غربية - نجدها كانت في الأصل شعراً، مثل المسرح الذي بدأ بالشعر، وحين انتقل إلى النثر كان ذلك ثورة كبرى. أما في حالتي الشخصية فقد عرفت الأدب على أنه الشعر، وحتى حين كنت أقرأ كتباً في غير الأدب، مثل كتاب «الكامل» للمبرد، وهو في النحو، لكنه يستشهد بأبيات شعرية، فإن ما كان يهمني من قراءاتي كان هو هذه الاستشهادات والحقيقة أنه لو كانت لي ذاكرة حافظة، لكان عندي الآن مخزون شعري عظيم جداً لأنني قرأت آلاف الأبيات الشعرية. وكنت في مطالعاتي للتراث أنتقي بعض المختارات الشعرية، وكنت أدونها في كراسة خاصة أحتفظ بها، وكلما أردت أن أروِّح عن نفسي قرأت ما قد تقع عليه عيني في هذه الكراسة: أبو العلاء المعري أو البحتري أو أبو نواس أو غيرهم، ومما أسف له الآن أنني لم أعد قادراً على استعادة هذه الأشعار بعد ضياع الكراسة، وبعد عجزني عن القراءة.

سألت الأستاذ نجيب محفوظ: ألم تكتب الشعر أبدًا في حياتك؟

قال: لقد حاولت كتابة الشعر وأنا في سن المراهقة، وربما كنت آنذاك في السنة الأولى بالمرحلة الثانوية، وكانت لي كراسة ملأتها بالشعر الذي كنت أكتبه والذي في معظمه لم أكن أستطيع وزنه، لذلك فقد اعتبرت نفسي من المجددين في الشعر. لأنني سبقت كل المجددين بهذا الشعر المكسور، ومع ذلك فقد كانت به بعض الأبيات الجميلة الموزونة، لكنها كانت الاستثناء، أما الباقي فكان كله مما لم أَرْضَ عنه. فأنا من عشاق الشعر، خاصة الشعر العربي القديم، لذلك لم تكن ترضيني تلك المحاولات الصبائية الأولى في حياتي، وأذكر في تلك السنوات من صباي كتابًا كان مقررًا علينا في الدراسة وأعتقد أن اسمه كان «المختار» وكان الذي جمعه هو الدكتور طه حسين والشيخ السكندري، كان هذا الكتاب يضم مقتطفات من أعمال جميع شعراء العربية من أجهل الجاهلية إلى العصر الحديث، وكانت تصاحب هذه المختارات الشعرية نبذة عن الشاعر وحياته. ولقد احتفظت بهذا الكتاب مدة طويلة، وأذكر أنني قمت ذات مرة بعمل مختاراتي الخاصة من هذا المختار، وكنت أدونها في كراسة مستقلة وأعود إليها كما يعود الإنسان لسماع موسيقى معينة يهواها كلما استطاع.

ويواصل الأستاذ نجيب محفوظ حديثه عن الشعر في مراحل حياته المختلفة، فيقول: بعد سنوات الصبا التي عشقت فيها الشعر وحاولت كتابته اتسعت دائرة اهتمامي بالشعر، فبدأت أقرأ للشعراء الأجانب، وأذكر على وجه التحديد ديوان الشاعر الفرنسي الكبير شارل بودلير «زهور الشر»، الذي كانت له ترجمة عربية عظيمة، لست أعرف لماذا لا يعاد طبعها هذه الأيام، فهذا الديوان هو من أمهات الشعر في العالم ويجب أن يكون متوافراً لشباب اليوم. كذلك قرأت في شبابي الشعر الصوفي بجميع اتجاهاته وكان يستهويني كثيراً شعر جلال الدين الرومي الذي كنت أحفظ له الكثير من أبياته، كما قرأت أيضاً رباعيات عمر الخيام بترجمتها، تلك التي كتبها أحمد رامي والأخرى التي قام بها السباعي، وقد كانت ترجمة رامي هي الأدق، لأن رامي كان يجيد الفارسية أما ترجمة السباعي فكانت في نظري الأجل. واستمر معي هذا الاهتمام بالشعر في سنوات النضج حتى بعد أن أفلعت تماماً عن كتابته.

قلت: لكنك في رواية «الشحات» كتبت بعض الشعر على لسان بطل الرواية.
فرد ضاحكاً: لقد قال لي الدكتور عبد القادر القط آنذاك إنه كان أجدر بي أن أستعين بأحد الشعراء، لكتابة هذه الأشعار.

قلت للأستاذ نجيب محفوظ: نشرت الصحف الدولية أن أول طفل مستنسخ ستم ولادته في مطلع العام القادم، فما رأيك في هذا الموضوع؟

قال: إنه بلا شك خبر مثير، فلا نهاية لفتوحات العلم، وأنا مع ترك الحرية كاملة للتجارب العلمية لأن فيها بلا شك فائدة للإنسان، وإنني أعجب من الدول التي تحظر استنساخ الإنسان، ومن بينها الولايات المتحدة نفسها، لأن ذلك ليس تدخلًا في إرادة الله، فلا أحد من البشر يقوى على ذلك، وخلق الإنسان لا يستطيعه إلا الله وحده. ومن يتصورون أن الاستنساخ هو مساوٍ للخلق لا يعرفون طبيعة هذه العملية العلمية التي تعتمد على التلقيح من بويضة شخص بعينه، أما جعل الحياة تدب في المخلوق الجديد فلا يتم في المعامل وإنما في رحم الأم وبإرادة الله وحده.

قلت: قرأنا أخيرًا أنك لا تمنع في استنساخك.

قال: إذا كان ذلك مفيدًا، وإن كنت لا أدري إن كان الإنسان هو نتاج للجينات الخلقية وحدها والتي تحملها بويضة، أو هو محصلة أيضًا للتجارب الحياتية التي يعيشها، خاصة في طفولته. فقد كانت لدى هتلر على سبيل المثال، ميول فنية معروفة في صباه، فهل إذا تم استنساخه سيثب هذه المرة دكتاتورًا أم فنانًا تشكيليًا؟ التجربة العملية وحدها هي التي تملك الإجابة.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: يأتي عيد الفطر هذا العام والفلسطينيون هم وحدهم الذين يستحقون التهنئة بالعيد، فهم الجزء الوحيد في الجسد العربي الذي ينبض الآن بالحيوية، وهم يؤكدون لنا وللعالم ببطولتهم العظيمة في مقاومة الاحتلال أن الأمة العربية ما زالت حية ترزق وأنها قادرة على المقاومة إذا أرادت. وذلك يأتي في وقت نشكو فيه من التراخي العربي والعجز شبه الكامل عن مواجهة التحديات الحديثة التي نواجهها في ظل ما يُسمى بالعولمة ومحاولات السيطرة الأمريكية على مقدرات الشعوب، كما كان يحدث في عصر الإمبراطوريات الاستعمارية الغابرة، والذي تصورنا أن الإنسانية قد تخطته إلى عصر جديد من الديمقراطية والحرية والوثام الدولي. فقد انتهى عصر الحرب الباردة بين القوتين العظميين، لا يفسح المجال للسلام الدولي المرتقب، والذي عادة ما يعقب الحروب، وإنما ليبدأ مرحلة عودة إلى سيطرة قوة واحدة على مقدرات العالم ومحاولتها فرض قوتها العسكرية والسياسية والاقتصادية على جميع بقاع الأرض. إن مثل تلك السياسة ستؤدي بلا شك إلى قيام مقاومة محلية في جميع المواقع التي ستمارس فيها القوة الكبرى سيطرتها، وينبغي علينا أن ننظر إلى المقاومة الفلسطينية الحالية من خلال هذا المنظور، فهي في التحليل الأخير محاولة لتأكيد الهوية الوطنية في وجه قوة خارجية تريد طمسها وفرض هيمنتها عليها. فتحية للفلسطينيين، وكل عام وهم بألف خير.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: ثلاثة أشياء ارتبطت عندي بالعيد في سنوات الطفولة؛ أولها الجنيه الذهب الذي كان يعطيه لي والدي، وثانيها كعك العيد، وثالثها البدلة الجديدة. أما الجنيه فكانت فرحته غامرة، رغم أنه كان لا يساوي في ذلك الوقت إلا ٩٧.٥ قرش فقط، بينما كان الجنيه الورقي جنيهاً بحق وحقيقي يساوي ١٠٠ قرش بالتمام والكمال، لكن قيمة ذلك الجنيه لم تكن في قيمته الشرائية بقدر ما كانت في ذهبه اللامع وفي ما كان يرمز إليه من مناسبة سارة ليست كباقي أيام السنة، أما الآن وقد اقتربت قيمة الجنيه الذهب من الـ ٥٠٠ جنيه، كما سمعت، فإن فرحة ذلك الجنيه الآن لا بد قد تضاعفت. أما كعك العيد، فقد كنا نتباهى ونحن أطفال بكعك والدتنا أمام الأصدقاء، وكان كل منا يعزم على الأصدقاء بالكعك، فكنا نتذوق كعك البيت وكعك الأصدقاء حتى تمتلئ بطوننا. وقد كنت أهوى الكعك، لكنني أقلعت عنه منذ عشرات السنوات حين أصبت بمرض السكري، فمنعني الأطباء من تناوله، ومن يومها لم أذق طعمه ثانية. وأما بدلة العيد، فكانت تبيت في حزننا ليلة العيد، وكانت لها رائحة الملابس الجديدة التي لم تكن تفارقني طوال أيام العيد، وما زلت أذكر البدلة التي جاءتني في العيد حين كان عمري حوالي عشر أو اثنتي عشرة سنة، فقد ظلت معي وقتاً طويلاً، وارتبطت عندي دائماً بالعيد، لذلك احتفظت بها إلى أن بليت. كل ذلك زال الآن وتبدل ولم يعد العيد يختلف عن باقي أيام السنة، فلا كعك، ولا ملابس جديدة، ولا عيديّة، ولا خروج مع الأصدقاء للاحتفال، فهكذا الحياة نقلع فيها عن جميع المتع، متعة وراء الأخرى، إلى أن تذهب جميعاً فنعلم أنه قد آن أوان الرحيل.

كنا في غرفة الجلوس بمنزل الأستاذ نجيب محفوظ، حيث كان يستقبل ضيفته الكبيرة كاتبة جنوب أفريقيا نادين جورديمر حين دق جرس التلفون، فذهبت السيدة عطية الله حرم الأستاذ نجيب للرد عليه، وعادت لتقول إنه أحد الصحفيين الأمريكيين الذي يقول إنه على باب المنزل، فهل يمكن أن يدخل ليحضر لقاء عملاقي الأدب الفائزين بجائزة نوبل؟

واندهش كاتبنا الكبير، وقال: لكني لم أدع أحدًا لحضور هذا اللقاء.

وقالت نادين جورديمر: لقد طلبت مني الإذاعة البريطانية «بي بي سي» تسجيل هذا اللقاء فرفضت، حتى لا أفسد تلقائيته.

وتعجب الأستاذ: إذن من الذي أخبره؟

فقالت نادين جورديمر: إن بعض الناس يتصورون أننا نحن الكتاب يجب أن نكون في متناول كل من يريد اقتحام خلوتنا، سواء بدق الباب علينا أو بإزعاجنا بالتلفون أو غيره، بينما نجد رجال الأعمال مثلاً تحيطهم السكرتيرات وأفراد الحراسة، بحيث لا يستطيع أحد أن يصل إليهم.

فضحك الأستاذ وقال: لقد كان بعض المارين في الشارع حين يعرفون أن هذا بيتي يدقون الباب، قائلين إنهم يريدون النقاط صورة تذكارية مع الأستاذ، لكن ذلك كان في الماضي، فصحتي اليوم لم تعد تحتتمل ذلك.

فقالت نادين جورديمر: الغريب أن الناس تنتظر منا بعد ذلك كله أن نكتب، وحين نتأخر قليلاً يسألوننا: لماذا لم تصدروا رواية جديدة هذا الشهر؟

ثم صمتت قليلاً وعادت تسأل الأستاذ: متى كنت تكتب يا مستر محفوظ؟

قال لها: في الصباح الباكر، دائماً في الصباح الباكر.

فلمعت عيناها وهي تقول: أنا أيضاً، لم أكن أستطيع الكتابة في المساء أو إلى ساعة متأخرة من الليل، كما يفعل البعض، بل أكتب دائماً في الصباح، وعندئذ أرفع سماعة التلفون ولا أجب على جرس الباب.

ونحن على أبواب انتخابات برلمانية جديدة تحدث الأستاذ نجيب محفوظ عن الانتخابات في الماضي، فقال: إن الشعب المصري ليس غريباً على الانتخابات، فقد مارسها طويلاً بحلها ومرها وعرف الانتخابات الحرة، كما عرف تلك التي لم تكن كذلك، لذلك فأنا لست مع من يقولون إن الانتخابات الحرة هي شيء جديد على الناس، فالناس لها خبرة في هذا المجال، وهم يعرفون على الفور إن كانت الانتخابات حرة أم لا؟

قلت: وكيف كنتم تعرفون ذلك في الماضي؟

قال: في الماضي لم تكن تلك مشكلة، فالانتخابات إذا فاز فيها حزب الوفد، فذلك كان يعني أنها انتخابات حرة، أما إذا فاز فيها حزب آخر، فذلك كان دليلاً على أنه حدث فيها تلاعب، ولكن حتى قبل ظهور النتيجة كنا نعرف إن كانت الانتخابات حرة أم لا؟ ففي الانتخابات الحرة لم تكن قوات الأمن تتدخل على الإطلاق، بل كانت تقف ساكنة لا تتحرك إلا حماية للناس، لكن في العملية الانتخابية ذاتها كان وجودها محايداً تماماً، وكنا نذهب للإدلاء بأصواتنا، كلٌّ في دائرته، في حرية كاملة.

قلت: وهل كان الناس في الريف يعرفون كيف يتعاملون مع الانتخابات الحرة؟

قال: بالطبع، وقد أثبتوا ذلك أكثر من مرة، وعلى سبيل المثال فقد تمكن الفلاحون من إسقاط الدسوقي أباطة باشا في دائرته، وانتخبوا بدلاً منه مرشحاً وفدياً، رغم أن الدسوقي باشا كان إقطاعياً كبيراً، وكان يمتلك أراضي هؤلاء الفلاحين.

قلت للأستاذ نجيب محفوظ: أنت دائم الحديث عن سعد زغلول ومصطفى النحاس، وأيام حزب الوفد، حتى إنك لا تتحدث عن سعد إلا وتدمع عيناك، لكن في عالمنا اليوم ماذا بقي من تراث الوفد؟

قال: لقد تربينا على مبادئ مهمة يجب ألا تتغير، مثل مبدأ الوحدة الوطنية الذي هو العنصر الحافظ لهذه الأمة على مدى السنين، لقد حاول الاستعمار أن ينفذ إلينا من خلال التفارقة بين عنصري الأمة لكنه فشل. وكتب اللورد كرومر في مذكراته أنه وجد الفرق الوحيد بين المسلم والمسيحي في مصر هو أن الأول يصلي في الجامع والثاني في الكنيسة، ثم هناك مبدأ آخر متصل بالوحدة الوطنية، وهو أن الدين لله والوطن للجميع، وهذا يؤكد فصل الدين عن الدولة، وهو ما قامت عليه الحكومات المتتالية طوال تاريخ مصر، أو في المجال الخارجي. فهناك مبدأ الاستقلال الوطني، وهو مبدأ يكتسب أهمية خاصة في عصرنا هذا الذي تسيطر فيه قوة عظمى واحدة على العالم وتعطي نفسها حق التدخل في شؤون الآخرين ويتصل بهذا المبدأ جانبه الداخلي، وهو التحرر من حكم الفرد وهو ما نسميه الديمقراطية. ولقد جد علينا اليوم جديد وهو أن القوة العظمى أصبحت تطالب بالديمقراطية في الوقت الذي كان فيه الاستعمار في السابق يعارض ذلك، وهنا فلا يجب أن نرفض الديمقراطية لمجرد أن الولايات المتحدة تطالب بها، بل يجب أن يكون موقفنا في ذلك ثابتاً، فالديمقراطية هي مطلب وطني أصيل تربينا عليه منذ ثورة ١٩١٩.

قلت: ألم تضيف الأيام في رأيك أي مبادئ جديدة لما تربي عليه جيلكم؟

قال: بل أضافت، وأهم ما أضافته هو حقوق الإنسان، لكنها إضافة تنفق تماماً مع مبادئ الوفد وما كان يمثلته طوال تاريخه.

تطرق حديث الصحفي الأجنبي إلى تحرير سيناء وقصة مصر مع الغزاة، فقال الأستاذ نجيب محفوظ: إن لمصر وضعًا خاصًا بين الأمم، فهي أقدم الحضارات، وقد جاءها الغزاة بالجيوش والأساطيل، فغزتهم هي بالحضارة لأن حضارتها كانت دائمًا أقدم وأعرق من حضارة من غزاها، وإن قدرة مصر وصلت إلى حد استيعاب كل من غزاها، فأصبح الغزاة في الماضي يتشبهون بها، ويتخذون من عاداتها، بل من دياناتها عادات وديانات لهم. ولم تكن هذه هي الحال في التاريخ القديم فقط، وإنما أيضًا في العصر الحديث، فمثلما كانت الحال مع البطالمة الغزاة الذين صاروا بعد ذلك مصريين فكانت كليوباترا آخر ملوكهم، كانت الحال أيضًا مع ذلك العسكري الألباني محمد علي الذي استقل بمصر وحكمها هو وأبناؤه طوال ١٥٠ سنة، وكان آخرهم الملك فاروق الذي خلعتة ثورة ١٩٥٢. فمن ذا الذي يستطيع أن يقول إنهم لم يكونوا مصريين؟ إن محمد علي هو الذي أخرج المصريين من ظلمة التاريخ إلى نور الحياة العصرية، ورفض الشعب للملك فاروق في نهاية عهده لم يكن من منطلق أنه أجنبي، ولكن بسبب فساد حكمه.

ثم اختتم الأستاذ حديثه قائلاً: هذه هي مصر التي تتمتع بسحر خاص لا يستطيع أن يتحدث عنه إلا من عرفه، في مصر تاريخ البشرية كله، وقد احتضنت كل حضارات العالم في أمومة واضحة، فكانت هي أم الحضارات جميعًا.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: لقد توقفت كثيرًا أمام فكرة البرلمان العربي التي طرحت في القمة العربية الأخيرة بالجزائر، إن تلك صيغة معمول بها في إطار الاتحاد الأوروبي، لكنني أتمنى أن يجيء البرلمان العربي معبرًا عن الشعوب العربية، وليس عن الحكومات العربية. صحيح أن تلك ليست الصيغة التي يقوم عليها البرلمان الأوروبي، لكن الحكومات الأوروبية تعبر كل منها عن شعبها، لأنها منتخبة ديمقراطيًا، أما عندنا فهذه ليست هي الحال في الكثير من الدول العربية. ولما كانت الجامعة العربية هي جامعة للدول وليست للشعوب العربية، فقد يكون من المفيد استخدام صيغة البرلمان العربي هذه للتعبير عن الشعوب العربية، فنحقق بذلك التوازن بين الحكومات والشعوب داخل الجامعة.

ويفكر الأستاذ قليلاً ليعود، فيقول: إنني أتصور أن تجرى انتخابات حقيقية في كل الدول العربية يختار بمقتضاها كل شعب من يمثلونه في البرلمان العربي، وأن يجيء هذا البرلمان في النهاية معبرًا عن هذه الشعوب ويكون بذلك مراقبًا للدول الأعضاء في الجامعة. ثم يضيف: إنني أحلم أيضًا بأن يكون لزامًا على الدول الأعضاء أن تعرض قراراتها ومشروعات قراراتها على هذا البرلمان، كي يكون البرلمان العربي هو السلطة التشريعية العربية المشتركة، فهل هذا ممكن أم أنني قد تماديت كثيرًا في أحلامي؟

قال الروائي الصحفي الفرنسي المولود في مصر روبير سوليه للأستاذ نجيب محفوظ: إنك أنت الحكاء الأكبر في عالمنا الآن، فقد ظللت تحكي لنا القصص طيلة الجزء الأكبر من القرن العشرين، وما زال العالم حتى الآن يستكشف بعض روائعك من خلال الترجمة. فقال الأستاذ: لكن مدرسة الرواية الجديدة عندكم في فرنسا تخلصت من الحدوتة على يد رائدها آلان روب جرييه وناتالي ساروت وغيرهما، فرد سوليه: كان ذلك في أواسط القرن الماضي، وقد مضى الآن عهد الرواية الجديدة، وأصبحت «موضة قديمة» (نطقها بالعربية)، وعاد الناس الآن يتوقون إلى سماع الحكايات، وهذا هو سبب رواج الرواية الآن في فرنسا وأحد أسباب إقبال الناس على أعمالك العظيمة.

ثم يسأل سوليه الأستاذ نجيب محفوظ: ألا تعتقد أن الرواية يجب دائمًا أن تروي قصة؟ فيقول: القصة هي أساس الفن الروائي ومحاولات اتباع الرواية الجديدة أفادت الفن الروائي بلا شك، حتى إن لم يتبعها الجمهور، لأنها تدخل في باب التجريب الفني المفيد للكاتب الروائي، لكن سحر الحكاية لا يقاوم.

ويختتم سوليه حديثه قائلاً: إنك أنت لم تحد أبدًا عن الحكاية حتى في أعمالك الجديدة متناهية القصر التي تكتبها الآن باسم «أحلام فترة النقاهاة» التي صدرت أخيرًا بالفرنسية، حيث الحلم لا يزيد على فقرة أو فقرتين، لكنه قد يقدم قصة حياة كاملة.

سألت الأستاذ نجيب محفوظ عن قراءاته باللغات الأجنبية، فقال: إنه قرأ أناتول فرانس بالفرنسية، وتصور لبساطة أسلوبه أنه قد امتلك ناصية اللغة الفرنسية، فذهب إلى رواية «مدام بوفاري» لجوستاف فلوبيير فوجد نفسه مضطراً للجوء إلى القاموس عند كل كلمة، حتى أصبحت كل صفحة من الكتاب تقابلها صفحة أخرى من القاموس.

ويضيف الأستاذ: لذلك فحين قررت قراءة مارسيل بروست وبلزاك ذهبت مباشرة إلى الترجمات، فقرأت الأول باللغة الإنجليزية وقرأت الثاني في ترجمته العربية، كما قرأت أيضاً راسين وكورني باللغة العربية، أما مولير فقد قرأت بعض أعماله بالفرنسية والبعض الآخر باللغة العربية.

وسألت الأستاذ: ما الكتب التي قرأتها لأناتول فرانس في لغتها الأصلية؟

فقال: «الزنبقة الحمراء» و«تاييس» و«العلبة الصدفية» و«الآلهة عطشى»، بالإضافة إلى كتب أخرى من خارج مجال الأدب، خاصة كتب الفلسفة، فقد كان لدينا في قسم الفلسفة بكلية الآداب أستاذ فلسفة يدعى مسيو كوريه، وكان أستاذاً من «السوربون» بفرنسا، هذا الأستاذ كان يدرس لنا الفلسفة باللغة الفرنسية، وكانت الكتب التي يقررها علينا بالفرنسية أيضاً. وهكذا أصبح من الأسهل عليّ أن أقرأ كتب الفلسفة والكتب الأخرى غير الأدبية بالفرنسية، أما الكتب الأدبية فإن لغتها تحتاج إلى حصيلة لغوية عالية.

أخذت هدية الأستاذ نجيب محفوظ وذهبت إليه أهنته بعيد ميلاده الـ٩٣، وما إن جلست إليه حتى عادت السيدة حرمه من احتفال الجامعة الأمريكية بعيد ميلاده، حاملة معها هدية الجامعة، وهي إصدار جديد يحمل اسم «Dreams»، وهو الترجمة الإنجليزية لـ«أحلام فترة النقاهاة» التي تنشرها حاليًا مجلة «نصف الدنيا»، لكنها لم تصدر بعد في كتاب باللغة العربية، وقد نُشرت بالفرنسية في العام الماضي من دار «لو روشه» العريقة وحقت مبيعات كبيرة.

ويعتبر كتاب «الأحلام» هو الكتاب رقم ٢٩ من سلسلة الترجمات الإنجليزية التي أصدرتها دار نشر الجامعة الأمريكية لأعمال أديبنا الأكبر متضمنة «الثلاثية» ككتاب واحد، وقد قام بترجمتها رايموند ستوك الذي يعكف منذ سنوات على كتابة تاريخ حياة أديب نوبل الكبير.

وبينما أخذ الأستاذ يتفحص كتاب «الأحلام» الصادر بالإنجليزية، ويقلمه بين يديه دق جرس الباب ودخل الأستاذ محمد حسنين هيكل مع المهندس إبراهيم المعلم رئيس دار الشروق لتهنئة الأستاذ بعيد ميلاده. وفوجئ الأستاذ بالزيارة، فعانق ضيفه طويلاً، ثم أخذ الرجلان يستعيدان ذكرياتهما معاً منذ ما يزيد على أربعين عامًا، وبعد أن انتهت زيارة الأستاذ هيكل قال لي الأستاذ نجيب محفوظ: لقد كانت تلك الزيارة هي هديتي الكبرى.

سألني الأستاذ نجيب محفوظ عن سعر النسخة من كتاب «أحلام فترة النفاهة» الذي أصدرته الجامعة الأمريكية بالإنجليزية. فقلت خمسون جنيهًا. فصمت ولم يعلق. فسألته: كم كان سعر أول كتاب صدر لك يا أستاذ نجيب؟

قال: أول رواية صدرت لي كانت «عبث الأقدار» وكان سعرها «قرش صاغ واحد»، فقد تسلمت من الناشر ٥٠٠ نسخة، كانت هي أجري عن الكتاب، والحقيقة لم أعرف ماذا أفعل بها، فوضعتها على الحنطور وذهبت إلى أول مكتبة صادفتها، وعرضت الكتب على صاحبها، فرأف بحالي وقيل أن يأخذ الكتب بسعر قرش صاغ واحد للكتاب على أن يدفع لي ذلك كلما بيعت نسخة، وظللت أمر على المكتبة، متصورًا أنني سأتسلم بضعة قروش في كل زيارة ثمن ما تم بيعه من نسخ، لكنني اكتشفت بعد فترة أن صاحب المكتبة وضع الكمية بالكامل في المخزن ولم يعرضها، لأنها «ليس لها سوق».

ثم يواصل الأستاذ حديثه قائلاً: لكن بعد ذلك بسنوات، وبعد أن كنت قد أصدرت رواية «خان الخليلي» اكتشفت بالصدفة أن رواية «عبث الأقدار» معروضة بالمكتبة، وبسعر آخر يزيد على ما سبق أن عرض عليّ، لكنه مع ذلك ظل صاحب المكتبة لا يدفع لي إلا ما اتفقنا عليه، وهو قرش صاغ واحد عن كل نسخة.

وجدت الأستاذ نجيب محفوظ صامتاً حزيناً، فسألته عما به، فقال: لقد رحل عن عالمنا ناشر كبير، كان له فضل لا ينكر على نشر الأدب والثقافة منذ الأربعينيات والخمسينيات الماضية وحتى الآن، إنه سعيد جودة السحار صاحب «مكتبة مصر» وقد ربطتني علاقات وثيقة بشقيقه الأصغر الكاتب الراحل عبد الحميد جودة السحار، الذي كان يأتي إلينا في مقهى عرابي مع بعض الأصدقاء، وكنا جميعاً مؤلفين لا يجدون وسيلة لنشر أعمالهم، وأنا على سبيل المثال كنت أكتب الرواية وأقوم بتبويضها، ثم أودعها درج مكتبي، لكن عبد الحميد جودة السحار فكر أن ينشئ ما سماه «لجنة النشر للجامعيين»، ولولا وجود شقيقه الأكبر سعيد معه في هذا المشروع ومساندته له لما وُجد المشروع. فالفضل في إنشاء هذه اللجنة يعود بالدرجة الأولى إلى سعيد جودة السحار رحمه الله، الذي أفرج أزمة النشر عند جيل كامل من الأدباء هو الجيل الذي ننسب إليه، ومنه عادل كامل وعلي أحمد باكثير، وأمين يوسف غراب، وغيرهم، رغم أن مثل هذا المشروع لم يكن مربحاً، إلى درجة أننا اتفقنا في ذلك الوقت على ألا يتقاضى أيُّ منا أي أجر على الكتاب الأول، فإذا نجح الكتاب وتم نشر كتاب ثانٍ كان للمؤلف أجر. وأذكر أن أول ما نشرت عندهم كانت رواية «رادوبيس» ثم «كفاح طيبة» ثم «خان الخليلي»، إلخ، وكانت بعض دور النشر الأخرى قد عرضت عليّ بعد نوبل أن أنشر عندهم بشروط أفضل، لكنني لم أستطع أن أنسى فضل آل السحار عليّ في بداية حياتي، فلم أتركهم حتى الآن.

علق الأستاذ نجيب محفوظ على الأحداث الجارية، فقال: لقد نشأنا في جو يختلف تمامًا عما أسمع به اليوم، لقد كان الأقباط أحد الأسس التي قام عليها حكم سعد زغلول والنحاس، كانت الوحدة الوطنية إحدى جبهاتنا القوية في المعركة من أجل الاستقلال والتحرر. وكانت لذلك أمثلة عظيمة، فالوزارة على قلة عددها في ذلك الوقت كانت تضم عددًا لا بأس به من الأقباط، فكان وزير الخارجية قبطيًا، وكان وزير المالية قبطيًا، ورئيس مجلس النواب «محطم السلاسل» كان قبطيًا، لكن ذلك لم يكن تأكيدًا لقبطيتهم، بل كان تأكيدًا لمصريتهم فقط، فقد روى لي صديقي المرحوم إبراهيم باشا فرج على سبيل المثال أن النحاس كان قد رشح قبطيًا في إحدى الدوائر التي لا يمثل فيها الأقباط نسبة كبيرة، فقال له المرشح: لماذا لا ترشحنى يا باشا في شبرا؟ فهناك أعداد أكبر من الأقباط الذين قد يعطونني أصواتهم. فقال له النحاس لأنى لا أريد لك أن تدخل البرلمان كقبطي، بل كمصري، وبالفعل تم انتخاب المرشح ودخل البرلمان بفضل أصوات المسلمين الذين كانوا الأغلبية في دائرته. ورغم أن منافسه في الانتخابات كان مسلمًا، فقال له النحاس: الآن أنت نائب للأمة كلها، وليس للأقباط وحدهم، تلك هي الوحدة الوطنية، أما تقسيم الناس إلى أقباط ومسلمين وتعيين كل منهم ليمثل طائفة، فذلك إنما يؤكد التفرقة بين الجانبين ولا يزيلها.

ثم ينهي الأستاذ حديثه قائلاً: لقد كانت الوحدة الوطنية المصرية مثار إعجاب وحسد الزعيم الهندي غاندي الذي قال إن مصر لا بد ستنتصر في معركتها من أجل الاستقلال بفضل وحدتها الوطنية.

أخذنا حديث الذكريات بعيدًا، فسرّح الأستاذ نجيب محفوظ قليلًا، ثم عاد ليقول: لقد كانت الأفكار تتدافع في رأسي في الماضي، وكنت أدونها في كراسة صغيرة، خشية أن تهرب مني، وقد كانت كل فكرة منها تصلح لكتابة رواية، أي أن كلاً منها كانت بمثابة بذرة صغيرة يمكن أن تتحول إلى شجرة، لكن مثل كل البذور هناك منها ما ينمو بالفعل ويصبح شجرة باسقة، وهناك ما يظل بذرة مهما طال به الزمان. قد يكون ذلك لأنها لم تلقَ العناية الواجبة من التربة الصالحة أو الماء العذب، وقد يكون لأنها بذرة فاسدة من الأساس لا يمكن لها أن تنمو وتترعرع، لكنني لم أكن أعرف ذلك آنذاك، فقد كانت لديّ أفكار كثيرة وكنت أتصور أن مشكلتي هي فقط الوقت، لذلك كنت أدون الفكرة ثم أبحث لها عن الوقت المناسب. ولقد تجمع لديّ عدد من هذه الكراسات، وأذكر أن واحدة منها كانت تضم ٤٠ قصة من التاريخ المصري القديم تصلح كل منها لأن تتحول إلى رواية أدبية، لكنني لم أكتب منها إلا ثلاث روايات فقط، وظل باقي القصص مجرد أفكار في كراسة لم تتبلور في رواية. إن عملية الإبداع الفني لا تعتمد فقط على الفكرة، فالأفكار كثيرة، لكنها تعتمد أكثر على لحظة الصفاء التي تتدافع فيها الكلمات لتصوغ عملاً فنيًا جديدًا قد يلتزم بالفكرة التي ولدته، وقد يشطح بعيدًا عنها إلى أفاق جديدة لم يكن الكاتب يتصورها.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: تأثرت جدًّا لما أُلِمَّ بياسر عرفات من تدهور في صحته، فياسر عرفات ظل لأكثر من ٤٠ عامًا الآن هو التجسيد الحي لثورة الشعب الفلسطيني، ولذلك فبرغم أي خلافات حول سياساته أو أي تناقضات مع أعوانه، فإن غالبية الشعب الفلسطيني تظل دائمًا معه هو وليس غيره. وستظل النقطة الخلافية في حياة عرفات هي ما يتهم به من أنه أضعاف فرصة تاريخية للتوصل إلى تسوية، بعدم قبوله ما كان معروضًا عليه وقت حكومة إيهود باراك في إسرائيل. ولكن علينا أن نتذكر أولاً أنه لو كان قد قبل هذا الاتفاق لفقد حياته بسبب ما انطوى عليه الاتفاق من تنازلات ربما كان أهمها هو التنازل عن حق العودة. إن السياسة هي «فن الممكن» وهي لذلك تقوم على التنازلات من الجانبين من أجل التوصل إلى حل وسط، لكن عرفات في هذا الموقف لم يكن سياسيًا بل ظل مخلصًا لثورته. وقد نتذكر بعد حرب ١٩٦٧ أن الرئيس الراحل جمال عبد الناصر كرجل دولة قبل قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ الذي يعترف ضمناً بإسرائيل، بينما رفضته منظمة التحرير الفلسطينية، ومن المعروف تاريخياً أن الطرفين بعد فترة جفاء قصيرة تفهم كل منهما موقف الآخر. إن ياسر عرفات حين يدخل التاريخ بعد عمر طال أو قصر، لن يدخله كرجل دولة قادر على التفاوض والتوصل إلى اتفاقيات، وإنما سيدخله كبطل ثوري نجح كما لم ينجح غيره في تجسيد آمال الشعب الفلسطيني وثورته ضد ضياع الوطن.

سألت مندوبة وكالة رويتر في فرانكفورت الأستاذ نجيب محفوظ: والآن وقد استقبل الغرب العالم العربي في معرض فرانكفورت الدولي للكتاب، فإنه يعن لنا أنك كنت أول من وضع الأدب العربي المعاصر على الخريطة العالمية بفوزك بجائزة نوبل عام ١٩٨٨، فهل تشعر بأن نظرة العالم إلى الأدب العربي تغيرت بسبب ذلك؟

فقال: كل ما أستطيع أن أقوله هو أن العالم أصبح أكثر وعياً بالأدب العربي الحديث، لقد كان القارئ الغربي المهتم يعرف أن الأدب العربي له تاريخ عريق يعود بنا قبل العصر الإسلامي، لكنه كان يجهل الأدب الحديث، ولا شك في أن حجم الأعمال الأدبية العربية التي تُرجمت إلى اللغات الأجنبية بعد نوبل والتي تزيد كثيرًا عن القليل الذي كان يُترجم من قبل قد أسهم في زيادة الوعي العام بالأدب العربي الحديث.

ثم قالت المراسلة الألمانية: إن معرض فرانكفورت يأتي كخطوة تالية على طريق لقاء الغرب بالثقافة العربية، لكنه يأتي والعلاقة بين الجانبين في أدنى مستوياتها.

فرد الأستاذ بسرعة: ربما كانت تلك هي أهمية هذا اللقاء، فنحن أشد ما نكون حاجة الآن إلى حوار إنساني بين الشرق والغرب، حوار يتحدث لغة الأدب والفن والفكر لا لغة السيوف والقنابل، ومثل هذا الحوار لا تقدر عليه إلا الثقافة. وإذا كانت الثقافة العربية هي ضيف الشرف هذا العام في أكبر معرض للكتاب في العالم، فهذا هو إحقاق للحق من جانبكم ووجودنا في المعرض هو الدليل على أننا لسنا ما يصوره البعض، وإنما نحن أصحاب ثقافة ثرية وحضارة عريقة، وأننا قادرون على الحوار.

تطرق الحديث مع الأستاذ نجيب محفوظ إلى قضية السلام، فقال: إن السياسة وحدها لا تصنع السلام، وإنما الثقافة هي التي تصنعه، فالسلام لا يأتي بقرار سياسي يصدر من أعلى قائلاً للناس إنه قد أصبح الآن هناك سلام، إنما يجب أن تتغير نظرة الناس إلى الآخر ومن ثم ينعكس ذلك على الفكر والثقافة، فينشأ السلام. لكن علينا أن نتذكر أن السلام ليس عملية منفردة يمكن أن يقوم بها طرف واحد من جانب واحد، وإنما عملية مشتركة، ما لم يشارك فيها الطرفان فهي لن تتحقق، ومهما صدر من قرارات سياسية تعلن السلام سياسة رسمية للدولة، فإن الناس ستظل ملتزمة بمواقفها السابقة، ولن ينعكس مثل هذا السلام على ثقافتها. أما في ظل الوضع السليم للسلام، فسندج أن لكل من الفنون والآداب والفكر والثقافة دورًا في السلم بالدعوة ومخاطبة الوجدان وبالتصدي للظلم في العلاقات بين الدول.

ثم قال الأستاذ: وحين يتحقق ذلك، سنجد أن هناك أدوارًا أخرى في خدمة قضية السلام يجب أن يضطلع بها كل من التعليم والإعلام، فالتعليم يعمل على تربية جيل جديد مؤمن بقضية السلام ورافض لدعوى التعصب والعنصرية وقابل لوجود الآخر والاعتراف بالاختلاف، كما أن الإعلام عليه دور كبير في مناهضة الظلم في الحياة اليومية ونبذ التطرف والإرهاب في العلاقات بين الناس.

وأسأل الأستاذ نجيب محفوظ عن لحظات الحزن في حياته، فيقول: إن أول مواجهة له مع الحزن كانت، على حد قوله: وفاة سعد (قاصداً سعد زغلول)، لكنه مثل بقية أفراد جيله ممن تربوا على حب هذا الزعيم، لا يشير إليه أبداً إلا باسمه الأول كما يفعل المرء مع المقربين إليه. قلت: لقد أخبرتني أن أول محطة للسعادة في حياتك كانت عودة سعد من المنفى. قال: نعم، فإن أفراسي تبدأ بسعد وأحزاني أيضاً. قلت: وغير سعد.

قال: الأحزان كثيرة في الحياة، فهناك رحيل والدتي الذي أثر فيّ كثيراً رغم أنني كنت قد تخطيت الخمسين، وهناك هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ فقد كانت طعنة كبيرة، كذلك حزنت كثيراً عند وفاة النحاس باشا الذي كان قد توارى عن الحياة العامة قبلها بسنوات، لكن ذكره كانت حية في قلوبنا، وخرجت الجموع لتوديعه، كما أثر فيّ أيضاً مصرع أنور السادات، وقد كان الحزن هنا مقترناً بالصدمة.

ثم يختتم حديثه قائلاً: وأنا لا أستطيع أن أتحدث عن لحظات الحزن في حياتي دون أن أتوقف عند رحيل أم كلثوم وعبد الوهاب اللذين كان لهما تأثير كبير على تشكيل وجدان أكثر من جيل.

ويواصل الأستاذ نجيب محفوظ حديثه حول محطات السعادة في حياته، فيقول: كان تأميم قناة السويس عام ١٩٥٦ إحدى أهم محطات السعادة في حياتي وفي حياة الشعب المصري، فقد شعرنا بأننا نسترد ما هو لنا بعد سنوات طويلة من الاغتصاب، لقد كانت خيرات هذا البلد تذهب جميعها إلى الأجانب وقت الاستعمار، ولم يكن هناك للمصريين إلا الفتات، ثم جاء التأميم، ليؤكد لنا وللعالم أجمع أن البلد بلدنا، وأنه لن يتم استغلالنا بعد اليوم. كذلك كانت الفرحة أيضاً في أكتوبر ١٩٧٣ حين عبرنا نفس القناة التي سبق تأميمها، لكنها اغتصبت ثانية هذه المرة بالاحتلال الإسرائيلي. لقد كانت فرحة أكتوبر هي الفرحة الكبرى في حياتي، ولذلك فقد كان لها تأثير كبير على أعمالي، وأنا أعتبر أن «ملحمة الحرافيش» رد فعل مباشر على انتصار أكتوبر، وهي من أكثر أعمالي تفاؤلاً. ولا أستطيع أن أتحدث عن محطات الفرح في حياتي دون أن أتوقف عند نوبل، فقد كانت فرحتها كبيرة حقاً وربما أكثر من أي فرحة أخرى، وذلك لأنها كانت فرحة مزدوجة، فقد جاءت تتويجاً لحياتي الأدبية على المستوى الشخصي، واعترافاً بالأدب العربي على المستوى الوطني، فأنا لا أعتبر نوبل جائزة شخصية فقط، فقد منحت الجائزة للغة العربية وتاريخها الأدبي العريق، وذلك لأول مرة منذ إنشاء الجائزة في بداية القرن العشرين، لذلك كانت فرحتها بالنسبة لي فرحتين.

ويتوقف الأستاذ نجيب محفوظ عند إلغاء معاهدة ١٩٣٦، فيقول: أذكر جيداً أنني كنت خارجاً من دار سينما راديو بوسط البلد، حين سمعت الناس تهلل فرحاً بنبأ إلغاء المعاهدة، الذي أعلنه مصطفى النحاس في وزارته الأخيرة التي جاءت عام ١٩٥٠، لقد كان النحاس هو الذي وقع المعاهدة، لكن مع مرور السنوات اتضح أن بريطانيا ليست جادة في احترام التزاماتها التي نصت عليها المعاهدة، وبدأ الناس يشعرون بأن توقيع المعاهدة كان مجرد تهدة للشعور الوطني في مصر من جانب المحتل البريطاني، ولذلك فحين أعلن النحاس إلغاءها كان تأييد الشعب عارماً. ويصمت الأستاذ قليلاً ليعود، فيقول: لكن الإنسان كثيراً ما تتغير نظرتة للأشياء مع مرور الوقت، وحين أنظر الآن إلى إلغاء المعاهدة فإني لا أشعر بتلك الفرحة التي غمرتني عند إعلان إلغائها، إلى درجة أنني لا أستطيع الآن أن أجزم أن هذا الإلغاء كان في مصلحة البلاد. فقد ترتبت على الإلغاء نتائج وخيمة، ووجدنا أنفسنا في مأزق شديد، وقد كان حريق القاهرة في يناير ١٩٥٢ أحد تداعيات هذا الوضع، لكنني مع ذلك أعد إلغاء المعاهدة من بين محطات الفرحة في حياتي وفي حياة الأمة، لأننا وقتها شعرنا جميعاً بالفرح، حيث وجدنا في تلك الخطوة الجريئة ردّاً قوياً على التسوية البريطاني في قضية الجلاء.

في سياق حديثنا عن التطورات السياسية العنيفة التي تحدث في عالمنا العربي، سألت الأستاذ نجيب محفوظ: هل يمكن لهذه الأحداث أن تولد أدباً أم أنها تقع خارج نطاق الإبداع الفني؟ قال: إن الأحداث الوطنية الكبيرة قد تصبح مادة ثرية جداً للأدب والفن، ولكن ليس أثناء وقوعها، فالعمل الفني في جانب منه هو احتراز وإعادة بعث للأحداث بشكل جديد تحدد الرؤية الخاصة للكاتب، ولكي يصل الكاتب إلى تلك الرؤية، فإن عليه أن ينتظر إلى أن يكتمل الحدث وتتكامل تداعياته، حتى يستطيع أن يكون فيه رأياً شاملاً. ومن ناحية أخرى فإن الأدب يمكن أن يستبق الأحداث ويمهد للتطورات الكبرى في حياة الشعوب، كما حدث مثلاً مع الثورة الفرنسية والكتابات التي سبقتها ومهدت لها، لكن الأدب أبداً لا يصاحب الأحداث يوماً بيوم، وحين تكون الأحداث جسيمة حقاً مثل الحروب، فإن ما يحتاجه المجتمع هو الفعل، وليس الفكر والتأمل من خلال الشعر أو الأدب.

قلت: وكيف كانت تجربتك أنت مع ما صورته في أعمالك من أحداث وطنية كبرى مرت علينا، بدءاً من ثورة ١٩١٩ في «الثلاثية» وحتى اغتيال السادات في «يوم مقتل الزعيم»؟ قال: لقد عايشت ثورة ١٩١٩ في طفولتي وأسهمت المبادئ التي قامت عليها هذه الثورة في تكويني الفكري والوجداني، كما عاصرت طبعاً مقتل الرئيس السادات، لكنني في الحالتين لم أكتب عن هذه الأحداث إلا بعد أن انتهت وصارت هناك مسافة زمنية كافية بيني وبينها تمكّني من رؤية الصورة كاملة وتكوين رأي فيها.

دار الحديث مع الأستاذ نجيب محفوظ حول معرض فرانكفورت الدولي للكتاب، والمنتظر أن يكون العالم العربي هو ضيف الشرف في دورته القادمة التي تبدأ يوم ٦ أكتوبر القادم، وسألت الأستاذ عن الكتاب الذي يقال إن أهميته بدأت تتضاءل أمام انتشار وسائل المعرفة الحديثة، خاصة الإنترنت، حيث أصبح من الممكن الحصول على أي معلومة مطلوبة عن طريق الإنترنت، كما أصبح أيضاً من الممكن أن تتم قراءة الكتب عن طريق الإنترنت.

لكن الأستاذ كان له رأي آخر حيث قال: إن الكتاب ما زال حتى الآن وسيلة المعرفة الأولى في العالم، فرغم الانتشار السريع لوسائل الاتصال الحديثة، فإن هناك الجزء الأكبر من العالم الذي ما زال يعتمد على الكتاب، بل لقد وجدنا الدول المتقدمة أيضاً تقيم المحافل الدولية للكتاب، ومنها معرض فرانكفورت. لأن الكتاب ما زالت له مكانة في الصدارة، أما مسألة قراءة الكتاب عن طريق الإنترنت فهي ممكنة بالفعل، لكنها ليست الطريق العملي حتى الآن للقراءة، لما تنطوي عليه من مشقة، خاصة حين تمتد جلسات القراءة إلى ساعات، أما الكتاب فهو الصديق الحقيقي للقارئ، فهو قد يصحبه إلى حيث لا يستطيع الكمبيوتر أن يعمل دون أن يتطلب أي مشقة.

ثم يختم حديثه قائلاً: إنني أريد تأكيد أن الكتاب أو الإنترنت ما هما إلا وسيلتان متنوعتان للمعرفة، فالمهم هو الثقافة، سواء عن طريق الكتاب أو ما يحل محله، ففي النهاية سيختار القارئ الوسيلة الأقرب إلى نفسه والأسهل في الاستخدام.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: راعني ما يحدث في السجون العراقية من انتهاكات لحقوق الإنسان على أيدي قوات الاحتلال الأمريكية. إنه حقًا شيء بشع، وما يجعله أبشع هو أنه صادر من الولايات المتحدة التي لا تمل من التحدث عن حقوق الإنسان، وحين نقارن ذلك بتاريخ أمريكا لدى جيلي، فسند فرقًا شاسعًا، وكأنها قد أصبحت تحت إدارتها الحالية دولة أخرى. فأنا أذكر مثلاً أن مظاهرة السيدات خلال ثورة ١٩١٩ كانت قد حاصرتها القوات البريطانية وبدا التعب والإجهاذ على السيدات حتى وصلن إلى حالة حرجة دون أن يُسمح لأيٍّ منهن بالخروج من الحصار أو التوجه حتى لقضاء الحاجة. ولم ينقذهن من ذلك إلا تدخل السفير الأمريكي آنذاك، الذي طالب بفك الحصار ومعاملة المتظاهرات الوطنيات معاملة إنسانية، فقد توجه بنفسه إلى اللورد اللنبي ولم يتركه إلا بعد فك الحصار. كذلك أذكر أنه حين قام النحاس باشا بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ وسحب العمال المصريين من منطقة القتال، ساءت أوضاع القوات البريطانية هناك، ففكروا في قطع أنابيب البترول التي تغذي القاهرة وهنا أيضًا كان ما حال دون ذلك هو تدخل الولايات المتحدة. كان ذلك هو ما يذكره جيلي من تجارب الماضي، حين كانت الولايات المتحدة نصيرًا للحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان في العالم، لكني أجدها الآن بعد مضي السنين تتشدد بالمبادئ نفسها، لكنها تتصرف تمامًا مثل القوى الاستعمارية القديمة التي كانت في الماضي تعارض سياساتها.

قلت للأستاذ نجيب محفوظ: إن لك خمس مسرحيات من ذوات الفصل الواحد، هي في رأي من أجمل ما كُتِب في المسرح المصري، فلماذا لم تكتب للمسرح إلا هذه؟
قال: أنا لا أختار القالب الأدبي بهذه الحرية، وإنما فكرة العمل الأدبي عندما تأتيني فهي تأتي بالقالب الخاص بها، أي إنني لا تأتيني فكرة ثم أبحث عن أفضل القوالب التي تناسبها.
ثم يصمت الأستاذ قليلاً ليعود فيقول: لقد أحببت المسرح منذ سنوات الشباب، وكنت أواظب على مسرحيات فاطمة رشدي ويوسف وهبي، وفي فترة الستينيات تابعت أعمال توفيق الحكيم وعبد الرحمن الشرقاوي وألفريد فرج ويوسف إدريس وميخائيل رومان وغيرهم. لكنني أعتقد أن كلاً منا لما يُسر له، فالإنسان يمشي مع ميوله واستعداده، وهذا هو ما يجعلني أقرب إلى القالب الروائي، بحيث أكون أكثر استعداداً، لتلقي ما هو روائي، لذلك فالرواية كانت هي أكثر ما يأتيني من أفكار أدبية.

قلت: هل يعني هذا أنك تؤمن بنظرية «الجشالت» المعروفة، والتي تقول إن العمل الفني يتكون بالكامل داخل عقل ووجدان الفنان ولا يكون تنفيذ العمل إلا عملية إخراج للعمل إلى حيز الوجود تماماً مثل الولادة؟

قال: ليس إلى هذا الحد، فكثيراً ما جاءتني أولويات الفكرة فقط أو منطلقاتها الأولى ولا تبدأ الرواية في الشكل إلا من خلال الكتابة، وهنا تصبح الكتابة عملية اكتشاف للأبعاد المختلفة في العمل الأدبي، وهي أبعاد لم تكن ظاهرة للكاتب في البداية.

هنأت الأستاذ نجيب محفوظ بصدور الطبعة العربية من كتابه الجديد «أحلام فترة النقاهاة» الذي طرحته دار الشروق في الأسواق لأول مرة منذ أيام، فقال لي: لقد سبقت تلك الطبعة الطبعة الفرنسية في أوائل العام الماضي، والطبعة الإنجليزية منذ بضعة أشهر.

فعببت لذلك، حيث بدأ الأستاذ ينشر «الأحلام» قبل بضع سنوات، فكيف لم تصدر حتى الآن؟ وكيف صدرت طبعاتها الأجنبية قبل العربية!

رد الأستاذ: كانت دار لو روشيه الفرنسية هي أول من اهتم بإصدار «الأحلام»، وقد زارني ممثل عنها عرض عليّ ترجمتها إلى الفرنسية فوافقنا، وقد صدرت بالفعل في العام الماضي متضمنة ٦٥ حلماً، وتستعد الدار نفسها الآن لإصدار الجزء الثاني الذي سيصل بـ«الأحلام» إلى الحلم رقم ١٥٠. أما الطبعة الإنجليزية فقد أصدرتها دار نشر الجامعة الأمريكية في ديسمبر الماضي بمناسبة عيد ميلادي الـ٩٣، وقد ترجمها عن العربية ريموند ستوك، ثم جاء الدور على الطبعة العربية، حيث انفتحت الكاتبة سناء البيسي رئيسة تحرير مجلة «نصف الدنيا» التي ظلت تنشر هذه الأحلام منذ بداية كتابتي لها، مع دار الشروق، على إصدار ١٥٠ من هذه الأحلام في كتاب.

قلت: قد تكون الطبعة العربية قد تأخرت عن الفرنسية والإنجليزية لكنها طبعة أنيقة رغم بساطتها، أما المقدمة التي كتبها سناء البيسي فتتضمن أجمل ما كُتب عن أديبنا الأكبر في السنوات الأخيرة.

كثيرًا ما تطرق حديث الأستاذ نجيب محفوظ إلى التصوف، وقد سألته أخيرًا عن التصوف الذي قرأ فيه كثيرًا، والذي كان له تأثير واضح في بعض جوانب إنتاجه الأدبي، فقال: لقد أخذت التصوف في البداية على أنه أدب روعي رفيع، لكنني تأثرت به تأثرًا خاصًا، فالتصوف بالنسبة لي لم يجعلني أنفصل عن الحياة أو أزهد فيها، بل العكس، جعلني أتخذ من تربيته الروحية وسيلة لتحسين علاقتي بالحياة، ومن ثم بالناس وبالعمل.

قلت: لكن التصور السائد عن التصوف هو أنه وسيلة للزهد في العمل وفي الحياة. قال: هذا صحيح، فهناك من الناس من ينسحبون تمامًا من الدنيا إلى غيبيات التصوف، لكن بالنسبة لي فقد أعانني التصوف على مواصلة الحياة والتعامل مع تقلباتها. قلت: لقد أثر التصوف أيضًا في كتاباتك.

قال: لقد أثر في بعض المضامين التي حوتها أعماله، وكذلك في بعض الأساليب، وقد ظهر ذلك بشكل واضح في روايات «الطريق» و«ثرثرة فوق النيل» و«ليالي ألف ليلة» و«ملحمة الحرافيش» وفي هذه الأعمال كان التصوف موجّهًا أيضًا نحو الحياة، ولم يكن هروبًا من الحياة.

قلت: ومن هم أكثر من تأثرت بهم من كُتّاب التصوف؟

قال: لقد قرأت لمعظم أئمة التصوف وكنت أعود إلى أعمالهم بين الحين والحين، لكن قرأت «حافظ» كثيرًا، خاصة ديوانه المشهور «أغاني شيراز» الذي أصبح لي من أعز الكتب.

قلت للأستاذ نجيب محفوظ: لم يظهر استلهامك للتراث القصصي العربي مثلما ظهر في روايتك «ليالي ألف ليلة» التي أعدت فيها تكوين قصص «ألف ليلة وليلة» بشكل جديد تمامًا! قال: لقد قرأت «ألف ليلة وليلة» عدة مرات وفتنتني قصصها، ولقد أردت أن أصنع منها رواية متكاملة.

قلت: لكن روايتك جاءت معاصرة جدًا، برغم احتفاظك بأجواء «ألف ليلة وليلة» والكثير من شخصياتها، فروايتك تتحدث عن تسلط الحاكم وعن دسائس المحيطين به، وعن الجشع والفساد، ولكنها تتحدث أيضًا عن المُثل العليا وعن الحب والجمال في خلطة معاصرة رائعة. قال: إن نظري دائمًا على الواقع في كل أعالي، مهما تكن الرواية تتحدث عن التاريخ أو تستلهم التراث، فالحاضر هو الذي يحركني حتى وأنا أكتب عن الماضي.

قلت: لقد حولت «ألف ليلة وليلة» في كتابك، ليس فقط إلى الزمن المعاصر، لكنك حولتها أيضًا لتصبح قصة واقعية، برغم كل ما بها من خوارق وخيالات، وبرغم أنك لم تحدد لها زمانًا ولا مكانًا، وهكذا أصبحت رواية إنسانية بشكل عام. هل ترى أنها أخذت حقها؟

قال: ليس كبقية الروايات، وربما كان السبب في ذلك أنها لم تتحول إلى عمل سينمائي، لقد طُلبت للتلفزيون لكننا لم ننتفح، كما أن جهة أجنبية طلبت حجزها لمدة عام، حتى تبحث إمكان استغلالها سينمائيًا.

قلت للأستاذ نجيب محفوظ: إن معظم أعمالك الأدبية تتخذ من الواقع المعيش إطارًا لأحداثها، فهل ترى أن للتراث أهمية للأديب؟ وماذا كانت قراءتك للتراث؟

قال: لقد قرأت كثيرًا في الشعر والنثر، وكان القرآن الكريم من أوائل قراءاتي، ثم قرأت كتاب «الأغاني» وقرأت «الكامل» للمبرد، وقرأت أيضًا الملاحم الشعبية مثل «عنتر» و«حمزة البهلوان» وكنت أستمع بكل منها ولا أتركها قبل أن أفرغ منها رغم أن «عنتر» مثلًا تقع في ٦ آلاف صفحة. هذا عن التراث الذي قرأته مباشرة، لكنني قرأت أيضًا في التراث عن طريق أساتذتي المحدثين، مثل د. طه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم فقد تعرضوا جميعًا للتراث. أما في مجال الشعر فإنني كنت أحتفظ بمختارات من الشعر العربي كنت أدونها بنفسي في كراسة كبيرة كانت تضم أشعارًا للمتنبى والبحتري وأبي نواس وغيرهم، وكنت كثيرًا ما أرجع لهذه الأشعار بشكل منتظم، فلم يكن يمر عليّ عام من الأعوام دون أن أقرأ هذه الأشعار من جديد والتي كانت تعتبر من أفضل القراءات بالنسبة لي، فضلًا عن ذلك فقد اعتبرت دراستي لمصر القديمة، تاريخها وآدابها وأساطيرها، جزءًا أساسيًا من دراسة التراث، وقد استغللته بالفعل في أربع من رواياتي. كذلك قرأت التراث الحديث من شوقي وحافظ ومطران والعقاد ومدرسة أبوللو، ناهيك عن الآداب الأجنبية من إنجليزية وفرنسية وألمانية وروسية وغيرها، وقد كان لكل ذلك تأثير لا أستطيع إنكاره على ما كتبت من أعمال، لأن التراث جزء لا يتجزأ من تكوين الأديب.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: كثيرًا ما أعجب لهذا العالم الذي نعيش فيه والذي نجحنا في أن نلوته بحيث أصبح خطرًا على حياتنا. أقول ذلك بمناسبة الحديث الدائر الآن عن إنفلونزا الطيور التي اضطرت معها بعض البلاد إلى إبادة مئات الآلاف من الدجاج والطيور الأخرى تفاديًا لانتشار المرض. وكنا قبل ذلك قد سمعنا عن مرض آخر يأتي من البقر وهو ما عرف بجنون البقر، وقد ظهر من جديد في الآونة الأخيرة، كما أن قصة تلوث المياه معروفة، وقد منعت بعض البلاد أكل أنواع معينة من الأسماك لأنها قد تصيب الإنسان بالتسمم، ومن ناحية أخرى فإن المواد الكيماوية التي أصبح الإنسان يرش بها الخضراوات جعلت السموم تحاصر الإنسان من كل جانب، فماذا يمكن أن نفعل؟ لقد كانت الحكومة في الماضي هي التي تنبه المواطنين للمخاطر الصحية التي تحيط بهم، بل وكانت أيضًا تنشر وسائل الوقاية، أما الآن فإنني أجد أن المواطنين هم الذين يشكون مما يحيط بهم من مخاطر صحية، والحكومة هي التي تنفي، وهذا وضع مقلوب لا ينبغي أن يكون، فمهمة الحكومة ممثلة في وزارة الصحة ووزارة الزراعة لا تقتصر فقط على توعية الناس، وإنما أيضًا على الحيلولة دون وقوع الخطر. وذلك بالرقابة على ما يتم رشه من مبيدات وعلى ما يتم استخدامه من علف للمواشي والدواجن، وبفرض الرقابة أيضًا على ما يتم استيراده من لحوم ومواد غذائية أخرى، وأهم من كل ذلك إخطار المواطن أولاً بأول بمثل هذه المخاطر، وعدم الانتظار إلى أن يشكو منها الناس.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: أكثر ما يثيرني هو ذلك القول الذي يردده البعض بأننا غير مؤهلين للديمقراطية، فالحقيقة أن تاريخ الإنسانية لم يعرف تلك الشعوب المؤهلة بطبيعتها للديمقراطية أو التي خلقت هكذا. إن جميع شعوب العالم التي نشير إليها الآن على أنها شعوب ديمقراطية أصبحت هكذا بأن اختارت هذا الطريق ومضت فيه، فإذا كنا حقاً نريد الديمقراطية فإن علينا أن نلقي بأنفسنا فيها ونصارع مختلف أمواجهها، لأن ذلك هو الطريق الوحيد الذي يوصلنا إلى الشاطئ الآخر الذي نتطلع إليه، لكن أن نظل بعيدين عن الديمقراطية ونبقي شعوبنا تتربى في ظل نظم شمولية إلى أن تتأهل للديمقراطية فذلك كلام غريب حقاً ولا يؤدي بنا إلا إلى تكريس الشمولية.

ثم يقول الأستاذ: إننا في ذلك مثلنا كمثل شخص لديه طفل صغير يخشى عليه إن حاول المشي أن يقع، لذلك يظل حاملاً طفله هذا على صدره إلى أن يبلغ الرشد فيكون قد تأهل للمشي، لكن مثل هذا الأب سيصاب بصدمة كبيرة عندما يجد أن طفله قد أصبح في سن الرشد كسيحاً مدى الحياة، لن يتمكن من المشي بعد ذلك، لأن الطريقة الوحيدة لتعلم المشي لا تكون إلا بالإقدام عليه وليس بانتظار لحظة أن يتأهل الإنسان له، وكذلك الحال بالنسبة للديمقراطية، إننا يجب أن ندخلها بلا تردد ولا نخشى من عثراتها لأن تلك العثرات هي التي ستقوي عودنا.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: إن لمصر تجربة عريقة في الديمقراطية لا يفصل بينها وبين الديمقراطيات الكبرى في العالم إلا سنوات معدودة، فقد كانت لمصر حياة برلمانية منذ أواسط القرن التاسع عشر، ولقد كان البرلمان الأول الذي نشأ في عهد الخديو إسماعيل عام ١٨٦٦ برلماناً وليدًا، لكنه مع ذلك كان له دور فيما بعد في خلع إسماعيل ثم إنه أيد أحمد عرابي فوقف معه ضد الحكم، والذي هزم هذه التجربة في النهاية كان الاستعمار البريطاني، لكن مصر كانت مصممة على الديمقراطية، لذلك جاءت التجربة الديمقراطية الثانية عام ١٩٢٤ وكانت تجربة رائعة هي الأخرى. شاهدت خلالها بنفسني في الثلاثينيات كيف كان مرشح من الإخوان المسلمين في دائرة العباسية ينافس مرشحًا قبطيًا، لكن أبناء الدائرة وكان غالبيتهم من المسلمين أنجحوا مرشح حزب الوفد القبطي وأسقطوا مرشح الإخوان الذي مني بهزيمة منكرة حتى إنه لم يستطع أن يسترد التأمين المالي الذي دفعه لأن الأصوات التي حصل عليها كانت أقل من الحد الأدنى المتعارف عليه. إن ذلك يؤكد أن الشعب المصري على درجة من الوعي السياسي تجعله أهلاً للممارسة الديمقراطية أسوة ببقية شعوب الدول المتقدمة والتي قد تفوقه في التكنولوجيا أو الصناعة، لكنه لا يقل عنها في النضج السياسي، لذلك فأنا لا أخشى على هذا الشعب من الديمقراطية مهما تكن هناك تجاوزات، أما من يتعللون بأن الشعب لم ينضج بعد فهؤلاء إنما يتعللون لكيلا يطبقوا الديمقراطية الكاملة.

قلت للأستاذ نجيب محفوظ: كيف تنصلح حالنا؟ هناك من يقولون إننا بحاجة إلى حلول اقتصادية مبتكرة، وهناك من يقولون إن وضعنا لن يتغير إلا بثورة إدارية، أو ثورة في التعليم!
قال: الاقتصاد ليس تخصصي ولا أعرف كيف تكون ثورته، لكني أعرف الثورة التي هي وراء كل ثورة، وهي الثورة الأخلاقية، فلم يعرف التاريخ ثورة سياسية أو اقتصادية أو تحريرية إلا لو كانت وراءها منظومة متكاملة للأخلاق.

قلت: وكيف تتأني هذه الثورة؟

قال: بطريقتين، أحدهما طويل المدى، وهو يتركز أساساً على التعليم والإعلام، فالتعليم هو الذي يغرس في النشء المبادئ الأخلاقية، لكن من المهم ألا تكون المؤثرات الأخرى في الحياة وأولها الإعلام طاردة لمثل هذه المبادئ، وإلا فقد الجيل الجديد إيمانه بها. أما الطريق قصير المدى فيكون بمطاردة الفساد بحزم ودون هوادة، واحترام القانون إلى حد التقديس، وتنفيذه.
ويصمت الأستاذ قليلاً ليعود فيقول: لقد عرفت مصر في تاريخها فترات انحلت فيها الأخلاق وساد الفساد بشكل غير طبيعي، وقد حدث ذلك مثلاً في فترة ما بعد حكم إخناتون، حيث استشرى الفساد في كل مكان بحيث لم يكن من الممكن إرسال الناس إلى السجون وإلا لخلت كل المصالح من الموظفين، لذلك كان حور محب ينفذ العقوبة مثل قطع اليد أو الأنف مثلاً على المدانين دون أن يتركوا أعمالهم، حتى لا تتوقف مصالح الناس، إلى أن قضى تماماً على الفساد، وتلك كانت بلا شك ثورة أخلاقية ولكن بمقاييس ذلك العصر.

قلت للأستاذ نجيب محفوظ: نشرت مجلة «الإكسبريس» الفرنسية في عددها الصادر هذا الأسبوع مقالاً عن كتابكم الأخير «أحلام فترة النقاهاة» الذي صدرت ترجمته الفرنسية أخيراً، وشبهت فيه بينكم وبين الروائي البريطاني الكبير جراهام جرين في كتابه «عالمي السري»، وقال كاتب المقال الناقد دانييل روندو إنكما في هذين الكتابين اعتمدتما على عالمكما الداخلي فكان مصدر إلهامكما هو النفس وليس العالم الخارجي، فما رأيكم في ذلك؟

قال: إنني لم أقرأ كتاب جرين حتى أقرن بينه وبين «أحلام فترة النقاهاة»، ولكن اعتماد الكاتب على الذات هو شيء لا يمكن تجاهله حتى حين يبدو أن مصدر إلهامه هو العالم الخارجي. ثم يضيف: إنني في «اللص والكلاب» مثلاً استلهمت حادثة نشرتها الصحف، لكن الحقيقة أن تلك الحادثة لم تكن سوى المفجر الذي ساعد في إطلاق ما كان مخزوناً لديّ من أفكار ومشاعر تتعلق أساساً بمفهوم الخيانة، وكيف يمكن لمن يحيطون بشخص معين أن يخونوه. أي إن ذات الأديب لا يمكن تجاهلها، فهي دائماً هناك، ولذلك فإذا اعتقلت أديباً ومنعت اتصاله بالعالم فإنه يظل بإمكانه أن يكتب، لأن الأديب يكتب دائماً من داخل نفسه ولا ينقل الواقع كما هو. وإذا عدنا إلى مثل «اللص والكلاب»، فإن المقارنة بين ما نشرته الصحف في ذلك الوقت حول جريمة السفاح وبين الرواية الأدبية إنما توضح تماماً أن هناك عنصراً ذاتياً ينبع من داخل الأديب وهو الذي يميز الأدب. وفي «أحلام فترة النقاهاة» كان مصدر إلهامي هو أحلامي الذاتية، لكنها كانت كلها تتعلق بأحداث خارجية، شأنها في ذلك شأن كل الأحلام.

بمناسبة عيد الميلاد المجيد سألت الأستاذ نجيب محفوظ عن موقع مصر القبطية في تاريخنا، فقال: إن الفترة القبطية في تاريخنا تعتبر فترة قصيرة بالمقارنة بالفترة الفرعونية قبلها، أو الإسلامية بعدها، لكنها مع ذلك في غاية الأهمية لأنها أثبتت أن الروح المصرية لا تموت. إن مصر القبطية هي الرد الوطني على الاحتلال الروماني الذي رغم أنه دام طويلاً، فإن مصر رفضته واتخذت لنفسها ديناً مغايراً لمعتقداته، وتحملت في سبيل ذلك أهوالاً كبيرة، فقد كان أول شهداء المسيحية هم المصريين. إن القبط هم الذين حافظوا على روح مصر القديمة، ولذلك فمصر القبطية هي همزة الوصل بين التاريخ المصري القديم والتاريخ الحديث، وحين وصل الإسلام إلى مصر خلصها من الظلم الروماني ثم اندمج مع المصريين، وقد كانت أعمدة الإسلام الأولى في مصر هم هؤلاء القبط الذين دخل الكثيرون منهم الدين الإسلامي، وقد اتخذت الكنيسة القبطية اللغة العربية لغة رسمية لها بعد أن أصبح يتحدثها كل السكان. ولقد كانت دائماً الآثار القبطية القديمة من أقرب الآثار إلى قلبي، منذ عهد الطفولة حين كانت والدتي تأخذني لزيارتها أسوة بالآثار الإسلامية والفرعونية.

قال لي الأستاذ نجيب محفوظ: أحزن كثيرًا لحال أطفال فلسطين الذين يأتي العيد مجددًا وهم لا يسمعون إلا طلقات النيران وصرخات الموت تحيط بهم من كل مكان. لقد كان العيد يأتي في طفولتنا بفرحة صافية، وكانت خلاصة السنة من المسرات تتبلور في العيد الذي كانت رموزه هي الكعك والتنزه والإجازة والملابس الجديدة، أما هؤلاء الأطفال فماذا يعرفون عن ذلك؟ لقد انضم إليهم أيضًا أطفال العراق وسط أصوات المتفجرات التي صارت تنبعث من كل مكان حتى في السعودية وفي تركيا أيضًا، لذلك فالعيد يأتي هذه المرة والإنسان لا يكاد يجد فيه ما يفرحه. ويصمت الأستاذ قليلًا، ثم يعود فيقول: إنني أخشى على براءة هؤلاء الأطفال، بل وعلى طفولتهم ذاتها التي تغتالها النيران مع كل يوم جديد. إن الفرحة قد تصبح عند هؤلاء الأطفال ليس حين يأخذون العيدية، وإنما حين يأخذون بالثأر، وليس يوم يأكلون الكعك أو يلبسون الملابس الجديدة، وإنما حين يلبسون حول خصرهم المتفجرات ليتحولوا إلى قنابل حية في وجه أعدائهم. إن أطفال المخيمات الذين أصبح يمر عليهم العيد بهذا الشكل سنة وراء سنة لن يعرفوا أبدًا مغزى العيد كما عرفته الأجيال السابقة، وهذا يدفعنا للسؤال: أي جيل هذا الذي سيثب وسط هذا الدمار وكيف سيكون مستقبله؟

سألت الأستاذ نجيب محفوظ: متى تحين لحظة ميلاد العمل الأدبي؟ هل من الأفضل أن يطرق الأديب عمله بمجرد أن يتراءى له في مخيلته، أي وهو ما زال طازجًا، أم أن عليه أن يتركه يختمر بعض الوقت قبل خروجه إلى النور؟

فقال: العمل الأدبي يأتي في البداية كفكرة لا تعرف من أين جاءت، ثم يظل الأديب يقلبها ويفكر فيها، أي أن لها فترة اختبار إلى أن تكتمل فتطالب بالولادة، وبعض الأفكار قد لا تجتاز فترة الاختبار فتظل فكرة غير مكتملة لا تخرج إلى النور قَطُّ، وقد يمضي وقت طويل جدًا ما بين بداية الفكرة ولحظة الولادة، وفي حالات أخرى لا تستغرق تلك الفترة وقتًا طويلًا. فمثلًا في حالة «الثلاثية» ظلت ترد عليَّ كأفكار متناثرة فكنت أفكر فيها كأجزاء متفرقة، وقد استغرقت تلك المرحلة سنوات إلى أن اختمرت الفكرة وحانت لحظة الميلاد فبدأت أكتبها. أما في حالة «الللص والكلاب» فقد تابعت جريمة السفاح التي كانت تنشرها الصحف في ذلك الوقت، وما إن اكتمل الحدث حتى جلست أكتب روايتي، وأعتقد أن موضوع الرواية كان مخزنًا لديّ منذ فترة وكان ينتظر الفرصة لكي يخرج، وقد جاءت قصة السفاح معبرة عن هذا الموضوع، فما إن قرأتها حتى حانت لحظة الميلاد وخرج كل ذلك المخزون بعد أن وجد التعبير السليم عنه في قصة تلك الجريمة، والتي كانت بمثابة الجسم الذي تجسدت فيه الفكرة الأساسية التي كانت تشاغلني لفترة طويلة قد تسبق وقوع جريمة السفاح. وهكذا فإن الرد على سؤالك هو أن العمل الأدبي يحتاج إلى فترة تخزين يختمر فيها ويصل من خلالها إلى مرحلة الاكتمال، أما ما يتعجل الأديب كتابته فهو عادة ما يكون مبتسرًا غير كامل النمو.

حين استقبل الأستاذ نجيب محفوظ المبعوث الخاص لوزارة الخارجية اليونانية، والذي حضر إلى القاهرة من أجل الحصول على توقيع أدينا الأكبر على وثيقة الهدنة الأولمبية، كانت مع المندوب - وهو سفير فوق العادة - دبلوماسية يونانية شابة قدمها السفير قائلاً إنها من المعجبات بأدب نجيب محفوظ، وإنها قرأت جميع أعماله المترجمة إلى اليونانية.

وهنا سأل الأستاذ عن عدد الكتب التي تُرجمت إلى اليونانية، وقد دهش ودهشنا معه أن عددها قد وصل إلى ١٧ كتاباً، وقد كان الأستاذ يتصور أنها لا تتعدى الروايتين أو الثلاث. وقد أوضح لنا السفير أن روايات نجيب محفوظ تعتبر من أكثر الكتب الأدبية مبيعاً في اليونان، حيث تتنافس على طباعتها مختلف دور النشر.

وقد تحدث الأستاذ نجيب محفوظ عن العلاقات التاريخية بين مصر واليونان في العصور القديمة، والتي ظلت الإسكندرية رمزاً لها لسنوات طوالٍ، فقال السفير إن الرمز الحديث لذلك التقارب هو نجيب محفوظ الذي استطاع أن يعبر عن الإنسان المصري واليوناني معاً، لأن أعماله تتسم بالإنسانية التي تشمل كل الأجناس.

وصمت الأستاذ كعادته حين يثني أحد على أعماله، فلم يجب بكلمة واكتفى بابتسامة شكر وعرفان لمحدثه، ثم أمهر بتوقيعه الوثيقة التي تطالب بإقامة هدنة لجميع الصراعات في العالم خلال انعقاد دورة الألعاب الأولمبية في أثينا في العام القادم أسوة بما كان يحدث في أثينا القديمة.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: لن يستطيع الجيل الذي عايش حرب أكتوبر أن ينسى مغزاهما التاريخي العظيم. لقد أنقذت الروح العربية من وهدة اليأس، وأعطتها ثقة بنفسها في مواجهة الصعاب، وأول من يُذكر في هذه المناسبة التي نحتفل فيها بمرور ثلاثين عامًا على الحرب هو أنور السادات بطل هذه الحرب، والذي صار بعد ذلك بطل السلام أيضًا، لكنه راح ضحية للتطرف والإرهاب. لقد كان السادات صاحب رؤية ثاقبة وبعيدة المدى، وكل من عارضوه كانوا ينظرون تحت أقدامهم، بينما كان يرتفع هو فوق المشاكل الأنية لينظر إلى التأثير بعيد المدى الذي كان لسياسته أن تحققه. كذلك علينا أن نحیی في هذه المناسبة بطل الضربة الجوية في حرب أكتوبر والتي كان لها الدور الحاسم في توجيه دفة الأمور إلى صالحنا، ورغم أن روح أكتوبر غيرت الكثير في حياة الأمة، فقد يظل هناك ما لا نرضى عنه في حياتنا، لكن علينا أن نتذكر هؤلاء الذين لا يذكرهم أحد، وقد لا يعرف أسماءهم تحدث هذه الحرب. ثم علينا أخيرًا أن نتذكر هؤلاء الذين لا يذكرهم أحد، والذين بدونهم لم يكن من الممكن أن يتحقق الانتصار.

قلت للأستاذ نجيب محفوظ بمناسبة توقيعه عقدًا جديدًا لإصدار إحدى مجموعاته القصصية في ترجمة جديدة بالإنجليزية: هناك ظاهرة غريبة بالنسبة لأدباء نوبل في العالم، فالبعض منهم يتركز عليه الاهتمام عند فوزه بالجائزة ثم يقل هذا الاهتمام مع مرور الوقت، بينما البعض الآخر يظل يتزايد الاهتمام العالمي به من سنة إلى أخرى، وأنت يا أستاذ نجيب من النوع الثاني، فقد لاحظت في كل مرة أسافر فيها إلى الخارج أن كتبًا جديدة قد صدرت لك بإحدى اللغات الأجنبية، ففي فرنسا مثلًا بعد أن ترجموا معظم أعمالك الروائية اكتشفوا منذ سنوات قليلة مرحلتك الفرعونية فبهروا بها، وبدأوا يصدرون رواياتها التي لقيت نجاحًا كبيرًا في ترجمتها الفرنسية بسبب ولعهم بكل ما هو مصري قديم، رغم أنها كانت أولى محاولتك الروائية، وهي لا تقارن في قيمها الفنية بروائعك التالية، سواء في المرحلة الواقعية أو ما تلاها من مراحل، فكيف تفسر ذلك؟

قال الأستاذ: لقد جاءت نوبل لبعض الأدباء كنوع من التتويج لأعمالهم التي كان يعرفها العالم من قبل، فلم تزد كثيرًا من الاهتمام العالمي بهم، فحين فاز بها برنارد شو في بريطانيا أو توماس مان في ألمانيا أو همنجواي في الولايات المتحدة، كان كل منهم قد وصل بالفعل إلى ذروة نجاحه ولم يكن من الممكن أن تضيف لهم الجائزة اهتمامًا جديدًا. أما في حالة البعض الآخر خاصة أدباء العالم الثالث فإن نوبل جاءت في معظم الأحيان لتعريف العالم بكاتب لم يكن ذا شهرة عالمية، وقد تكون ألفت الضوء عليه لأول مرة، وهكذا يبدأ اكتشاف العالم لأعماله ويترجم مع كل سنة المزيد من كتبه.

قلت: ذلك هو تواضعك المعهود، أما التفسير الحقيقي فهو أن هناك من أدباء نوبل من له أهمية إنسانية أكثر من غيره، وهذه الأهمية تتزايد من عام إلى آخر.

سألت الأستاذ نجيب محفوظ: ما الذي يصنع نجاح الكاتب، هل هو الموضوعات التي يعالجها والتي تهم الناس، أم أسلوبه الفني، أم هو البعد الإنساني في العمل الأدبي؟
قال: أقوى شيء هو تلك القيمة الإنسانية التي نتحدث عنها، فمن دون تلك القيمة لا يكون الأدب أدباً مهما يكن موضوعه مثيراً، فقد يكون في هذه الحالة مثل المقال الصحفي الذي يعالج موضوعاً أنياً ساخناً، ومهما يكن أسلوب الكاتب جميلاً فقد يشكل ذلك مقطوعة جميلة لكنها ليست أدباً بالمعنى المفهوم. وللوصول إلى تلك القيمة الإنسانية للأدب فإن الكاتب يجب أن يكون له أسلوب فني راقٍ يسخره لخدمة هذه القيمة، ويجب أن يكون لعمله الأدبي بناء فني يجعل منه أدباً وليس مجرد قطعة جميلة، أما الموضوع فإن الكاتب الجيد قادر على أن يجعل منه موضوعاً يهم الناس جميعاً وذلك اعتماداً على أسلوبه الفني، ومهما يكن هذا الموضوع مستمداً من التاريخ القديم فإنه يبقى ساخناً في إطار العمل الأدبي، لذا كان ذلك العمل جيداً. فالموضوعات التي عالجها شكسبير مثلاً في مسرحياته ما زالت موضوعات أنية نهتم بها اليوم، رغم أنه كتبها منذ أكثر من ٤٠٠ سنة، ذلك أنه أضفى عليها بأسلوبه الفني المتميز قيمة إنسانية تتخطى كل العصور لتصل إلى جميع الأجيال التالية له. والموضوع في الأدب لا ينفصل عن رؤية الكاتب، بل إن الموضوع قد يكون هو الوسيلة التي يعبر من خلالها الكاتب عن رؤيته للحياة، ومهما يتقدم الموضوع فإن رؤية الكاتب خالدة على مر الزمن.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: توقفت كثيرًا عند ظاهرة رواية «هاري بوتر» الجديدة التي صدرت أخيرًا للأطفال، والتي بيع منها الملايين خلال الساعات الأولى من صدورها، ففي وقت نحن نشكو فيه من كساد الكتاب أمام وسائل الاتصال الحديثة من التلفزيون إلى الإنترنت، ها هو كتاب يصدر فيبيع ليس الآلاف من النسخ فحسب، بل الملايين. لقد وضعت مؤلفة الكتاب يدها بلا شك على ما يثير خيال الأطفال في عصرنا الحالي منذ أن أصدرت كتابها الأول في هذه السلسلة قبل بضعة أعوام، حتى صار هاري بوتر بطل روايتها إحدى الشخصيات المهمة في حياة الأطفال الآن، مثلما كانت سندريلا أو السندباد بالنسبة للجيل السابق. والحقيقة أن المقارنة بين البطل الجديد وأبطال قصص الأطفال القديمة يوضح الفرق بين عصر وعصر، فهاري بوتر هذا يتمتع على ما يبدو بقدرات ذهنية خارقة، ويمتلك ناصية التحكم في وسائل الاتصال الحديثة في العالم. لذلك فهو أكثر تعبيرًا عن جيل الأطفال في عصرنا هذا، فالأطفال لم يعد يثير اهتمامهم تلك الحوادث البسيطة التي كانت تتحدث عن الجميلة النائمة في الغابة بعد أن سحرتها الساحرة الشريرة التي يأتي الأمير الجميل لإنقاذها، إن ما يثيرهم اليوم هو كيف يتحكم طفل صغير في الكمبيوتر، وكيف يستطيع أن يسيطر على المجتمع المحيط به، مستخدمًا ذكائه وقدراته الفذة؟! وربما كان الدرس الذي علينا أن نستوعبه من هذه الظاهرة التي يتحدث عنها العالم أجمع الآن هو أن الكتابة للأطفال لم تعد كما كانت في الماضي، وعلى كُتَّاب الأطفال عندنا أن يعوا ذلك في الوقت الحالي الذي يتزايد فيه الاهتمام بالمكتبات والقراءة للأطفال.

قال الأستاذ نجيب محفوظ استكمالاً لحديثه عن رواية «هاري بوتر» التي تحولت إلى ظاهرة عالمية لا يمكن تجاهلها: من أهم ما يثيره النجاح الجماهيري الواسع الذي حققته هذه الرواية موقف النقاد من الكتب واسعة الانتشار التي يطلق عليها في الخارج تعبير «Bestseller»، أي الأكثر مبيعاً. فمثل هذه الأعمال عادة ما يتجاهلها النقاد أو يترفعون عنها ويعتبرون انتشارها الجماهيري دليلاً على تجاريتها وبعدها عن الخصائص الفنية، وتلك فكرة غير صحيحة، لأنها تقوم على افتراض أن الفن هو للخاصة وحدهم، أما ما تقبل عليه الجماهير الواسعة فهو بالضرورة بعيد كل البعد عن الفن، ولا ينبغي للنقاد أن ينشغلوا به.

قلت: لقد حققت رواياتك نجاحاً جماهيرياً كبيراً، لكن تلك ليست دائماً القاعدة، فهناك من الأعمال الفنية ما لا يصل بالضرورة إلى نفس الجماهيرية التي تتمتع بها رواياتك!

قال: إن ما أقوله هو أن النجاح الجماهيري يجب ألا يكون من بين المعايير النقدية، فهناك أعمال عظيمة تحقق جماهيرية كبيرة، وأعمال عظيمة أخرى لا تحقق هذه الجماهيرية، كما أن العكس أيضاً صحيح. لذلك فإن اعتبار الانتشار الجماهيري دليلاً على عدم فنية العمل ليس بالمعيار الصحيح، وقد وجدنا في السابق النقاد يعرضون عن الفن السينمائي في بداية نشأته باعتباره تسليية جماهيرية لا تمت إلى الفن بصلة، والآن أصبحت السينما هي الفن السابع الذي له نقاده المتخصصون ومدارسه الفنية المختلفة، والشيء نفسه حدث أيضاً مع التلفزيون وما يقدمه من المسلسلات التي تعتبر اليوم قالباً درامياً لا يمكن تجاهله. إن الأعمال الفنية واسعة الانتشار لها تأثير على الجماهير يفوق ما يُكتب للصفوة، وبالتالي فإن إعراض النقاد عنها يعني أن هناك أعمالاً شديدة التأثير في الناس، لكن النقد بعيد عنها تماماً، وهذا ما لا ينبغي أن يكون.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: إن المنطقة العربية تتعرض الآن لمرحلة خطيرة في تاريخها بالنظر لما يجري في العراق، ولمحاولة العودة إلى طريق التسوية في فلسطين، وبطبيعة الأشياء فإن مصر لها بالضرورة دور لا يمكن تجاهله في ذلك كله، ولا أقصد هنا أن يكون لمصر رأي أو موقف يتم فرضه على بقية الأطراف، بل العكس هو الصحيح، فإن مصر بحكم موقعها القيادي عليها أن تتبنى موقف الأطراف المعنية وتدافع عنه. ففي فلسطين مثلاً علينا أن نقبل فقط بما يقبله الفلسطينيون وألا نزايد عليهم، وفي العراق علينا أن نعترف فقط بالحكومة التي يرضاها الشعب العراقي ويرى أنها معبرة عنه وعن مصالحه الوطنية.

قلت: هناك من يقولون - ومن بينهم إسرائيل - إن دور مصر قد انتهى بتوقيعها معاهدة كامب ديفيد، وأن عليها الآن أن تفسح الطريق أمام التسويات الأخرى بأن تترك مثلاً الفلسطينيين يتفاوضون بمفردهم مع إسرائيل، وتنفض يدها عن العراق.

قال: إن ما تشهده المنطقة الآن ليس مشكلة فلسطينية محلية ولا عراقية محلية، إنها مشكلات إقليمية، ولما كانت مصر هي الدولة الكبرى الإقليمية فإنه لن يكون هناك حل إلا بمشاركة الفعالة وبإعمال دورها الإقليمي.

ثم يضيف الأستاذ: لقد جربت إسرائيل ذات مرة أن تصل إلى تسوية منفردة مع لبنان، لكن ذلك الاتفاق سقط خلال أيام لأنه تجاهل الأبعاد الإقليمية للموضوع، وإذا كان لخريطة الطريق أن تصل إلى التسوية المنشودة، فإن ذلك يحتم علينا أخذ البعد الإقليمي في الاعتبار والذي في مقدمته يأتي دور مصر.

بادرني الأستاذ نجيب محفوظ بالقول: إن من يطالب بإلغاء الجامعة العربية إنما ينسى الشعور العام الذي يجمع كل العرب، فهناك لغة واحدة في جميع الدول العربية، واللغة هي وعاء الثقافة والهوية الوطنية، لذلك فهناك بالفعل رباط قوي يجمع كل العرب يخلق شعورًا مشتركًا فيما بينهم، والجامعة العربية يجب أن تكون هي المعبر عن كل ما هو مشترك بين العرب.

قلت: إن من ينتقدون الجامعة يقولون إنها فشلت في الحرب على العراق.

قال: إن كانت قد فشلت فهذا يعني أن العرب هم الذين فشلوا، لأن الجامعة ليست كيانًا مستقلًا عن العرب حتى يمكن أن تنجح فيما تفشل فيه الدول العربية، وإذا كان العرب قد فشلوا في وقف الغزو الأمريكي للعراق فقد كان ذلك ظرفًا استثنائيًا فُرض ليس على العرب وحدهم وإنما على العالم أجمع، ومثلما لم يستطع العرب صدّه فإن أحدًا غيرهم في العالم لم يستطع صدّه أيضًا.

قلت: أنت إذن من المؤمنين بجدوى الجامعة العربية في جميع الظروف.

قال: نعم، لكن شريطة ألا نحملها ما لا طاقة لها به. إن هناك وحدة قائمة بالفعل بين العرب، وهي تتضح أكثر ما تتضح في الجانب الثقافي، وتلك يجب أن تهتم بها الجامعة العربية وتجسدها. لماذا نصر دائمًا على أن أعضاء الجامعة، والذين بلغ عددهم الآن ٢٢ دولة، يجب أن يكون لهم جميعًا رأي واحد في كل شيء؟ لماذا لا نبحث عن الأغلبية بدلًا من أن نصر دائمًا على الإجماع؟ إن الاتحاد الأوروبي، على سبيل المثال، لم يوافق على فكرته في البداية إلا ست دول فقط من بين جميع الدول الأوروبية، لكن أحدًا لم يطالب بإلغائه، واليوم وصل عدد دول الاتحاد الأوروبي إلى ٢٥ دولة، وقد سبقنا الاتحاد الأوروبي في التوحيد بين الدول الأعضاء في الجوانب السياسية والاقتصادية.

سألت الأستاذ نجيب محفوظ: وسط الأحداث الوطنية الكبرى التي يشهدها الوطن العربي الآن، ماذا يكون موقف الأديب؟

قال: الأديب هو في الأساس مواطن مثل أي مواطن آخر، وهو في وقت الأحداث الكبرى ينفعل بها كغيره، فإذا حمل الناس السلاح كان هو بينهم يحمل السلاح.

قلت: ومتى إذن يكون أديباً؟

قال: ربما بعد انتهاء الأحداث، فهو لا يستطيع أن يترك السلاح وقت المعركة لكي يكتب رواية أو مسرحية، لكنه بعد الأحداث يبدأ التأمل فيكتب، لذلك فالفن عادة ما يحتاج إلى فترة زمنية كافية يبتعد فيها الحدث بما يسمح للفنان بأن يتأمله ويعيد بناءه وفق رؤيته الشخصية، لكنه لا يستطيع أن يفعل ذلك وسط نيران المعركة.

قلت: لكننا عرفنا بعض الفن المصاحب للمعارك.

قال: هذا يمكن أن يحدث مع بعض الأشعار والأغنيات الحماسية التي تظل مرتبطة بالظروف التي كتبت فيها، لكن الأعمال الأدبية الكبرى لا تأتي إلا بعد أن يختزن الأديب الأحداث في نفسه لحين نضجها، عندئذ يكتبها أيًا كانت الظروف شعراً أو نثرًا.

ثم يقول: إن كتابة رواية أو مسرحية أو ملحمة هي عملية كبيرة وتحتاج إلى وقت طويل، ولست أعرف من يستطيع أن يكتب رواية طويلة عن الحرب في أثناء اندلاع النيران. أما عن الأحداث الجارية الآن فقد عايشنا جميعاً كارثة العراق ساعة بساعة، وسيجيء اليوم الذي يظهر فيه ذلك في الإنتاج الأدبي العربي.

قال الأستاذ نجيب محفوظ في انفعال: أي مشهد قبيح هذا الذي تقدمه لنا الحرب الأمريكية في العراق؟! كيف يمكن لدولة عظمى تتطلع لزعامة العالم أن تتشن مثل هذا العدوان العسكري على إحدى دول العالم الصغيرة بلا سند من الشرعية وبلا أسباب أخلاقية؟! قلت: هل هناك في الحرب أسباب أخلاقية؟

قال: بلا شك، فكل عمل سياسي يجب أن يعبر عن موقف أخلاقي ما، مثل التحرر من الاستعمار، أو صد عدوان أجنبي، أو حماية المقدسات، إلخ. ومن دون هذا الموقف الأخلاقي تتعري السياسة ويسقط عنها ما يستر عورتها فتصبح غير أخلاقية، أما الأسباب التي تقدمها الإدارة الأمريكية للحرب في العراق فهي أسباب واهية لم يقتنع بها العالم الذي خرج في جميع العواصم والمدن الكبرى يعبر عن رفضه لها، ولقد كان جورج بوش الأب أفضل حظاً من ابنه حين شن حربه ضد العراق عام ١٩٩١ بدعوى تحرير الكويت، وقد كنا جميعاً رافضين غزو العراق لدولة مجاورة ذات سيادة، لكن هذا الموقف غطى عليه الآن هذا العدوان الغاشم الذي نشهده ضد العراق، والذي يعتبر غزواً غير شرعي يماثل ما قام به صدام حسين ضد الكويت عام ١٩٩٠ ومن ثم فنحن نرفضه من المنطق نفسه الذي رفضنا به غزو الكويت ورفضته الولايات المتحدة نفسها.

في خضم المواجهة الحالية بين العالم العربي والجانب الممثل للخطرسة الغربية الذي يمثله معسكر الولايات المتحدة وبريطانيا بحربه ضد العراق، سألت الأستاذ نجيب محفوظ عن علاقتنا الجدلية بالغرب!

فقال: الحقيقة أنني لست ممن يعتقدون أننا بالضرورة في حالة صراع مع الغرب، لقد مرت علينا فترات كان بيننا وبين الغرب الاستعماري صراع وطني من أجل الاستقلال والحرية، لكن الغرب يمثل أيضاً قدوة حضارية وإنسانية لا يمكن إنكارها، أما ما يمس طبيعة مجتمعنا وبعض التقاليد التي نريد الحفاظ عليها، فلسنا مطالبين باستبداله بالنظم والتقاليد الغربية. قلت: لكن هناك من ينظرون إلى الحضارة الغربية على أنها النقيض لحضارتنا، وأن علينا أن نصد أنفسنا عنها و عما تمثله من استعمار ثقافي.

قال: أنا لست من مؤيدي هذه النظرية، فالثقافة ليس بها استعمار وإنما هي روافد للحضارة الإنسانية الشاملة وكل ثقافة محلية هي إثراء لحضارتنا جميعاً، لقد غزتنا الثقافات الغربية والشرقية على مدى التاريخ، كما أن ثقافتنا قد غزت العالم في أوقات أخرى من التاريخ. وفي كل من هذه الحالات ولد هذا التفاعل فترات من النهضة والازدهار، إن لنا أن نمسك بكل ما يروق لنا في حضارتنا، لكن علينا أيضاً ألا نصد أنفسنا عن الثقافات الإنسانية الأخرى، وإلا انغلقتنا على أنفسنا وخنقنا حضارتنا حتى الموت.

العولمة الثقافية، كان هذا هو الموضوع الوحيد الذي جاء به الصحفي العربي الزائر إلى الأستاذ نجيب محفوظ، فهناك من هم مع العولمة، باعتبار أنها يمكن أن تنعش الثقافة، وهناك من يخافون أن تقضي على ثقافات العالم كله، لمصلحة ثقافة واحدة فقط، فأين يقف أديب العرب الأكبر من ذلك كله؟

قال الأستاذ: إن ما تقصده بالعولمة هو الذي يحدد الإجابة عن سؤالك، فإذا كنت تقصد سيادة النموذج الثقافي الأمريكي وحده على العالم، فذلك ليس من العولمة في شيء وإنما هو الهيمنة، وهذا ليس بجديد، لكنه سمة القوى الكبرى حين تستعمر الدول الأخرى. فهي في هذه الحالة تفرض ثقافتها على الثقافة المحلية، وربما كان أول مثال على ذلك هو سيادة لغة المستعمر على اللغة الوطنية، ذلك هو ما حدث مع الفرنسيين في الجزائر ومع الإنجليز في الهند. أما العولمة الثقافية الحقيقية فينبغي أن تكون العكس من ذلك تمامًا، إنها الانفتاح على مختلف الثقافات العربية بقدر ما يتعرف العرب على الثقافة الأمريكية، وبهذا المعنى يمكن أن تمثل العولمة إثراء للثقافة في العالم وليس إضعافًا لها، أما سيادة النموذج الأمريكي وحده في جميع أنحاء العالم، فذلك ينتهي إلى عالم السياسة، وليس الثقافة، لأنه هيمنة وليس عولمة.

وترتد ذاكرة الأستاذ نجيب محفوظ إلى مرحلة الطفولة، فيقول: كان بيتنا القديم بالجمالية بيتًا جميلًا بُني على الطراز العربي الأصيل، وكانت تزين واجهته مشربيتان جميلتان أراهما أمامي الآن بكل تفاصيلهما الدقيقة.

ثم يصمت قليلاً فلا أقطع صمته، وحين يعود للكلام يكون ما زال شاغله هو بيت الطفولة بحي الجمالية القديم، حيث يقول: لم يكن البيت كبيراً، لكنه كان مكوناً من ثلاثة طوابق، كل طابق فيه لا يتسع لأكثر من غرفتين، لذلك فقد كنا نسكنه رأسياً وليس أفقياً. ففي الدور الأول مثلاً كانت هناك غرفة المسافرين التي كان من يأتون لزيارتنا من خارج القاهرة يبيتون فيها، أما غرفتي فكانت في الدور الثاني مع والدتي، وكان في الدور الثالث يسكن أشقائي في غرفة وشقيقتي في الغرفة الثانية، إلى أن تزوجوا جميعاً وتركونا إلى بيوت أخرى. ثم كان هناك السطوح الذي كثيراً ما كنت أصعد إليه خاصة في شهر رمضان لأنظر إلى مئذنة جامع الحسين قبل غروب الشمس إلى أن أسمع الأذان فأنزل إلى الإفطار، ولا بد أنني كنت آنذاك في السابعة من عمري.

وبعد فترة صمت أخرى يقول: لقد تركنا هذا البيت بعد ذلك وانتقلنا للعيش بحي العباسية، وأذكر أنني عدت ذات مرة لزيارته فوجدته قد تحول إلى مقهى، وفي زيارة تالية وجدته قد هُدم وأقيمت مكانه عمارة قبيحة الشكل، فلم أذهب إليه ثانية.

كانت علامات تماثل أديبنا الأكبر نجيب محفوظ للشفاء بعد الوعكة الصحية التي ألمت به هي استعادة شهيته للطعام، إلى درجة أن الأطباء أوقفوا المحاليل التي كانوا يحقنونه بها للتغلب على ظاهرة الجفاف التي ولدها ارتفاع الحرارة، واكتفوا بما أصبح يشربه بنفسه من سوائل. وقد أصبح الأستاذ يتناول الآن إفطارًا مكونًا في معظم الأوقات من بيضة واحدة وقطعة جبن وكوب لبن، لكنه ما زال يفتقد الفول والطعمية اللذين يقول إن لهما عنده في الأكل منزلة الرواية في الأدب. ويتذكر الأستاذ حين أجريت له عملية القلب في لندن عام ١٩٩١ فيقول إنه فقد عندئذ شهيته تمامًا للأكل. ثم يضيف: وكانت المائدة تأتي لي كل يوم مليئة بكل ما لذ وطاب، وكانت تشبه اللوحة الفنية في توضيها، لكن لم أكن أمسسها قط، وفي النهاية سألني الجراح الذي أجرى لي العملية، وهو مستر جرين: ماذا تريد أن تأكل؟ فقلت: إنني لا أجد في نفسي الآن شهية إلا للفول أو الطعمية أو شوربة العدس. وكنت أتصور أنني بذلك أطلب المحال، ولكنهم قالوا لي إن كل ذلك موجود عند «علي بابا» وهو محل الأكل الشرقي في لندن.

قلت: أليس هناك شيء غير شعبي تحبه، سواء في الأكل أو غير الأكل؟ قال: هناك أشياء كثيرة أحبها غير شعبية، لكني أحبها من بعيد لبعيد، فحين كان يدعوني صديق إلى أحد الفنادق الفاخرة كنت أذهب معه وأستمتع بالجلسة، وربما استمتعت أيضًا بالطعام، لكن ما إن تنتهي جلستنا حتى كنت أعود أدراجي إلى قهوة الحسين حيث الفول والطعمية والشيشة البلدي.

دخلت على الأستاذ نجيب محفوظ مهناً بسلامة المعافاة بعد الخروج من المستشفى، فوجدته في الفراش، وقد تم ربط ذراعه اليمنى بضمادات وغلقت برباط في رقبته. قلت له منزعاً: ماذا حدث؟

قال لي في أسي: لقد وقعت أثناء ذهابي إلى دورة المياه وسط الليل. ولاحظت كدمة واضحة فوق عينه اليمنى، وشكا لي من ألم في كتفه فأدركت أن «الوقعة» لا بد كانت شديدة. قلت: حمداً لله على سلامتك. قال: السلامة أصبحت الآن بعيدة المنال، فما إن خرجت من حفرة نزلة البرد التي أصابتنى، حتى وقعت في «حديرة» هذه الوقعة.

وما هي إلا دقائق حتى حضر فريق الأطباء حاملين معهم جهازاً متنقلاً للأشعة، فتم الكشف على الذراع اليمنى والكتف وطمأننا الطبيب إلى أن الأستاذ لن يحتاج إلى جبس، وأن الأربطة الحالية تكفي، لكنه نصح بالراحة التامة إلى أن يتعافى تماماً، ويتم فك أربطة الذراع وتنتهي جرعات الأدوية التي كتبها له الأطباء بالمستشفى. وسألت عن تلك الأدوية التي راعني عددها على المنضدة الصغيرة إلى جانب السرير، فقيل لي إن بعضها مسكن للألم والبعض الآخر مقو، وإن بها من العقاقير ما يخدر بعض الشيء، مما لا يجعل خروج الأستاذ الآن من البيت مستحباً. وودعت الأستاذ وأنا ألحظ أنه بدأ يغفو قائلاً سأتركك الآن للراحة. فرد: بل ستتركني للتعب.

لكني بدأت ألحظ في زياراتي اليومية للأستاذ تحسناً تدريجياً في صحته، خاصة في حالته النفسية التي كانت تقلقني أكثر من أي شيء آخر. وأمس الأول شاهدت لأول مرة ابتسامته العريضة التي كانت قد غابت طوال الأسابيع الماضية، فسألته: كيف حال الذراع اليمنى الآن؟

فقال على الفور: لقد حركتها اليوم.

فعرفت سبب ارتفاع معنوياته.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: شهدنا في الآونة الأخيرة ظاهرة سياسية جديدة وهي بروز تجمعات معارضة خارج الأطر السياسية المعترف بها، فنشأت حركات في الشارع اجتذبت الشعور العام بأكثر مما اجتذبت الأحزاب السياسية، وهذه في مجملها ظاهرة صحية تدل على أن المجتمع السياسي ما زال ينبض بالحياة، وأنه لم يتحول إلى جثة هامدة كما يتصور البعض. لكن استمرار المعارضة خارج الحلبة يثير بعض القلق على مستقبل الحياة السياسية في مصر، فهناك قواعد ينبغي اتباعها وهي قواعد مطبقة في الأحزاب وفي البرلمان وليست في الشارع، لذلك فإن قيمة هذه الحركات ليست في استمرارها، وإنما في أن تصب في النهاية في الشكل الحزبي سواء من خلال الأحزاب القائمة الآن إذا استطاعت استيعابها أو من خلال إنشائها لأحزاب جديدة.

ثم يضيف الأستاذ: إن هذا يعني أن واجب الحكومة في الانتخابات البرلمانية القادمة ليس أن تعمل على استبعاد المعارضة وتأميم ٩٠٪ من مقاعد المجلس لحساب الحزب الوطني، وإنما أن تعمل على استيعاب جميع الاتجاهات المعارضة داخل الشكل البرلماني سواء كانت أحزابًا قائمة أو حركات شعبية ما زالت وليدة، لأن في ذلك ترشيحًا لها وترشيحًا للحياة السياسية ذاتها. أما استبعاد المعارضة من البرلمان فسيكون فيه استعداد لها، وسيمثل بالتالي تقوية لمعارضة الشارع التي قد يفلت منها زمام الأمور فتدخلنا في أوضاع لا تحمد عقباه.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: شاهدت من ثقب المشربية في بيتنا القديم بحي الجمالية ثورة ١٩١٩ وهي تولد، شاهدت الميدان الهادئ الذي كان يقع فيه بيتنا، ميدان بيت القاضي بأشجار الصفصاف التي كنا نطلق عليها اسم «ذقن الباشا». كان الميدان يتفجر عن آلاف مؤلفة من البشر يصيحون بهتافات لا أفهمها، فقد كان عمري في ذلك الوقت حوالي سبع سنوات، وحين سألت قالوا إنهم يطالبون بجلاء الإنجليز. ولقد شاهدت بعد ذلك ثورة يوليو أيضًا عام ١٩٥٢ لكنني كنت رجلًا يعي ما يجري فيتفاعل معه بعقله وليس فقط بقلبه وروحه، لذلك فقد كان لي رأي في الثورة بالسلب وبالإيجاب، وربما كان هذا هو الفرق عندي بين ثورة ١٩ و ثورة يوليو.

قلت: وما الفوارق الأخرى؟

قال: إن ثورة ١٩ نشأت في الأحياء القديمة وكانت تطالب بالجلاء والاستقلال، أما ثورة يوليو التي حققت الاستقلال منذ سنواتها الأولى فقد انصرفت إلى تأسيس الدولة الحديثة، كما أن سعد زغلول كان ابن المجتمع الريفي القديم، أما جمال عبد الناصر فهو ابن المدينة. ثم قال: لقد جاءت ثورة يوليو كامتداد للحركات الشعبية التي كنت أشاهدها وأنا طفل، وقد مكنها الزمن من تحقيق انتصارات أكثر وأكبر مما سبق، فقد قضت على النظام الملكي البائد وأسست نظامًا جمهوريًا حديثًا، وتصدت للفساد السياسي والاجتماعي الذي كان سئنة الحياة العامة في ظل حكم الملك فاروق، لكنها مثل الحكم الملكي لم تلتزم بالدستور.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: كان سعد زغلول بالنسبة لجيلنا هو المدرسة التي تعلمنا منها الوطنية، فقد كان زعيمًا وطنيًا لا يبارى، والبعض يعتبره بداية تاريخ مصر الحديث، فالمبادئ التي جسدها مثل الاستقلال والديمقراطية هي المبادئ التي قام عليها التاريخ الحديث لشعوب العالم الثالث كله وليس لمصر وحدها. لقد أسس محمد علي الدولة القوية، لكن سعد زغلول هو الذي أدخلها التاريخ الحديث، ولقد جاءت ثورة يوليو من بعده لتجسد نفس المبادئ. وأنا أرى أن تراث سعد زغلول ما زال حيًا لأننا أحوج ما نكون الآن إلى الاستقلال والديمقراطية، فالاستقلال لا يكون فقط عن الاحتلال العسكري، وإنما أيضًا عن النفوذ الخارجي الذي تحاول القوى الكبرى أن تفرضه على شعوب العالم، أما الديمقراطية فقد أصبحت هي الفارق الحقيقي بين الشعوب المتقدمة وغيرها. ولقد وجه أعداء سعد النقد له على أساس أنه بعد تولي الحكم هادن الإنجليز، بل وتعاون معهم، لكن في ذلك ظلماً لتاريخ الرجل، فسعد لم يتغير قط، وقد حقق خلال حكمه إنجازات كبيرة لم تحققها أي وزارة أخرى، وبدأ إصلاحات غاية في الأهمية. أما عن علاقته بالإنجليز، فبعد مقتل السردار أجبرت القوات البريطانية مصر على الخروج من السودان، فماذا كان يستطيع سعد زغلول أن يفعل في مواجهة الجيش البريطاني؟ وحين وجه له الحزب الوطني المعارض النقد قال لهم كلمته الشهيرة: أعطوني تجريدة - أي أعطوني قوة عسكرية - وأنا على استعداد لمواجهة الإنجليز. وحين وجه المندوب السامي البريطاني لورد اللنبي إنذاره إلى سعد زغلول مقتحمًا مجلس الوزراء بقواته العسكرية، أخذ سعد الإنذار وقرأه ثم قال في هدوء: لم أكن أعرف أنكم أعلنتم الحرب! لقد كان سعد زغلول عظيمًا وسيظل عظيمًا ولو كره أتباع الحزب الوطني.

سأل أحد الصحفيين الأجانب الأستاذ نجيب محفوظ عما سماه الإرهاب الإسلامي، فقال: ليس هناك شيء يُسمى الإرهاب الإسلامي، هناك إرهاب يُرتكب باسم الدين نشهده الآن من بعض من يقحمون الإسلام في أعمال العنف التي يرتكبونها، ومثلما شهدنا في الكاثوليكية في القرون الوسطى محاكم التفتيش التي كانت تحرق من تدينهم، لكن الدين دائمًا بريء من مثل هذه الأعمال، فليس هناك فيما أعلم دين يشجع على العنف وسفك الدماء، أو يتخذ من الإرهاب وسيلة لتحقيق أغراضه. لقد نزلت الأديان من أجل نشر التسامح والمحبة، وإذا لجأت إلى العنف فينبغي البحث عن أسباب ذلك، ليس في الدين نفسه وإنما في الظروف الاجتماعية والسياسية السائدة. فإذا نظرنا للوضع القائم الآن في العالم الإسلامي، نجد هناك شعورًا عامًا بالظلم، وبالإحباط. وفي الكثير من الأحيان يتزامن هذا الشعور مع وجود أزمة اقتصادية طاحنة، وتلك كلها عناصر متفجرة، فالإرهاب إذن هو رد فعل لأوضاع متردية، لكنه رد فعل مرضي لا نقره ولا تقره القوانين والمثل والأخلاق، لأنه يأخذ في طريقه الحابل بالنابل، ويستهدف الأبرياء الذين هم في الحقيقة ضحايا لهذه الأوضاع المتردية، وليسوا هم المتسببين فيها.

ثم يضيف الأستاذ: إن الإرهاب إلى جانب تعارضه مع الأديان السماوية وتعاليمها فهو في حالة مصر بالذات يتعارض أيضًا مع طبيعة الشعب المصري التي تنبذ العنف وسفك الدماء، والإرهاب دخيل على هذه الطبيعة التي تمتد من ٧ آلاف سنة، وسيزول بزوال الظروف التي أدت إليه.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: كلما سمعت عن عمليات القتل والاختطاف والانفجار التي تحدث في العراق بشكل يومي ألع عليّ خاطر بأن ما يحدث في العراق بعد دخول القوات الأمريكية كان تحويل العراق إلى بؤرة جديدة لانتشار العنف والإرهاب ولم يكن تحريراً للشعب من حكم دكتاتوري. لقد تحدثت الولايات المتحدة كثيراً عن أن حرب العراق هي جزء من الحرب ضد الإرهاب، لكنني أجد أن الإرهاب قد وجد الآن في الفوضى التي أوجدها الغزو الأمريكي مرتعاً جديداً بل ومبرراً جديداً أيضاً. وقد نتج عن ذلك أن العراق تحول الآن إلى بؤرة جديدة للأعمال الإرهابية لم تكن قائمة في السابق. لقد كان العراق يشكو من حكم دكتاتوري لا خلاف عليه، لكن سفراء الدول لم يكن يتم اختطافهم وإعدامهم بهذا الشكل الذي حدث للسفير المصري وللقائم بالأعمال الجزائري ولغيرهما. إن ما أصبح يحدث الآن لممثلي الدول الأخرى في العراق إنما يعني أن دائرة العنف التي تكتنف العراق لم تعد محصورة داخل حدوده، وإنما بدأت تطول الدول الأخرى بما في ذلك الدول العربية الشقيقة، لأن الإرهاب لا يعرف أشقاء ولا أقارب. إنني لا أستطيع أن أعفي الاحتلال الأمريكي البريطاني مما يحدث الآن في العراق، وإذا كان هذا البلد قد تحول بفضل الاحتلال إلى بؤرة خطيرة للعنف والإرهاب، فإن المسؤولية تقع على الاحتلال الأجنبي الذي أحاله خراباً ومرتعاً للإرهاب الذي قد يطولنا جميعاً.

سألت الأستاذ نجيب محفوظ عن أحلامه هذه الأيام والتي يستلهم منها قصص «أحلام فترة النقاهاة»، فقال: ما زلت أعتمد على أحلامي الفعلية لأكتب هذه السلسلة، لكنني كنت مصابًا في الفترة الأخيرة بوعكة صحية قَضَّت مضجعي وجعلتني أصحو من نومي وقد نسيت أحلامي تمامًا. قلت: ربما أنك لم تكن تحلم.

قال: لا، بل كنت أحلم، وكنت أشعر مع بعض الأحلام بأنها جيدة وأنني قد وضعت يدي على مادة صالحة للكتابة، لكنني كنت أبحث عن هذه الأحلام بعد أن أصحو فأجد أنها قد هربت مني.

قلت: كم حلمًا كتبت حتى الآن يا أستاذ نجيب؟

قال: ما يربو على المائتي حلم لم تُنشر كلها، فأنا أنشر ثلاثة أحلام كل شهر.

قلت: إذن لديك رصيد ما زال معدًّا للنشر.

قال: بالطبع، لكنني كنت قلقًا ألا تعود الأحلام ثانية، لأنها هي في الوقت الحالي مصدر إلهامي.

قلت: وهل عادت؟

قال: نعم، أخيرًا وبعد أن تماثلت للشفاء، وكتبت بالفعل ثلاثة أحلام جديدة، وهكذا أدركت أن سبب

هروبها هو حالتي المرضية.

ثم يضحك الأستاذ ويقول: معها حق، فمن يريد أن يجالس مريضًا؟!!

قلت للأستاذ نجيب محفوظ: بعد أقل من شهر من الآن تقيم السويد احتفالات نوبل السنوية ويتم تسليم جائزة الأدب للفائز بها هذا العام، فدعني أسألك عن سبب انحسار الاهتمام عن بعض الفائزين بنوبل بعد مضي وقت الجائزة، في الوقت الذي يتزايد فيه الاهتمام بالبعض الآخر كلما مرت السنون، فمثلاً الكاتب الفرنسي كلود سيمون لا يكاد أحد يقرأه الآن، ونادراً ما تتم إعادة طبع كتبه، رغم الاهتمام الذي حظي به وقت فوزه بنوبل في الثمانينيات الماضية، أما كتبك فما زال الإقبال عليها في العالم يتزايد من عام إلى عام، ولا يحدث أن أسافر للخارج إلا وأجد المكتبات تعرض ترجمات جديدة لرواياتك!

قال الأستاذ: قد يأخذ البعض تساؤل الاهتمام بأحد الحاصلين على نوبل على أنه دليل على أن الجائزة لم تكن في محلها، لكنني أعتقد أن السبب الحقيقي وراء ذلك هو تغير الأمزجة الأدبية من فترة إلى أخرى. بالطبع ليس جميع الفائزين بنوبل على نفس المستوى من التميز، لكن علينا أن نعي أيضاً أن الذوق الأدبي العام متقلب ما بين وقت وآخر، وقد يكون انصراف القراء عن كاتب ليس بسبب افتقاره إلى الموهبة وإنما لأن أعماله قد لا تتفق مع الاتجاه السائد للأدب في ذلك الوقت بالذات، وكم من مرة انصرف الذوق العام عن كاتب قدير ثم جاء عصر تالٍ فأعاد اكتشافه وصار هو الكاتب المفضل، والعكس أيضاً صحيح. فبعض الكُتَّاب الذين كانوا ملء السمع والبصر يتوارون تماماً بعد رحيلهم فلا يعود أحد يقبل على أعمالهم، وأنا أعتقد أن الكاتب يجب ألا يتوقف كثيراً أمام تلك الموضوعات الأدبية، بل عليه أن يكون مخلصاً لفنه، وإذا كان كاتباً ذا قيمة فسيأخذ حقه من التقدير والاحترام إن لم يكن في عصره ففي عصرٍ تالٍ.

قلت للأستاذ نجيب محفوظ: في مثل هذه الأيام من عام ١٩٨٨ فزت بجائزة نوبل، فماذا تمثله لك هذه الجائزة؟ هل نوبل كما يقول البعض هي نهاية المطاف بالنسبة للكاتب؟ قال الأستاذ: إنها لا تعني أكثر من أن الكاتب قد اجتهد، ولما كان لكل مجتهد نصيب، فقد قدر البعض هذا الاجتهاد ومنحه عليه جائزة، لكنها ليست أبدًا نهاية المطاف. قلت: لكنها أكبر جائزة أدبية في العالم، فماذا يكون بعدها من اجتهاد؟ رد الأستاذ: مزيد من الاجتهاد، فالكاتب الأصيل لا يمكن أن ينظر إلى ما أنجزه باعتباره الكمال الذي لا يحتمل أي إضافة.

قلت: وكيف تنظر إلى ما تكتبه الآن؟ قال: أكتب أشياء صغيرة هي في الحقيقة أقاصيص صغيرة لا تزيد على حجم الكف، ويقول بعض الكرماء إنها قصص.

قلت: نعرف عنك تواضعك الجم، والذي هو إحدى الخواص المتأصلة في الشعب المصري. رد الأستاذ: الشعب المصري لا يحب الكبر، بل هو يحترم الشخص المتواضع ويرفعه إلى أعلى المراتب، لكنه في نفس الوقت ذو كبرياء وعزة كبيرتين ولا يقبل الإهانة، فهو يثور دائمًا لكرامته وقد يصل في ثورته إلى أبعد مدى.

وعدت إلى كتاباته فقلت: لقد كتبت ما يزيد على أربعين رواية، بالإضافة إلى ما يقرب من ٣٠٠ قصة قصيرة، وتُرجمت معظم أعمالك إلى لغات العالم الحية من الإنجليزية والفرنسية إلى الصينية واليابانية، فإلى ماذا تتطلع في المرحلة الحالية من حياتك؟

محمد سلماوي أديب وكاتب صحفي مصري، صدر له أكثر من ثلاثين كتابًا ما بين المسرحيات والمجموعات القصصية والروايات والسيرة الذاتية، بالإضافة إلى مؤلفات في السياسة والصحافة. شغل عدة مواقع قيادية في مختلف المجالات، منها مدير تحرير «الأهرام ويكلي» التي تصدر بالإنجليزية، ورئيس تحرير «الأهرام إبدو» التي تصدر بالفرنسية، ووكيل وزارة الثقافة للعلاقات الخارجية، ورئيس مجلس إدارة مؤسسة «المصري اليوم». كما انتخب رئيسًا لاتحاد كُتّاب مصر، ثم أمينًا عامًا للاتحاد العام للأدباء والكُتّاب العرب، ثم أمينًا عامًا لاتحاد كُتّاب أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. حصل على العديد من الجوائز عن أعماله الإبداعية، وكرّمته مصر وعدد من الدول الأجنبية لمساهماته الثقافية، وحصل عام ٢٠٢١ على جائزة النيل في مجال الآداب، وهي أرفع جائزة تمنحها مصر للمبدعين.